# C:\Users\W-Kotb\Desktop\صفات ومهارات.jpg

منتقى التفاسير

في تفسير سورة البقرة

**تفسير الآيات من (102-134)**

تأمل

أبو عمر د/ محمد عبد المعطي محمد

**نقرأ في هذا الجزء ونطالع من الفوائد.**

المحتويات

[**مقدمة. 5**](#_Toc460404779)

[**نبذوا كتاب الله واتبعوا السحر والكفر 9**](#_Toc460404780)

[**حقيقة السحر وتأثيره 15**](#_Toc460404781)

[**حكم السحر والساحر 17**](#_Toc460404782)

[**كلمة في الختام. 18**](#_Toc460404783)

[**بناء شخصية المسلم والنهى عن اتباع اليهود والنصارى. 19**](#_Toc460404784)

[**الاستطراد وخصوصية البلاغة القرآنية. 20**](#_Toc460404785)

[**{يا أيها الذين آمنوا} 21**](#_Toc460404786)

[**{لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} 22**](#_Toc460404787)

[**من فقه الآية 24**](#_Toc460404788)

[**حسدٌ وكيدٌ وكراهية يؤكدها كتاب الله تعالى. 27**](#_Toc460404789)

[**النسخ في القرآن الكريم (بحث وتأمل). 29**](#_Toc460404790)

[**تفصيل البحث في الآية 36**](#_Toc460404791)

[**والخلاصة. 47**](#_Toc460404792)

[**{ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض}. 49**](#_Toc460404793)

[**تربية الأمة المؤمنة وقيم التميز عن أخطاء الأمم. 51**](#_Toc460404794)

[**ومع الآيات نسير 52**](#_Toc460404795)

[**حقيقة الإيمان العبودية التي هي التسليم لأمر الله. 55**](#_Toc460404796)

[**استعمال لفظ "الضلال" ودلالاته في القرآن. 56**](#_Toc460404797)

[**اتضاح المواقف. 57**](#_Toc460404798)

[**أخلاق الدعوة لا تُنسخ. 60**](#_Toc460404799)

[**دعائم التمكين. 62**](#_Toc460404800)

[**تلك أمانيهم بغير برهان. 65**](#_Toc460404801)

[**ليسوا على شيء جميعا. 69**](#_Toc460404802)

[**{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ...} 71**](#_Toc460404803)

[**{فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} 77**](#_Toc460404804)

[**فصل: في تأويل " وجه الله" في الآية. 83**](#_Toc460404805)

[**سبحانه عما يقولون 86**](#_Toc460404806)

[**{وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ.... } 90**](#_Toc460404807)

[**فائدة 93**](#_Toc460404808)

[**فائدةٌ ورد شبهة. 94**](#_Toc460404809)

[**{وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى...} 97**](#_Toc460404810)

[**{...يتلونه حق تلاوته...} 103**](#_Toc460404811)

[**نكتةٌ في بدائعِ آياتٍ من متشابهاتِ القرآن. 105**](#_Toc460404812)

[**إبراهيم عليه السلام 106**](#_Toc460404813)

[**بين يدىْ الآيات والتربية الإيمانية في سورة البقرة 106**](#_Toc460404814)

[**التفسير. 108**](#_Toc460404815)

[**{وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً} 115**](#_Toc460404816)

[**{رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ} 119**](#_Toc460404817)

[**دعوات إبراهيم المباركات عند البيت. 120**](#_Toc460404818)

[**{وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ} 122**](#_Toc460404819)

[**مشاهد القرآن وسماوات البلاغة. 125**](#_Toc460404820)

[**مشاهد دلالية 131**](#_Toc460404821)

والحمد لله رب العالمين

## مقدمة.

**الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه. وبعد.**

**لقد بدأتُ هذه السلسلة مستلهما دور(النحلة) اتنقَّل من زهرةٍ في أفانين التفسير إلى زهرة؛ أجمع رحيقها فرائدَ وشواردَ قيَّدها علماءٌ ثقاتٌ في تدبر وتفهُّم معاني كتاب الله-تعالى-ودلالاته، وبلاغته، وإعجازه، وتربيته للمؤمنين، ومنهجيته الراقية في ضبط إيقاع الحياة على ربانية الحق والإصلاح.**

**قرأتُ جميع ما وقع بين يدىْ في تفسير كل آيةٍ وتأملتها حرفاً حرفاً، ثم سجَّلتُ ما راق أسلوبه، ونضجت فكرته، وعمَّت فائدته، ودقَّت تفاصيل بلاغته، وألهمت دلالاته.**

**كنتُ أجمع، وأرتِّب، وأنضِّد، وأعيد الصياغة حينا، وأقرِّب الفكرة، وأبسِّط اللغة وعلوم البلاغة حيناً حتى يتسق ما جمعتُ في سياقٍ واحدٍ، لم آلُ فيه جهدي أن يجمع ما ندَّ وفذَّ وعزَّ من تأملات أهل المعاني والتفسير.**

**ومع تقدم قلمي في البحث والتنقيب تأملت وتدبرت عظمة لغة القرآن ودلالاته، وعلى أساس هذا التدبر صرتُ إلى المقارنة بين الآراء والترجيح بآليةٍ تتخذ (لغة القرآن) -بكل ما تعنيه الكلمة من معنى-في شمولٍ للعلاقات الداخلية التي تنتظم نظم القرآن ودلالاته وِفق (نظامٍ) و (نُسُقٍ) و(سياق) قرآنيٍ واحدٍ متصلٍ في القرآن كله بدءا من الحرف إلى الكلمة، فالجملة، فالآية، فالآيات، فالسورة، فالقرآن كله كأنه، بل هو " كلمةٌ واحدةٌ" يعود أوله على آخره، ويتناسق تناسقا رائعا فيما بين آياته.**

**هذا النسق أو النظام أو الاتساق أو السياق القرآني الممتد يكمِّل بعضه بعضا في كتاب الله يؤكد (تكاملية) و(انسيابية) المنهج الرباني و(تمامه) في آيات الله تعالى وفي (بنية) كتابه العظيم.**

**وهذه العلاقات والمعاني يجب أن يبحث عنها المؤمنون بأن هذا القرآن هو منهج هدى متكامل للبشرية جميعها كما قال ربنا في أول تعريفٍ لكتاب الله تعالى يصادفه القارئ لكتاب الله في أول سورة البقرة {ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين}.**

**وكتاب الله تعالى كتابُ منهجٍ وهداية، ولم يكن قط كتاباً تمحَّض في فلسفةٍ وجدالٍ، أو كتاب تاريخٍ وسيرةٍ، أو كتاب مسائلٍ واختلافٍ للفقهاء، أو كتاب لغةٍ ونحو وصرفٍ، أو تصوفٍ وحكايات، أو كتاب أفكار وأحزابٍ وتوجهات. ولا ننكر أنه حوى كل العلوم إشارةً وتنبيهاً لعظمته وإعجازه.**

**مَن فهم هذا وتلافى في تدبره الإفراط في توجيه كتاب الله تعالى إلى ما لم يكن يوما موجها إليه.**

**مَن فهم هذا وعرف أن كتاب الله تعالى حوى كلَّ خيرٍ، وحذَّر من كل شرٍ. وأنَّ فيه من كل العلوم، ويحوي من الإشارات ما يتكشَّف على مدى الدهر للفهوم، (ولكن) مع كون ذلك على الإجمال، (وفي إطار) كونه كتاب الهداية الأعظم والمعجزة لمنهج هذا الدين؛ الذي تدوم إعجازيته ويزيد جماله وجلاله على مر الدهور.**

**وأتذكر هنا قول الشيخ محمد عبده رحمه الله:**

**التكلم في تفسير القرآن ليس بالأمر السهل، وربما كان من أصعب الأمور وأهمها، وما كل صعب يترك. ولذلك لا ينبغي أن يمتنع الناس عن طلبه. ووجوه الصعوبة كثيرة.**

**أهمها: أن القرآن كلام سماوي تنزَّل من حضرة الربوبية التي لا يُتوهَّم إدراك كنهها على قلب أكمل الأنبياء. وهو يشتمل على معارفَ عاليةٍ، ومطالبَ ساميةٍ، لا يشرف عليها إلا أصحاب النفوس الزاكية، والعقول الصافية، وإن الطالب له يجد أمامه من الهيبة والجلال الفائضين من حضرة الكمال ما يأخذ بتلبيبه، ويكاد يحول دون مطلوبه، ولكن الله تعالى خفَّف علينا الأمر بأن أمرنا بالفهم والتعقل لكلامه؛ لأنه إنما أنزل الكتاب نوراً وهدىً، مبيِّناً للناس شرائعَه وأحكامَه، ولا يكون كذلك إلا إذا كانوا يفهمونه.**

**والتفسير الذي نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو دينٌ يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة، فإن هذا هو المقصد الأعلى منه، وما وراء هذا من المباحث فتابعٌ له أو وسيلةٌ لتحصيله.**

**وقال رحمه الله: وقد عرفت أن الإكثار في مقصدٍ خاص من هذه المقاصد يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الإلهي، ويذهب بهم في مذاهبَ تنسيهم معناه الحقيقي؛ لهذا كان الذي نعني به من التفسير هو ما سبق ذكره، أي من فهم الكتاب من حيث هو دينٌ، وهدايةٌ من الله للعالمين، ويتبعه بلا ريب: بيان وجوه البلاغة بقدر ما يحتمله المعنى وتحقيق الإعراب على الوجه الذي يليق بفصاحة القرآن وبلاغته أي عند الحاجة إلى ذلك كالمسائل التي عدوها مشكلة، وربما نشير أحيانا إلى الإعراب من غير تصريح بعبارات النحو الاصطلاحية، كما نفعل ذلك في بعض نكت البلاغة أو قواعد الأصول، حتى لا تكون الاصطلاحات شاغلا للقارئ عن المعاني، صارفةً له عن العبرة. انتهى ([[1]](#footnote-1))**

**وإن منطلقنا من أن كتاب الله كتاب هدايةٍ، يفرض علينا في تدبرنا لآياته أن نقف مع كل حرفٍ في كتاب الله تعالى نقرِّب بلاغته وعظيم دلالاته في منهج السماء بقدر طاقتنا في ذلك. وأحسب هذا مقصود قوله -عليه الصلاة والسلام-: «مَن قرأَ حرفاً من كتابِ الله فَلَهُ بِهِ حسنة، والحسنةُ بعشر أمثالها، لا أَقول: «الم» حرف، ولكن «أَلف» حرف، و «لام» حرف، و «ميم» حرف» أخرجه الترمذي بسند صحيح عن ابن مسعود.**

**فإن معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم الأعظم كانت كتاب الله وهو عين منهجه. فالمعجزة تحرس المنهج، والمنهج يحفظ المعجزة. وتفهم بلاغة اللغة القرآنية هو تفهم للمعجزة القرآنية الكبرى وهو بعينه إدراك لطبيعة وعظمة المنهج الإسلامي برمته.**

**وهذا معنى ما رواه الشيخان عَن أبي سعيد المَقْبُري عَن أبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم قَالَ: " مَا من الْأَنْبِيَاء نبيٌّ إِلَّا أعطي من الْآيَات مَا مثله آمن عَلَيْهِ الْبشر، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتيت وَحيا أوحاه الله إِلَيّ، فأرجو أَن أكون أَكْثَرهم تَابعا يَوْم الْقِيَامَة ".**

**ورحم الله تعالى الشيخ عبد القاهر الجرجاني (المتوفى: 471هـ) في فاتحة (دلائل الإعجاز) يصف سذاجة الحديث عن حدٍ (أو تعريف) يسير للفصاحة والبلاغة والبراعة فيقول:**

**(ولا يكفي أن تقولوا: "إنَّه خُصوصيةٌ في كيفيَّة النَّظْم، وطريقةٌ مَخْصوصةٌ في نَسَق الكَلِم بَعْضِها على بَعض"، حتى تَصِفوا تلكَ الخصوصيةَ وتُبَيِّنوها، وتذكروها لها أمثلةً، وتقولوا: "مثْلَ كيتٍ وكَيْتٍ"، كما يذكر مَنْ تَسْتوصِفُه عَمَلَ الدَّيباج المنقَّش ما تَعْلَم به وجْهَ دِقَّةِ الصنعة، أَوْ يَعْمَلهُ بينَ يديكَ، حتى تَرى عِياناً كيف تَذْهبُ تلك الخيوطُ وتَجيءُ؟ وماذا يَذْهَبُ منها طُولاً وماذا يَذهب منها عَرْضاً؟ وبِم يَبْدَأ وبم يُثَنِّي وبِمَ يُثَلِّثُ؟ وتُبْصِرُ منَ الحِسَابِ الدَّقيق ومِنْ عجيب تصرف اليد، ما تعلم معه مكانَ الحِذْقِ ومَوضِعَ الأُستاذيَّة.... وإِذا كان هذا هكذا، علمْتَ أنه لا يكفي في علمٍ "الفصاحةِ" أن تَنْصُبَ لها قياساً ما، وأن تَصِفها وصْفاً مُجْملاً، وتقولَ فيها قولاً مُرْسَلاً، بل لا تكونُ مِن مَعرفتها في شَيءٍ حتى تُفصِّل القولَ وتُحصِّلَ، وتضعَ اليدَ على الخصائصِ التي تَعْرِضُ في نَظْم الكَلِم وتَعُدُّها واحدةً واحدة، وتُسمّيها شيئاً شيئاً، وتكونُ معرفتك معرفة الصنع الحاذف الذي يعلم علم كل خيط من الخيوط في الدِّيباج، وكلَّ قطعةٍ منَ القِطَع المنجورة في الباب المقطع، وكل جزءٍ منَ الآجرِّ الذي في البناء البديع.**

**وإِذا نظرتَ إلى "الفصاحة" هذا النظرَ، وطلَبْتَها هذا الطلبَ، احتجْتَ إلى صبرٍ على التأمُّل، ومواظَبةٍ على التدبُّر، وإِلى هِمَّة تَأْبى لكَ أن تَقْنَع إلاَّ بالتَّمام.) انتهى.**

**فذلكة الأمر أني استخرت الله سبحانه وحملتُ رحلي وسرت في رياض الكتب أجمع ما رأيته نافعا في بيان هدايات كتاب الله وإعجازه وبلاغته – على قلة حيلتي وضعف بصيرتي. ولسوف يجد القارئ الكريم فيه بحوثا منيفةً، ونكاتٍ لطيفةً، ومعانٍ شريفةً منَّ بها الكريم العظيم، وليس لنا فيها غير التأمل والتنظيم.**

**لعلَّ ما جمعتُ من زخائر يكون في رحلاتنا لتدبر كتاب الله تعالى زادا. ولعل ذاك يكون لي في رحلة الحق إلى الله شفيعا. ويتقبله منا سبحانه بمنته وفضله.**

**وأقولها صريحةً بغير مواربةٍ لقد أحسن علماؤنا الكرام في درسهم وتفسيرهم وخدمتهم كتاب الله تعالى. ولكن الأمر لم ينتهِ وكتاب الله تعالى مازال كنزا لم يكتشف كله بعدُ.**

**ونحن نحتاج إلى درسٍ جديٍّ ومتجدد لآفاق معاني كتاب الله تعالى وربطها الواجب بالحياة منطلقاً في الفكر والعمل، وان نبحث دائما عن توجيهات وهدايات كلام الله تعالى في العقيدة والمنهج والفكر والأخلاق والمعاملات والعلم والأدب.**

**نحتاج أن نعيش مع كتاب الله تعالى الحياة الحقيقية التي أرادها الله سبحانه لعباده المؤمنين.**

**ونردد دائما وأبدا قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا} (الإسراء: 9).**

**{قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (108) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} (الإسراء: 107 -109).**

**ولأنه " لا يشكر الله مَن لا يشكر الناس" (كما روى أحمد رضى الله عنه في مسنده بسند صحيح). فإني أتـقدم بالشكر لأساتذتي في شبكة (الألوكة) المباركة على دعمهم في نشر ما يسر الله سبحانه وتعالى لنا تأمله، وأرجو من الله أن يمد في عمري وأرى هذا العمل مكتملا، وأن يتقبله الله منا ويجعله لنا زخرا.**

**والحمد لله رب العالمين، والصلاة على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.**

**كتبه الفقير إلى الله أبدا**

**أبو عمر / د. محمد عبد المعطي محمد.**

## نبذوا كتاب الله واتبعوا السحر والكفر

**قال تعالى: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (102) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (103)} (البقرة: 102، 103)**

**{وَاتَّبَعُوا} سر الواو هنا عطف جريمةٍ أخرى من جرائم اليهود على سابقتها، فهم لم يكتفوا بنبذ كتاب الله وراء ظهورهم كما بيَّنت الآيات من قبل؛ بل اتبعوا السحر والكفر ؛ أى نبذوا كتاب اللَّه {واتبعوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ} يعنى كتب السحر والشعوذة التي كانت تقرؤها الشياطين {عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ} أى على عهد ملكه وفي زمانه، أو ما كانوا يدَّعون على ملك سليمان – عليه السلام - من قيام هذا الملك بالسحر وهذا من سوء أدبهم المتمادي مع أنبياء الله تعالى، وفائدته تسلية الرسول المؤمنين ببيان أن ذلك ديدن القوم وخلقهم؛ فلا عجب أن ينكروا الإسلام ويحاربوه .**

**فلقد تعلق القوم بها، وتمسّحوا بما يرجف به المرجفون عنها، من شعوذات، ابتغاء الوصول إلى شىء من تلك القوى التي تملكها الشياطين، ليتسلطوا بها على العباد، وليجنوا من ورائها الربح المادىّ الذي يحلمون به! ولهذا كثر في بنى إسرائيل الأنبياء الكذبة، الذين طلعوا فيهم من كل ناحية، والذين حدّثت التوراة عنهم، وحذّرت منهم، ولكن القوم اتبعوا هؤلاء المتنبئين الأدعياء، وكفروا بأنبياء الله وبهتوهم.**

**\*\*\*\***

**{واتبعوا تَتْلُوا الشَّياطِينُ} أي: تقرأ وتحدِّث وتقص، (قلتُ: وفائدة التعبير عما مضى بفعل الحال، استحضارا للموقف عند المتلقي كأنه يشاهده يحدث أمامهن وهذا من براعة البلاغة القرآنية التي تتكرر في آياتٍ كثيرة، لتبين أسلوب القرآن في رسم الصورة ليس على مستوى العقل فقط وإنما على مستوى الشعور الحى والوجدان الفاعل في النفس عبر مشاركتها الحدث لحظةً بلحظةٍ، وليس مجرد عرض الحدث على قنوات الاتصال اللغوية. وفي هذا سر من أسرار بلاغة القرآن الفاعلة الوجدانية المؤثرة).**

**وقوله تعالى: {عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} (البقرة: 102).**

**يقول أهل التفسير: وذلك أنّ الشياطين كانوا يسترقون السمع، ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها ويلقونها إلى الكهنة وقد دوّنوها في كتب يقرءونها ويعلمونها الناس، وفشا ذلك في زمن سليمان عليه السلام حتى قالوا: إن الجن تعلم الغيب.**

**قال السدي: إن الناس، فِي زمن سليمان، اكتتبوا السحر، واشتغلوا بتعلمه، فأخذ سليمان تلك الكتب وجعلها فِي صندوق، ودفنها تحت كرسيه، ونهاهم عن ذلك، فلما مات سليمان، وذهب الذين كانوا يعرفون دفنه الكتب، تمثل الشيطان على صورة إنسان، فأتى نفرا من بني إسرائيل، فقال: هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبدا؟ قالوا: نعم. قال: فاحفروا تحت الكرسي. فحفروا، فوجدوا تلك الكتب، فلما أخرجوها، قال الشيطان: إن سليمان كان يضبط الجن والإنس والشياطين والطير بهذا.**

**فاتخذ بنو إسرائيل تلك الكتب، فذلك أكثر ما يوجد السحر فِي اليهود، وبرأ الله عز وجل سليمان من ذلك، وأنزل هذه الآية. ([[2]](#footnote-2))**

**قال الله تعالى يرد فريتهم من جذورها: {وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ} تكذيب للشياطين ودفع لما بهتت به سليمان -عليه السلام -من اعتقاد السحر والعمل به، وسمى السحر كفراً، فتنبه. يقول تعالى: {وَلكِنَّ الشَّياطِينَ} هم الذين {كَفَرُوا} باستعمال السحر وتدوينه {يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ} يقصدون به إغواءهم وإضلالهم.**

**وفى قوله تعالى: «وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا» احتراز عن فهم خاطئ لاستخدام الشياطين، التي لا يحمد لها قول أو عمل، وذلك أن سليمان كان يضبط أعمالها على الوجه المحمود، الذي لا يخرج بها عن طريق الحق والخير!! أما هؤلاء القوم فإنما يبتغون من وراء تسخيرها التسلط على الناس، ووضع مقدّراتهم تحت أيديهم، حيث يتعلمون منهم أبوابا من الحيل، وأشتاتا من المكايد.**

**والقوم إنما يلتمسون الباطل من كل وجه، ويصيدون الضلال من كل أفق.**

**قال الراغب رحمه الله: والآية منطوية على أمرين: ذم اليهود في تحري السحر وإيثاره وتبرئة لسليمان -عليه السلام -مما نسبوه إليه، فذكر الله تعالى أن بعض اليهود اتبعوا ما تخرص الشياطين على ملك سليمان، ونزه سليمان عن الكفر وما نسب إليه من السحر، وذكر أن الشياطين هم المستحقون لذلك. انتهى**

**{وَما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ} معطوف على السحر، أى: يعلمون الناس السحر ويعلمونهم ما أُنزل على الملكين. وقيل: هو معطوف على ما تتلو، أى: اتبعوا ما تتلو الشياطين، واتبعوا ما أُنزل على الملكين ببابل {هارُوتَ وَمارُوتَ} عطف بيانٍ للمَلَكين تعريفٌ لهما.**

**وقرأ الحسن (على الملِكين) بكسر اللام، على أنّ المنزل عليهما علم السحر كانا ملِكين ببابل.**

**\*\*\***

**وقوله تعالى: {وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ} اختلف أهل التفسير والمعاني فِي تعليم الملكين السحر.**

**فذكروا فِيهِ وجهين: أنهما كانا لا يتعمدان تعليم السحر، ولكنهما يصفانه، ويذكران بطلانه، ويأمران باجتنابه، واستعمل التعليم بمعنى الإخبار والوصف والإعلام. ويرى أصحاب هذا الرأي أن تعلم السحر في ذاته ليس بكفرٍ وإنما هو الإيمان به والاعتقاد فيه على تغيير الأقدار والتأثير في الحادثات؛ فهذا هو الكفر. فمن تعلمه منهم وعمل به كان كافراً، ومن تجنبه أو تعلمه لا ليعمل به ولكن ليتوقاه ولئلا يغتر به كان مؤمنا، ومنه قول أبو نواس الشاعر:**

**عرفت الشر لا للشر ... لكن لتوقيه.**

**فمن لا يعرف الشر ... من الناس يقع فيه.**

**وأرى في هذا الرأي ثير تكلف، فمن العلم القبيح، وما يضر ولا ينفع، ولا مأمن لتعلمه مع كثير شروره، ومنه السحر، وعلم التنجيم، وعلوم الفلسفة المتعمقة.**

**الوجه الثاني: أن الله عز وجل امتحن الناس بالملكين فِي ذلك الوقت، وجعل المحنة فِي الكفر والإيمان بمجرد أن يقبل تعليم السحر، فيكفر بتعلمه، ولله تعالى أن يمتحن عباده بما يشاء، كما امتحن بنهر طالوت فِي قوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ... الآية} (البقرة: 249)، يدل على صحة هذا: قوله: {وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ} (البقرة: 102) أي: محنة واختبار من الله تعالى.**

**ويرى بعض المفسرين: أن معنى {مِن أحدٍ}: أحدا، و(من) زائدة مؤكدة كقولك: ما جاءني من أحدٍ.هكذا يرون، والحق أنه عند التأمل لا وجود في القرآن للزائد أو ما يسمونه تخفيفا (صلة)، فمثلا هنا دلالة حرف التبعيض (من) في {مِن أحدٍ} تؤكد على تقصيهم (أي الملكين هاروت وماروت) في التحذير لكل أحد يعلمونه صغيرا كان أو كبيرا، ذكيا أو غبيا، طيبا أو شريرا، فما أضافه حرف (من) هنا أغنى عن كلام كثير في إقامة الحجة بتحري الملكين للتنبيه والتحذير، فكيف تكون (زائدة)؟!**

**\*\*\*\***

**وقوله تعالى: {إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ} أى ابتلاء واختيار من اللَّه، ومعنى الفتنة: الابتلاء والامتحان، مأخوذ من قولهم: فتنت الذهب والفضة، إذا أذبتهما بالنار ليتميز الرديء من الجيد. ومن هذا قوله تعالى: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ} (العنكبوت: 2) قيل فِي تفسيرها: وهم لا يُبتلون فِي أنفسهم وأموالهم.**

**{وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} (العنكبوت: 3) أي: اختبرنا.**

**{فَلا تَكْفُرْ} فلا تتعلم معتقداً أنه حق فتكفر (تلك عبارة الزمخشري في تفسيره وعليها مؤاخذات، فالرجل معتزلي لا يؤمن بحقيقة السحر، ويراه مجرد تخييل كما يأتي).**

**وقد اتجه أهل المعاني هنا اتجاهان في إشارة ودلالة هذه الجملة. فقال بعضهم: فيها أن تعليم السحر وتعلمه كفر، واستدلوا بما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من النهى عن فك السحر بالسحر. وقال آخرون: بل الحرام والكفر هو العمل به والاتكال عليه واعتقاد تأثيره بمعزل عن مشيئة الله سبحانه وتعالى.**

**وجاء في الحديث أن رسول الله، -صلى الله عليه وسلم -، سئل عن النُّشْرَة فقال: «هي من عمل الشيطان» (مسند أحمد وسنن أبي داود بسند حسن).**

**قَالَ ابْنُ القَيِّمِ: النُّشْرَةُ: حَلُّ السِّحَرِ عَنِ المَسْحُوْرِ، وَهِيَ نَوْعَانِ: أَحَدُهُمَا: حَلٌّ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ، وَهُوَ الَّذِيْ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ -وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ الحديث -فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ وَالمُنْتَشَرُ إِلَى الشَّيْطَانِ بِمَا يُحِبُّ، فَيُبْطِلُ عَمَلَهُ عَنِ المَسْحُوْرِ.**

**وَالثَّانِي: النُّشْرَةُ بِالرُّقْيَةِ وَالتَّعَوُّذَاتِ وَالأَدْوِيَةِ وَالدَّعَوَاتِ المُبَاحَةِ؛ فَهَذَا جَائِزٌ. ([[3]](#footnote-3))**

**\*\*\*\***

**قال تعالى: {فَيَتَعَلَّمُونَ} أى الناس من الملكين {ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ} أى علم السحر الذي يكون سببا في التفريق بين الزوجين، كالنفث في العقد، ونحو ذلك مما يحدث اللَّه عنده الفِرْك والنشوز والخلاف ابتلاءً منه، لا أنّ السحر له في نفسه تأثير بغير مشيئة الله تعالى بدليل قوله تعالى: {وَما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} لأنه ربما أحدث اللَّه عنده فعلا من أفعاله وربما لم يحدث.**

**قال الراغب: وينبغي أن يُعلم أن الإذن في الشيء من الله تعالى ضربان:**

**أحدهما: الإذن لقاصد الفعل في مباشرته نحو قولك: أذن الله لك أن تصل الرحم، أى رضي وشرع، قلتُ: ومنه قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ} (يونس: 59) أي شرع لكم هذا ورضيه.**

**والثاني: الإذن بمعنى المشيئة والتقدير، أي في تسخير الشيء على وجه تسخير السم في قتله من يتناوله، والترياق في تخليصه من أذيته، فإذن الله تعالى في وقوع التسخير وتأثيره من القبيل الثاني، وذلك هو المشار إليه بالقضاء، وعلى هذا يقال: الأشياء كلها بإذن الله وقضائه، ولا يقال: الأشياء كلها بأمره ورضاه.**

**(أقول: فالإذن بإباحة فعل الشئ ورضاه، غير الإذن بحدوثه. وهو الفرق عينه بين إرادة الله تعالى بمعنى المشيئة الكونية، وإرادة الله بمعنى الرضى والمحبة الشرعية، فإنه يحل إشكاليات عقدية عنيفة، فتنبه).**

**\*\*\*\***

**قال تعالى: {وَيَتَعَلَّمُونَ ما يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ} لأنهم يقصدون به الشر.**

**وفيه أن اجتنابه أصلح كتعلم الفلسفة التي لا يُؤمَن أن تجرّ إلى الغواية.**

**فإن قيل: فما سر التعبير ب {مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ} وما يضر معلومٌ أنه لا ينفع؟**

**قيل: قد يكون الشيء نافعاً من وجه وضاراً من وجه، وتعلم السحر لو احترزوا بمعرفته عمن يغوي لكان نفعاً، فلم ينتفعوا به من هذا الوجه واستضروا به لاستعمالهم إياه في غير الحق، فهو يضرهم ولا ينفعهم.**

**{ولقد علم} هؤلاء اليهود أن من اشتراه أى استبدل ما تتلو الشياطين من كتاب اللَّه {ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ} من نصيب. وَالْخَلَّاقُ: النَّصِيبُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ قُدِّرَ لِكُلِّ أَحَدٍ نَصِيبُهُ، قال المفسرون: الخَلَاق من هذه الآية: النصيب من الجنة.**

**{وَلَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} أى باعوها. أي: بئس شيء باعوا به حظ أنفسهم، حيث اختاروا السحر ونبذوا كتاب الله، لو كانوا يعلمون عاقبة ما يصير إليه من بخس حظه فِي الآخرة. ولو أنهم آمنوا بمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والقرآن، واتقوا اليهود والسحر، لأثيبوا ما هو خير لهم في الدنيا والآخرة.**

**فإن قيل: كيف أثبت لهم العلم في أول الكلام {ولقد علموا} ونفى عنهم في آخره {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} (البقرة: 103)؟ فالجواب في ذلك من أوجه.**

**الأول: أن العلم المثبت لهم هو العقل الغريزي، وما جعله لهم بصيغته، والمنفي عنهم هو المكتسب الذي هو من جملة التكليف.**

**والثاني: أن المثبت لهم هو العلم بالجملة، والمنفي عنهم هو العلم بالتفصيل، فقد يعلم الإنسان مثلاً قبح الشيء ثم لا يعلم أن فعله قبيح، فكأنهم علموا أن شرى النفس بالسحر مذموم، لكن لم يتفكروا في أن ما يفعلونه هو من حملة ذلك القبيح.**

**والثالث: أنهم علموا عقاب الله، لكن لم يعلموا حقيقة عقابه وشدته.**

**والرابع: أن معنى قول {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} يعملون به، لأن من لا يعمل بما يعلم فهو في حكم من لا يعلم. (أفاده الراغب رحمه الله).**

**\*\*\*\***

**قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (103)}**

**والمثوبة بمعنى الثواب، ومادتها من رجوع الشيء إلى حالة شبيهة بالحالة الأولى، يقال: ثاب الحوض إذا امتلاء بعد فراغه عقيب امتلائه، والثيِّب من النساء لعودها إلى الأيَمَة (أى كونها لا زوج لها)، والتثويب في الصوت ترديده، والثواب والمثوبة في الخير تحصيل نفعٍ يرجع إليه بإحسانه.**

**ومعنى الآية: لو أمن الذين يتعلمون السحر واتقوا لأثيبوا وكان ذلك خيرا لهم، ولو كانوا يعلمون لظهر لهم ذلك.**

**لطيفة:**

**جواب (لو) في قوله تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا} فعل مُقدَّر وتقديره: لأثيبوا، دلَّ عليه {لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ} تقول: لو أتاني زيد لإكرامي خير له، ولا تقول: لو أتاني زيد لعمرو منطلق، إذ لم يدل لفظ عمرو على فعل، وجواب لو لا يكون إلا فعلاً، أو ما دلَّ عليه، كما يقول النحويون.**

**قال الزمخشري: فإن قلت: كيف أوثرت الجملة الاسمية على الفعلية في جواب (لو)؟ قلتُ: لما في ذلك من الدلالة على ثبات المثوبة واستقرارها.**

## حقيقة السحر وتأثيره

**قال الراغب الأصفهاني: وأما السحر فقد اختلفوا في ماهيته على ثلاثة أوجه:**

**فالأول: ما ذهب إليه أكثر الجدليين (من المعتزلة وأشباههم)، وهو أنه اسم خداع وتخييلات لا حقيقة له، وإنما اعتماد الساحرين على شغل القلوب بشعبذة صارفة للأبصار وتمتمة عميقة للأسماع ولصرف الأبصار، قال تعالى: {سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ}، ولشغل الأسماع بالنميمة، قال: فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه، قالوا: ولهذا سُمي البيان الرائق سحراً.**

**والثاني: ما ذهب إليه الأغشام من العوام وجماعة من الأشرار، وهو أنه اسم لفعلٍ من قوته تغيير الطبائع ونقل الصور، كجعل الإنسان حيواناً أخر وذكروا من ذلك خرافات توصلت بها الملحدة والبراهمة إلى إبطال النبوات والمعجزات.**

**والثالث: ما ذهب إليه محصلة أهل الأثر وعامة المتوسمين بالحكمة، وهو أنه عمل يقرِّب إلى الشيطان بمعونة منه، وذلك أن توقع الساحر وهمه على أمرٍ يريد فعله بالغير لافظاً بكلمات من الشرك ومادحاً للشيطان مستعيناَ به.**

**ولهذا قال سبحانه: {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ}، وقال: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}، وقال: {شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} ...**

**قال الراغب: ولو لم يكن للسحر حقيقة لا أعظم الله أمره في قوله: {وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ}، ولما أمروا بالتعوذ من شر النفاثات في العقد، ولو كان كما قال الجدليون لما ورد والشرائع بقتل السحرة ونفيهم عن بلاد الإسلام، ولما أجرى مجرى الشرك....**

**وقد أنكر الجدليون ما روي في ذلك من الأخبار الصحيحة والآثار الواضحة كنحو ما روي أن اليهود سحرت رسول الله -صلى الله عليه وسلم -فقال -عليه السلام: " أتاني ملكان، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما: ما بالرجل فقال الأخر: مطبوب، قال: ومن طببه؟ قال: بنات لبيد بن أعصم اليهودي "، فبماذا قال في مشط ومشاطه، وجف طلعه ذكر في بئر ذوي أروان، فبعث من أخرجه وحل عقده، فكلما حل حل عقده، وجد لذلك خفة كأنما أنشط من عقال ".**

**قالوا: إن ذلك إن قلنا بصحته لكان يقدح في نبوته.**

**وليس الأمر على ما ظنوه لما تقدم، ولأن تأثير السحر لم يكن في النبي -عليه السلام -من حيث ما هو نبي، وإنما كان في بدنه من حيث هو إنسان وبشر، وكما كان يأكل ويتغوط ويشرب ويمشي ويقعد ويغضب ويشتهي ويمرض ويصح من حيث هو بشر لا من حيث هو نبي، وإنما كان ذلك قادحا في النبوة لو وجد للسحر تأثير في أمر يرجع إلى النبوة.**

**ثم كون النبي - عليه السلام - معصوما من الشيطان لا يقتضي أن لا يؤثر في بدنه ذلك تأثيراً صغيرا لا يقدح فيه من حيث ما هو نبي، فقد كأن تأثير ذلك في جزء من بدنه تأثيرا محسوسا لم يتعده إلى زوال عقله ولا إلي إفساد نفسه، كما أن جرحه وكسر ثناياه يوم أحد لم يقدح فيما ضمن الله له من عصمته، حيث قال: {وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ}، وكما لا اعتداد بما يقع في الإسلام من ارتداد أهل بلد أو غلبة المشركين على بعض النواحي فيما ذكر من كمال الإسلام بقوله: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} ومن أثبت كليات الحقائق بإثبات جزئياتها لم يسعفه في قياسه لدى التحصيل مقدمته ولا يثبت به في المقامات قدمه.**

**قال: وأما تصاريف لفظ السحر، فقد كثرت، وذاك إنه من حيث يتصور تارة دقته وتارة، حسنه وتارة فتنته، وتارة خبثه وشرارته استعمل في كل ذلك لفظه بحسب تصور كل واحد من ذلك، فسمي الشعبذة سحرا ومنه قوله: {سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ}، والكلام الرائق سحرا، ومنه قيل: (إن من البيان لسحرا)، والعين الفاتنة ساحرة، والعالم ساحرا، وعلى ذلك حمل قوله: {وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ}، والفعل الدقيق سحرا حتى قالت الأطباء: الطبيعة ساحرة، وسمي الغذاء سحرا من حيث يدق تأثيره. انتهى ([[4]](#footnote-4))**

**أقول:**

**وكلام الراغب -رحمه الله -في غاية الحكمة فهو يقسم قضية الاختلاف في السحر إلى طرفان ووسط، والحق دائما في الوسطية الإسلامية المنصفة، لأن مَن أنكر حقيقة السحر جملةً فقد اشتط وأنكر فعل أهل الشرور من شياطين الإنس والجن، والعجب أن الذين يقولون بذلك هم المعتزلة حاملي لواء حرية أفعال العباد. ومَن اشتط على النقيض بإثبات كل أثرٍ للسحر فقد عبد في دينه الخرافة وأفسد دينه باعتقاد تأثيرٍ مبالَغٍ فيه يخرج عن إرادة الله وحاشا. ولكن أهل الحق يثبتون وجود الأشرار من الإنس الذين يستعينون بأشرار الجن ويتقربون إليهم بالكفر لأذية الناس. وكل ذلك بإذن الله تعالى لا يخرج عن مشيئته وعلاجه في الإيمان والقرآن والدعاء. وعلى هذا جاءت آيات الكتاب وصحيح السنة المشرفة، فتنبه.**

## حكم السحر والساحر

**قال القرطبي رحمه الله 2/ 47: واختلف الفقهاء في حكم الساحر المسلم والذميّ، فذهب مالك إلى أن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفرا، يقتل ولا يستتاب ولا تقبل توبته لأنه أمر يستسر به كالزنديق والزاني، ولأن الله تعالى سمّى السحر كفرا بقوله {وَما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ}. وهو قول أحمد بن حنبل وأبي ثور وإسحاق، والشافعي وأبي حنيفة.**

**وقال الإمام الموفق رحمه الله في «المغني» 12/ 300: قال أصحابنا: ويكفر الساحر بتعلّمه وفعله، سواء اعتقد تحريمه أو إباحته. وروي عن أحمد ما يدل على أنه لا يكفر فإن حنبلا روي عنه، قال: قال عمّي في العرّاف والكاهن والسّاحر: أرى أن يستتاب من هذه الأفاعيل كلّها فإنه عندي في معنى المرتد، فإن تاب وراجع-يعني-خلّي سبيله. قلت له: يقتل؟ قال: لا، يُحبس، لعلّه يرجع. قلت له: لم لا تقتله؟ قال: إذا كان يصلّي، لعلّه يتوب ويرجع. وهذا يدلّ على أنه لم يكفّره، لأنه لو كفّره لقتله. وقوله: في معنى المرتد. يعني في الاستتابة. وقال أصحاب أبي حنيفة: إن اعتقد أن الشياطين تفعل له ما يشاء، كفر، وإن اعتقد أنّه تخييل لم يكفر. وقال الشافعي: إن اعتقد ما يوجب الكفر، مثل التقرب إلى الكواكب السّبعة، وأنها تفعل ما يلتمس، أو اعتقد حِلّ السحر، كفر، لأن القرآن نطق بتحريمه، وثبت بالنقل المتواتر والإجماع عليه، وإلّا فُسِّق ولم يكفّر لأن عائشة باعت مدبِّرةً لها سحرتها بمحضر من الصحابة.**

**- وحدّ الساحر القتل، روي ذلك عن عمر، وعثمان بن عفان، وابن عمر، وحفصة وجندب بن عبد الله، وجندب بن كعب وقيس بن سعد، وعمر بن عبد العزيز. وهو قول أبي حنيفة، ومالك. ولم ير الشافعيّ عليه القتل بمجرد السحر وهو قول ابن المنذر. ورواية عن أحمد ذكرناها فيما تقدّم. ووجه ذلك عند أحمد أن عائشة رضي الله عنها باعت مدبّرة سحرتها، ولو وجب قتلها لما حلّ بيعها، ولأن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: «لا يحل دم امرئ مسلم إلّا بإحدى ثلاث، كفر بعد إيمان، أو زنى بعد إحصان، أو قتل نفس بغير حقّ». ولم يصدر منه أحد الثلاثة، فوجب ألَّا يحلّ دمه، ولنا ما روى جندب بن عبد الله عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: «حد الساحر، ضربة بالسّيف».**

**قال ابن المنذر: رواه إسماعيل بن مسلم، وهو ضعيف وأخرجه سعيد في «السنن» 2/ 90، 91 عن بجالة قال: كنت كاتبا لجزء بن معاوية، عمّ الأحنف بن قيس، إذ جاءنا كتاب عمر قبل موته بسنة: اقتلوا كلّ ساحر، فقتلنا ثلاث سواحر في يوم، وهذا اشتُهر فلم يُنكر، فكان إجماعا.**

**وقتلت حفصة جارية لها سحرتها. وقتل جندب بن كعب ساحرا كان يسحر بين يدي الوليد بن عقبة. ولأنه كافر فيقتل، للخبر الذي رووه.**

**وهل يستتاب الساحر؟ فيه روايتان:**

**أحدهما، لا يستتاب، وهو ظاهر ما نُقل عن الصحابة، فإنه لم ينقل عن أحد منهم أنه استتاب ساحرا.**

## كلمة في الختام.

**والآيتان وإن كانتا في صدد اليهود وآثامهم ومواقفهم فإنهما تنطويان على تلقين مستمر المدى شأن الفصول السابقة والقصص القرآنية عامة. ومن هذا التلقين أنه لا يجوز للمؤمنين أن يعتقدوا أن السحر يضرّ أحدا بغير إذن الله، وأن الذين يتعاطونه آثمون عند الله ولن يكون لهم حظ ونجاة في الآخرة.**

**وهناك حديث رواه الخمسة ذكر السحر فيه بعد الشرك من جملة الموبقات السبع التي نهى النبي صلّى الله عليه وسلّم عنها حيث روي أن النبي قال: اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: وما هنّ يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرّم الله إلّا بالحقّ وأكل الرّبا وأكل مال اليتيم، والتولّي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات».**

**وقد يكون من الحكمة فيما احتوته الآيتان والأحاديث أن الناس إذ يرجعون إلى السحرة لتحقيق مطالب ليست في نطاق الجهد الإنساني العادي، وإذ يتعاطى السحرة السحر بزعم أنهم قادرون على تحقيق تلك المطالب يكون الأولون قد انصرفوا في مطالبهم عن الله عز وجل الذي هو وحده القادر على تحقيق تلك المطالب والذي لا يجوز لمؤمن أن يرجع في تحقيقها إلى غيره ويكون ذلك منهم في معنى الشرك بالله ودعاء غيره. ويكون الآخرون قد ارتكسوا فيما فيه الكذب والتدجيل والضرر الخلقي والحسي والتشجيع على ذلك للانصراف عن الله عز وجل ودعاء غيره. ([[5]](#footnote-5))**

**أقول: قد ورد عند كثير من المفسرين في تفسير هاتين الآيتين رواياتٍ كثيرة متداخلة حينا ومتعارضة أخرى وكثير منها مأخوذ من إسرائيليات أهل الكتاب. والمنهج الذي أرتضيه أن يفسر القرآن بعيدا عن تلك المؤثرات والعوامل الخارجية التي لم يأت النص الحكيم ليعالجها؛ خصوصا إذا كان النص في داخله يحمل مفاتيح بيانه دون الحاجة إلى زيادات أهل الكتاب التي تقع في مجملها ضمن دائرة الغث الذي لا يقوم مع مقصود كتاب الله تعالى.**

**ولذلك أرى أن نسير مع الآيات ونضرب صفحا عن علومٍ لا يحتاجها الكتاب العزيز والجهل بها لا يضر. ([[6]](#footnote-6))**

# بناء شخصية المسلم والنهى عن اتباع اليهود والنصارى.

**يقول تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105)} (البقرة 104-105).**

**فأما عن وجه تعلق هاتان الآيتين بما قبلهما (اعلم أن الله تعالى لما شرح قبائح أفعالهم قبل مبعث محمد عليه الصلاة والسلام أراد من هاهنا أن يشرح قبائح أفعالهم عند مبعث محمد صلى الله عليه وسلم وجدهم واجتهادهم في القدح فيه والطعن في دينه). ([[7]](#footnote-7))**

**وهذا النوع من أنواع تعلق الكلام بعضه ببعض يسمى (استطراد) وهو أن يخرج المتكلم من الغرض الذي هو فيه إلى غرض آخر لمناسبةٍ بينهما، ثم يرجع فينتقل إلى إتمام الكلام الأول ([[8]](#footnote-8))، كقول السموأل: (من الطويل)**

**وإنا لقومٌ لا نرى القتل سُبَّةً...... إذا ما رأته عامرٌ وسلولُ.**

**يقرِّب حبُّ الموتِ آجالَنا لنا...... وتكرههُ آجالهمْ فتطولُ.**

**فسياق القصيدة، للفخر بقومه، وانتقل منه إلى هجو قبيلتي عامر وسلول ثم عاد إلى مقامه الأول، وهو الفخر بقومه. فإن قطع أو رجع إلى ما كان فيه، فذلك (استطراد)، وإن تمادى فذلك (خروج)، قال: وأكثر الناس يسمِّي الجميع (استطراد).**

## الاستطراد وخصوصية البلاغة القرآنية.

**ولأننا نردد دائماً أن علاقات المناسبة داخل النص القرآني علاقات دقيقة ولطيفة تجعل منه كلمة واحدةً يعود أولها على آخرها، ويأخذ وسطها بأطرافها، فإنك تجد في القرآن كثيرا من نوع هذا الاستطراد الذي يدفع الملل وينبه السامع إلى دلالاتٍ واسعةٍ، ويفتح آفاقا كبيرةً للمعاني القرآنية.**

**ولكننا هنا تؤثر أن نركز على نكتة (اللطف) والدقة في هذه العلاقات الداخلية التي تربط أجزاء النص القرآني.**

**فمثلا نجد هنا أن الاستطراد له دلالات سياقية بديعة تتعلق بعملية الاسقاط الواسعة النطاق الممتدة من أول سورة البقرة – والتي نبهنا عليها مرارا-للتاريخ البشع لبني اسرائيل في تعاملهم مع منهج الله تعالى؛ اسقاط هذه الاستراتيجية الفاسدة في حرب منهج الله تعالى على امتدادهم أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم إصرارهم الدؤوب على رايات الكفران عبر الزمان إلى يومنا هذا.**

**هذا الاسقاط عينه موجه بصورةٍ موازية للجماعة المؤمنة يحذرهم طريق (المغضوب عليهم والضالين)، ويبصرهم بأدق تفاصيل خداعهم ونفاقهم وحروبهم ضد دين الله تعالى الحق.**

**إنه تحذير للمؤمنين أن يتبعوا طريق أهل النفاق والضلال ولو في كلامهم، وفي ذات الوقت بيان لامتداد فعل بني إسرائيل مع أنبيائهم في القديم، وفعلهم مع محمد صلى الله عليه وسلم في الحاضر وفعلهم مع أمته في المستقبل. وفي ذلك للمتأمل تسلية لرسول الله عليه السلام عما يلقاه في سبيل دعوته من الأذى فالقوم هم القوم فعلوا ما فعلوا مع أنبياء الله تعالى في كل عصر؛ وما زال أذاهم وكفرهم يمتد ويمتد.**

**وهنا أيضا نتدبر دلالات الخطاب القرآني المتسعة، فهى وإن كانت في بنيتها السطحية تحتمل معنىً، ففي تأمل بنيتها العميقة تتجه إلى معانٍ جمةٍ تتعلق بالسياق وتتممه.**

**إذن فالحديث البلاغي المجرد عن نوع (استطراد) يقع في القرآن هو حديث ساذج وسطحي؛ لا بد من مناقشته.**

**فالأفق الدلالية للبلاغة القرآنية بديعة ولطيفة ودقيقة لا يكفي أبدا فيها التحليل اللغوي الاصطلاحي الجامد الذي يراعي إيقاع الشكل البلاغي على اصطلاح بعينه. وإنما هنا التدبر ثم التدبر ثم التدبر لقوم يفلحون.**

**أعاننا على تدبر كتابه الكريم، وفهمه والعمل به والتسليم.**

## {يا أيها الذين آمنوا}

**قال الفخر: اعلم أن الله تعالى خاطب المؤمنين بقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا} في ثمانية وثمانين موضعا من القرآن (قلتُ-معلقه: بل هي تسعة وثمانون موضعا).**

**قال ابن عباس: وكان يخاطب في التوراة بقوله: " يا أيها المساكين". فكأنه سبحانه وتعالى لما خاطبهم أولا بالمساكين أثبت المسكنة لهم آخرا حيث قال: {وضربت عليهم الذلة والمسكنة} (البقرة: 61)، وهذا يدل على أنه تعالى لما خاطب هذه الأمة بالإيمان أولا فإنه تعالى يعطيهم الأمان من العذاب في النيران يوم القيامة، وأيضا فاسم المؤمن أشرف الأسماء والصفات، فإذا كان يخاطبنا في الدنيا بأشرف الأسماء والصفات فنرجو من فضله أن يعاملنا في الآخرة بأحسن المعاملات. انتهى ([[9]](#footnote-9))**

**وأقول: إن الحديث إذ كان عن تمايزٍ وضع حده القرآن بين أهل الكفر والنفاق وسبيلهم، وبين سبيل المؤمنين كان نداء التكريم الرباني الراقي لأتباع محمد صلى الله عليه وسلم ب {يا أيها الذين آمنوا}، وذلك أننا مخاطبون بأن نتبع سبيل المهتدين، ونجتنب سبيل الضالين المفسدين، وهذه الخطاب لا يسمعه ويستجيب له إلا المؤمنون.**

**وفي تفسير ابن أبي حاتم أن رجلا أتى عبد الله بن مسعود فقال: أعهد إلى فقال: إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَأَرْعِهَا سَمْعَكَ فَإِنَّهُ خَيْرٌ يَأْمُرُهُ أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ.**

**قال العلامة أبو حيان الأندلسي (م745ه):**

**هَذَا أَوَّلُ خِطَابٍ خُوطِبَ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، بِالنِّدَاءِ الدَّالِّ عَلَى الْإِقْبَالِ عَلَيْهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّ أَوَّلَ نِدَاءٍ جَاءَ أَتَى عامّا: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ}، وَثَانِيَ نِدَاءٍ أَتَى خاصا: {يَا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نعمتي...}، وَهِيَ الطَّائِفَةُ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَى الْمِلَّتَيْنِ: الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ، وَثَالِثَ نِدَاءٍ لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ الْمُؤْمِنِينَ.**

**فَكَانَ أَوَّلُ نِدَاءٍ عَامًّا، أُمِرُوا فِيهِ بِأَصْلِ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ. وَثَانِيَ نِدَاءٍ، ذُكِّرُوا فِيهِ بِالنِّعَمِ الْجَزِيلَةِ، وَتُعُبِّدُوا بِالتَّكَالِيفِ الْجَلِيلَةِ، وَخُوِّفُوا مِنْ حُلُولِ النِّقَمِ الْوَبِيلَةِ.**

**وَثَالِثَ نِدَاءٍ: عُلِّمُوا فِيهِ أَدَبًا مِنْ آدَابِ الشَّرِيعَةِ مَعَ نَبِيِّهِمْ، إِذْ قَدْ حَصَلَتْ لَهُمْ عِبَادَةُ اللَّهِ، وَالتَّذْكِيرُ بِالنِّعَمِ، وَالتَّخْوِيفُ مِنَ النِّقَمِ، وَالِاتِّعَاظُ بِمَنْ سَبَقَ مِنَ الْأُمَمِ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَا أُمِرُوا بِهِ عَلَى سَبِيلِ التَّكْمِيلِ، مِنْ تَعْظِيمِ مَنْ كَانَتْ هِدَايَتُهُمْ عَلَى يَدَيْهِ. انتهى ([[10]](#footnote-10))**

**أقول: نجد هنا تدرج الخطاب وتسلسله المنطقي من بدء سورة البقرة إلى هذا الموضع. فبعد الحديث الجميل الذي بدأ عن هدايات القرآن وأصناف الناس في تلقيها، ثم قصة البداية التي يجئ معها الصراع الأبدي بين الخير والشر، والنجاة والهلاك، والفوز والخسران في حياة البشرية، انتقل الحديث من تذكير البشرية بنعم ربها وهداياته إلى مثالٍ أكثر خصوصيةً وأغنى تجربةً في التعامل مع منهاج السماء للأخذ بيدي البشرية الحائرة. إنهم بنو إسرائيل وعنادهم، ومحاربتهم لمنهج السماء برعونتهم، وخرقهم المستمر لعهودهم مع الله تعالى. إنهم النموذج التعليمي الدقيق لبناء الأمة الجديدة على أسس صحيحة من الالتزام بوعد الله تعالى وانتظار موعوده. ومن هنا يبدأ الغرض الأسمى في بناء شخصية الأمة المحمدية على تلقي المنهج والعمل به، وتوقي وتلافي المخالفات الشنيعة التي وقع فيها بنو إسرائيل.**

## {لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ}

**قرأ جمهور الناس «راعنا» من المراعاة بمعنى أرعنا سمعك ونظرك، وفي أن يخاطب بذلك أحدٌ نبيه جفاءٌ ظاهر، وقد حضَّ الله تعالى على خفض الصوت عنده وتعزيره وتوقيره، وكما قال تعالى: {لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا} (النور: 63). فقال مَن ذهب إلى هذا المعنى إن الله تعالى نهى المؤمنين عنه لهذه العلة، ولا مدخل لليهود في هذه الآية على هذا التأويل، بل هو نهيٌ عن كل مخاطبةٍ فيها استواءٌ مع النبي صلى الله عليه وسلم. ([[11]](#footnote-11))**

**أقول: وفي كون ذلك المقصود دون غيره نظر. ويتعين في مثل هذه الآية ([[12]](#footnote-12)) طلبُ سبب نزولها ليظهر موقعها ووجه معناها، فإن النهي عن أن يقول المؤمنون كلمةً لا ذم فيها ولا سخف لا بد أن يكون لسبب، وقد ذكروا في سبب نزولها أن المسلمين كانوا إذا ألقى عليهم النبيء صلى الله عليه وسلم الشريعة والقرآن يتطلبون منه الإعادة والتأني في إلقائه حتى يفهموه ويعوه فكانوا يقولون له (راعنا يا رسول الله) أي لا تتحرج منا وارفق. وكان المنافقون من اليهود يشتمون النبي صلى الله عليه وسلم في خلواتهم سرا، فتلقفها اليهود كعادتهم يلوون بها ألسنتهم ليؤذوا بها الرسول، فمنع المسلمون عنها وأُبدلوا كلمةً لا مطعن فيها وهي (انظرنا) بدلا من (راعنا) سدا للذريعة.**

**والسياق يؤيد ذلك بخاتمة الآية الكريمة {وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} والمقصود بها اليهود، والله أعلم. وكذلك يؤيده قوله تعالى: {مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا} (النساء: 46)؛ من باب تفسير القرآن بعضه بعضا، وهو علمٌ متين؛ ومثلها قوله تعالى: {وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ} (المجادلة: 8). لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ السَّامُّ عَلَيْكَ (والسام هو الموت) يُوهِمُونَ بِذَلِكَ أنهم يسلمون عليه، فَأَطْلَعَ اللَّهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك من أمرهم ونهى المسلمون أن يقولوا مثله.**

**أما قوله تعالى: {وَقُولُوا انْظُرْنا} قرأ أبي بن كعب: أَنْظِرْنا بقطع الألف وكسر الظاء المعجمة أي أخِّرْنا، وقرأت العامّة بالألف الموصولة وضم الظاء المعجمة (انْظُرنا) أي انظر إلينا. فحذف حرف التعدية "إلى"، وقيل: معناه انتظرنا وتأنَّ بنا. وقال مجاهد: معناه فهّمنا، وقال يمان: بيِّن لنّا. وقوله تعالى {وَاسْمَعُوا} أى ما تؤمرون به، والمراد به عوه وأطيعوا لأنّ الطّاعة تحت السّمع. ([[13]](#footnote-13))**

**وكما فصَّلنا آنفا أن السمع يطلق على الفعل الذي تقوم به الأذن، ويطلق على الفهم والوعي والطاعة. فمن المعنى الأول قول اليهود: {سمعنا وعصينا}. ومن المعنى الثاني وصف المؤمنين بتدبر كتاب الله تعالى {لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد}.**

## من فقه الآية

**وفي الآية من الأحكام اللطيفة والتوجيهات الربانية الدقيقة في بناء الأمة المؤمنة أمور: -**

**إن في الآية وضع لأسس التمايز بين أهل الباطل من أهل الكتاب وغيرهم، وأهل الحق من الأمة المحمدية، وذلك أن الإسلام ناسخ لما أتى قبله من الشرائع ومهيمن عليه، ودين الله تعالى فيه الغنى عن ترهاتٍ وضعها أولئك الأنجاس من محرفي كتب الله ورسالاته. ثم إن حضارة الإسلام أرقى وأكمل.**

**ولكننا قد ابتلينا باتباع الأمم من قبلنا لما تركنا كتاب الله وسنة نبينا وضاعت قدوة الرسول من قلوبنا وعقولنا واستبدلناها بكل غثٍ وخسيس من الخاسرين.**

**وقد نهينا أن نتبع اليهود والنصارى وأن نتميز بشخصيتنا الإسلامية العظيمة، ولكن قدر الله واقع. وهو ما يأتينا في الآية بعدُ في قوله تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (البقرة: 109). فتأمل كيف كان القرآن يلتحم بعضه ببعض كالكلمة الواحدة.**

**قال ابن كثير: نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقامهم وفعالهم، وروى أبو داود في سننه قوله عليه السلام: «من تشبه بقوم فهو منهم» ففيه دلالة على النهي الشديد والتهديد والوعيد على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم ولباسهم وأعيادهم وعباداتهم وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولا نقر عليها. ([[14]](#footnote-14))**

**وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم». قيل: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمَن؟». متفق عليه. وهذا من القدر الواقع في الجملة على بعض الأشخاص، وفيه نكتة التحذير من فعلهم، لما فيه من تقبيح اتباعهم، إذ متبعهم قد ألغى عقله حتى إنه ليتبعهم في دخول جحر الضب مع ضيقه ونتنه. ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه في كثير من المواقف: "خالفوا المشركين..."، وقال: " خالفوا اليهود". ([[15]](#footnote-15))**

**\*\*\*\***

**وفي الآية كذلك من دقائق فروع الفقه دليلان:**

**أحدهما: دليل على تجنب الألفاظ المحتملة التي فيها التعريض للتنقيص والغض، ويخرج من هذا فهم القذف بالتعريض، وذلك يوجب الحد عندنا خلافا لأبي حنيفة والشافعي وأصحابهما حين قالوا: التعريض محتمل للقذف وغيره، والحد مما يسقط بالشبهة. ([[16]](#footnote-16))**

**وقال الجصاص رحمه الله: يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ لَفْظٍ احْتَمَلَ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ فَغَيْرُ جَائِزٍ إطْلَاقُهُ حَتَّى يُقَيَّدَ بِمَا يُفِيدُ الْخَيْرَ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْهُزْءَ مَحْظُورٌ فِي الدِّينِ، وَكَذَلِكَ اللَّفْظُ الْمُحْتَمِلُ لَهُ وَلِغَيْرِهِ هُوَ مَحْظُورٌ. ([[17]](#footnote-17))**

**قلت: ويؤيده قوله تعالى {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ} (التوبة: 65، 66). فالكلمات الموهمة التي تشتبه بالهزء بالدين يحظر إطلاقها لما في ذلك من خطر عظيم.**

**والدليل الثاني في الآية: مثال لسد الذرائع وهو دليل من أدلة الفقه عند المالكية وغيرهم، قال العلامة القرافي الحنفي: وَرُبَّمَا عُبِّرَ عَنْ الْوَسَائِلِ بِالذَّرَائِعِ وَهُوَ اصْطِلَاحُ أَصْحَابِنَا (أى الأحناف)، وَهَذَا اللَّفْظُ الْمَشْهُورُ فِي مَذْهَبِنَا.**

**وَلِذَلِكَ يَقُولُونَ سَدُّ الذَّرَائِعِ، وَمَعْنَاهُ حَسْمُ مَادَّةِ وَسَائِلِ الْفَسَادِ دَفْعًا لَهَا فَمَتَى كَانَ الْفِعْلُ السَّالِمُ عَنْ الْمَفْسَدَةِ وَسِيلَةً لِلْمَفْسَدَةِ مَنَعَ مَالِكٌ مِنْ ذَلِكَ الْفِعْلِ فِي كَثِيرٍ مِنْ الصُّوَرِ، وَلَيْسَ سَدُّ الذَّرَائِعِ مِنْ خَوَاصِّ مَذْهَبِ مَالِكٍ كَمَا يَتَوَهَّمُهُ كَثِيرٌ مِنْ الْمَالِكِيَّةِ بَلْ الذَّرَائِعُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:**

**قِسْمٌ أَجْمَعَتْ الْأُمَّةُ عَلَى سَدِّهِ وَمَنْعِهِ وَحَسْمِهِ: كَحَفْرِ الْآبَارِ فِي طُرُقِ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُ وَسِيلَةٌ إلَى إهْلَاكِهِمْ، وَسَبُّ الْأَصْنَامِ عِنْدَ مَنْ يُعْلَمُ مِنْ حَالِهِ أَنَّهُ يَسُبُّ اللَّهَ تَعَالَى عِنْدَ سَبِّهَا.**

**وَقِسْمٌ أَجْمَعَتْ الْأُمَّةُ عَلَى عَدَمِ مَنْعِهِ، وَأَنَّهُ ذَرِيعَةٌ لَا تُسَدُّ وَوَسِيلَةٌ لَا تُحْسَمُ: كَالْمَنْعِ مِنْ زِرَاعَةِ الْعِنَبِ خَشْيَةَ الْخَمْرِ فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ.**

**وَقِسْمٌ اخْتَلَفَ فِيهِ الْعُلَمَاءُ هَلْ يُسَدُّ أَمْ لَا؟ كَبُيُوعِ الْآجَالِ عِنْدَنَا كَمَنْ بَاعَ سِلْعَةً بِعَشَرَةِ دَرَاهِمَ إلَى شَهْرٍ ثُمَّ اشْتَرَاهَا بِخَمْسَةٍ قَبْلَ الشَّهْرِ، فَمَالِكٌ يَقُولُ: إنَّهُ أَخْرَجَ مِنْ يَدِهِ خَمْسَةً الْآنَ وَأَخَذَ عَشْرَةً آخِرَ الشَّهْرِ فَهَذِهِ وَسِيلَةٌ لِسَلَفِ خَمْسَةٍ بِعَشْرَةٍ إلَى أَجَلٍ تَوَسُّلًا بِإِظْهَارِ صُورَةِ الْبَيْعِ لِذَلِكَ. وَالشَّافِعِيُّ يَقُولُ يُنْظَرُ إلَى صُورَةِ الْبَيْعِ وَيُحْمَلُ الْأَمْرُ عَلَى ظَاهِرِهِ، فَيَجُوزُ ذَلِكَ، وَهَذِهِ الْبُيُوعُ يُقَالُ إنَّهَا تَصِلُ إلَى أَلْفِ مَسْأَلَةٍ اخْتَصَّ بِهَا مَالِكٌ وَخَالَفَهُ فِيهَا الشَّافِعِيُّ. انتهى ([[18]](#footnote-18))**

**وفي الحقيقة إن الدين في أرقى معانيه مبنى على معنى المراقبة من العبد لله تعالى فيما يأتي وما يذر لأن اليقين بالحساب في الآخرة يوجب على المؤمن التوقف قبل القول أو الفعل وحسابه في ميزان الحسنات او السيئات {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} (ق: 18). وعن عطية بن عروة السعدي الصحابي رضي الله عنهـ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به بأس ". رواه الترمذي وقال: حديث حسن.**

**وأحسن منه ما روى مسلم عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه الحديث، فمنع من الإقدام على الشبهات مخافة الوقوع في المحرمات، وذلك سدا للذريعة.**

**وقال صلى الله عليه وسلم: (إن من الكبائر شتم الرجل والديه) قالوا: يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: (نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه). فجعل التعرض لسب الآباء كسب الآباء.**

**\*\*\*\***

**ثم في الآية كذلك الأدب الرباني الذي ربى الله تعالى به الأمة المؤمنة على توقير النبي صلى الله عليه وسلم، وتبجيله وحفظ مكانته التي حفظها الله تعالى وهو سيد الخلق. ومن حفظه وتوقيره بعد موته لى الله عليه وسلم تعظيم سنته. قال العلامة ابن العربي المالكي رحمه الله في (أحكام القرآن) عند تفسيره قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (الحجرات: 1). أَصْلٌ فِي تَرْكِ التَّعَرُّضِ لِأَقْوَالِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وَإِيجَابِ اتِّبَاعِهِ، وَالِاقْتِدَاءِ بِهِ.**

**وقال رحمه الله في الآية التي بعدها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} (الحجرات: 2) حُرْمَةُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَيِّتًا كَحُرْمَتِهِ حَيًّا، وَكَلَامُهُ الْمَأْثُورُ بَعْدَ مَوْتِهِ فِي الرِّفْعَةِ مِثْلُ كَلَامِهِ الْمَسْمُوعِ مِنْ لَفْظِهِ؛ فَإِذَا قُرِئَ كَلَامُهُ وَجَبَ عَلَى كُلِّ حَاضِرٍ أَلَّا يَرْفَعَ صَوْتَهُ عَلَيْهِ، وَلَا يُعْرِضَ عَنْهُ، كَمَا كَانَ يَلْزَمُهُ ذَلِكَ فِي مَجْلِسِهِ عِنْدَ تَلَفُّظِهِ بِهِ، وَقَدْ نَبَّهَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى دَوَامِ الْحُرْمَةِ الْمَذْكُورَةِ عَلَى مُرُورِ الْأَزْمِنَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا} (الأعراف: 204). وَكَلَامُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -مِنْ الْوَحْيِ وَلَهُ مِنْ الْحُرْمَةِ مِثْلُ مَا لِلْقُرْآنِ إلَّا مَعَانِي مُسْتَثْنَاةٌ، بَيَانُهَا فِي كُتُبِ الْفِقْهِ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ. ([[19]](#footnote-19))**

# حسدٌ وكيدٌ وكراهية يؤكدها كتاب الله تعالى.

**في قوله تعالى {مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} (البقرة 105).**

**يبين بذلك تعالى شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين، الذين حذر الله تعالى من مشابهتهم للمؤمنين، ليقطع المودة بين المؤمنين وبينهم، ونبَّه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل الذي شرعه لنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، حيث يقول تعالى: {وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}.**

**ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَالُوا لِحُلَفَائِهِمْ مِنَ الْيَهُودِ: آمِنُوا بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: وَدِدْنَا لَوْ كَانَ خَيْرًا مِمَّا نَحْنُ عَلَيْهِ فَنَتَّبِعَهُ، فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: {مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْمُرَادُ بِأَهْلِ الْكِتَابِ: الَّذِينَ بِحَضْرَةِ رسول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَالظَّاهِرُ الْعُمُومُ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ: وهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، وَفِي الْمُشْرِكِينَ: هُمْ مُشْرِكُو الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ. ([[20]](#footnote-20))**

**وجاء النفى هنا ب{ما} التي تفيد نفى الحال، أي نفى حال كونهم متلبسين بالود أصلا، وذلك أبلغ في ثبات معناه هنا من النفى بحرف (لا) الذي يقيد الفعل المضارع في زمنه، فربما لا يودون الآن ولكنهم سيودُّون. والود: محبة الشىء مع تمنيه، واستعمل في كل واحدٍ منهما، فقيل: وددت فلانا إذا أحببته، وددت الشيء إذا تمنَّيْته.**

**والمعنى: ما يحب وما يريد أو يتمنى الكافرين - سواء كانوا أهل الكتاب أو المشركين - أىَّ خيرٍ للمسلمين يأتيهم من ربهم، وذلك أنهم يرون أنفسهم أحق بالوحى وبكل خيرٍ فيحسدون المسلمين، وكانوا يظهرون مودة المسلمين نفاقا، وهم هكذا في كل عصرٍ وكل مكانٍ يتغلب فيه الإسلام، فأكذبهم الله تعالى في ذلك، ونهى المؤمنين –في ضمن كلامه - عن موادتهم، كما قال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ}.**

**وتأمل التعبير ب {يُنَزَّلَ} بتضعيف الزاى، ولم يقل(ينزل) بالتخفيف، إذ أنه أبلغ في نزولٍ متواصلٍ ومستمر لرحمات الله والخير منه للمؤمنين على مر الزمان.**

**{وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}. {يختص} أَيْ يُفْرِدُ بِهَا، وَضِدُّ الِاخْتِصَاصِ: الِاشْتِرَاكُ والعموم. فهو سبحانه يختار للرحمة والخير والعلم والقرب مَن يشاء، وهو الملك لا معقب لحكمه ولا يُسأَل عن حكمته، وهو الحكيم الخبير. والرحمة في هذه الآية عامة لجميع أنواعها التي قد منحها الله عباده قديما وحديثا، وقال قوم: الرحمة هي القرآن، وقال قوم: نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وهذه أجزاء الرحمة العامة التي في لفظ الآية.**

**وختام الآية فيه تنبيهٌ لطيفٌ على رحمة الله سبحانه للعائدين التائبين من أي جانبٍ عادوا {وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} فلما عظُم فضله، حقُر كلُّ ذنبٍ فعله التائب قبل توبته. وجاء ذكر الفضل هنا؛ الفضل هو ما يمَنُّ الله تعالى به على عباده بغير استحقاق، والعدل ما كان يستحقه العبيد، ولكن الكريم سبحانه نبَّه على فضله مع إعظام الجرم من المخلوقين؛ فتأمله. وتأمل في معناه قوله تعالى بعد ذكر جرائم الكفار في تعذيب وقتل المؤمنين شر قِتلة في سورة البروج: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا}، فقيد نزول عذابه سبحانه بهم بعدم توبتهم مع عظيم جُرم ما اقترفوه. قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ-رحمه الله: (انْظُرُوا إِلَى هَذَا الْكَرَمِ وَالْجُودِ من الله سبحانه، قَتَلُوا أَوْلِيَاءَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْمَغْفِرَةِ).**

**ومن اللطائف البديعة في الآية أن حرف المعنى (مِنْ) جاء فيها ثلاث مراتٍ بثلاث معانٍ مختلفات يتذوق ذلك أهل المعاني وتدبر كلام الله تعالى:**

**الأولى: {الذين كفروا من أهل الكتاب} وتساءل العلامة الراغب فقال – ما ملخصه: فإن قيل: فلِم قال: " ولا المشركين " وذلك يقتضي أن المشركين ضربان، كافر، وغير كافر كما أن أهل الكتاب ضربان؟ قيل: إن " مِن " في قوله {من أهل الكتاب} للتبيين (أو لبيان الجنس)، كما في قوله تعالى: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ} أي من أي جنس الأوثان كان، فإذا كان كذلك، فالمقصود جنس الكفر سواء كانوا أهل الكتاب أو المشركين.**

**الثانية في قوله تعالى: {من خير}، وما زال أهل التحقيق والفهم العميق لبلاغة القرآن وبلاغة اللغة ينكرون الزيادة في القرآن([[21]](#footnote-21))، فلا يوجد حرفٌ إلا وله في القرآن معنىً عظيمٌ ربما لا تغني فيه كلمات كثيرة. وفي هذه الآية حرف الجر(من) في قوله تعالى: {من خيرٍ} يفيد معنى من التقليل والتبعيض والتوكيد لمعنى بغضهم المؤمنين في النفس ما لا يفيده النفى العادي مهما بلغ، فأهل الضلال لا يريدون (أدنى أو أقل) معنى للخير يكون للمؤمنين. قال ابن عطية: لأنهم يريدون ألَّا ينزل الله على المؤمنين من الخير قليل ولا كثير، ولو زال معنى التبعيض لساغ لقائل أن يقول: نريد أن لا ينزل خير كامل ولا نكره أن ينزل بعضه. فتأمل ([[22]](#footnote-22))**

**الثالثة: في قوله تعالى {من ربكم} ومعناه ابتداء الغاية أي مبدأه والمتفضل به هو ربكم سبحانه. وفيه نكتة بديعة من إضافة عز الربوبية إلى أمة محمد بلفظ المخاطبين {ربكم} وفيه تسلية من الله تعالى للمؤمنين بأنه معهم وناصرهم على الحاقدين الباغضين ويزيدهم من فضله سبحانه.**

**وصيغةُ الجمعِ في قوله تعالى: {عليكم} للإيذان بأن مدارَ كراهتهم ليس معنى خاصا بالنبى صلى الله عليه وسلم وإنما هو حسد عام للأمة المحمدية إلى يوم القيامة، وليس مختصا بزمن النبى وصحابته، فتأمل.**

**ومن دلالات الخطاب (العميقة) ما يكشفه الله سبحانه للمسلمين عما تكنه لهم صدور اليهود والمشركين حولهم من الشر والعداء، ليحذروا أعداءهم، ويستمسكوا بما يحسدهم هؤلاء الأعداء عليه من الإيمان والقرآن والمنهج الرباني العظيم، ويشكروا فضل الله عليهم ويحفظوه.**

**وفي هذا التلميح ما يستجيش في قلوب الذين آمنوا الشعور بضخامة العطاء وجزالة الفضل، وفي التقرير الذي سبقه عما يضمره الذين كفروا للذين آمنوا ما يستجيش الشعور بالحذر والحرص الشديد. وهذا الشعور وذاك ضروريان للوقوف في وجه حملة البلبلة والتشكيك التي قادها-ويقودها-اليهود، لتوهين العقيدة في نفوس المؤمنين، وهي الخير الضخم الذي ينفسونه على المسلمين!**

**ويجمع القرآن بين أهل الكتاب والمشركين في الكفر، وأعظم ما يكرهونه للمؤمنين هو هذا الدين، وهذا المنهج الرباني القويم. ولقد سبق الحديث عن حقدهم وغيظهم من أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، حتى لقد بلغ بهم الغيظ أن يعلنوا عداءهم لجبريل-عليه السلام-إذ كان ينزل بالوحي على الرسول-صلى الله عليه وسلم.**

# النسخ في القرآن الكريم (بحث وتأمل).

**قوله تعالى: {ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (البقرة: 106).**

**بدءاً نتساءل كعادتنا عن وجه ارتباط هذه الآية ومناسبتها لما قبلها؟**

**ويأتي الجواب أنها امتداد للاستطراد الذي ربط بين ماضي اليهود ووقاحتهم تجاه نعم ربهم، ورسالة أنبيائهم، وبين حاضرهم وتعاملهم مع دعوة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم. وفي هذا من تسلية الرسول والمؤمنين وتثبيت قلوبهم على الحق الذي ظل طريقه دائما مليئا بالذئاب الذين يريدون اختلاس المؤمنين وزللهم.**

**إنها إذن بيان لاستمرار الحملة الشعواء التي شنها يهود المدينة ومنافقوها والمشركون حسدا وغيظا على رسول الله وأتباعه من المؤمنين.**

**ذكر كثيرٌ من المفسرون أنَّ المشركين قالوا: أتَرَون إِلَى مُحَمَّدٍ يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ، بِأَمْرٍ ثُمَّ يَنْهَاهُمْ عَنْهُ وَيَأْمُرُهُمْ بِخِلَافِهِ وَيَقُولُ الْيَوْمَ قَوْلًا، ويرجع عَنْهُ غَدًا مَا هَذَا الْقُرْآنُ إِلَّا كَلَامَ مُحَمَّدٍ يَقُولُهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ وَهُوَ كَلَامٌ يُنَاقِضُ بَعْضَهُ بَعْضًا فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ}(النحل: 101). الْآيَةَ: وَأَنْزَلَ أَيْضًا: {مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا} الْآيَةَ. ([[23]](#footnote-23)) وخصوصا بعد حادثة تغيير قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى الكعبة شرفها الله وما أثارته من لغط عند أهل الشرك والنفاق يأتي تفصيله في الآيات بعد.**

**ولعل هذا الكلام يكون ألصق أصلا باليهود في المدينة أو بتلقينهم، إذ أنهم في غالبهم ينكرون النسخ في الشرائع، ويخلطونه ويلبِّسون عليه بالبداء.**

**والنسخ جائز على الله تعالى عقلا لأنه ليس يلزم عنه محال ولا تغيير صفة من صفاته تعالى، وليست الأوامر متعلقة بالإرادة فيلزم من النسخ أن الإرادة تغيرت، ولا النسخ لطروّ علمٍ في حق الله جل سبحانه، بل الله تعالى يعلم إلى أي وقت ينتهي أمره بالحكم الأول ويعلم نسخه بالثاني. والبَداء – الذي يلبس به اليهود-لا يجوز على الله تعالى لأنه لا يكون إلا لطروء علمٍ أو لتغير إرادة، وذلك محال في جهة الله تعالى، وجعلت اليهود النسخ والبَداء واحدا، ولذلك لم يجوِّزوه فضلّوا.**

**وربما تتصل هذه الآية بما قبلها بأن القرآن الذي ينفسه اليهود والنصارى على المسلمين وهو رحمة الله وفضله على المؤمنين جاء ناسخا ومهيمنا على الكتب قبله والشرائع قبله، فلا غرو ينسخ الله وينسأ، ويمحو ويثبت وهو الملك له معقب لحكمه.**

**وفي مثل معنى هذه الآية قوله تعالى: {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} (النحل: 101، 102).**

**\*\*\*\***

**لقد وجَّه بعض المفسرين الحديث عن النسخ في هذه الآية بأنه نسخ الشرائع، ونسخ آية من التوراة بآية من القرآن، ونسخ معجزة رسول بمعجزة رسول آخر ([[24]](#footnote-24))، متعللين بالاشتراك اللفظي في كلمة {آية} وهو توجيهه جائز، وإن كنت أرى فيه بعض تعسف. إذ أنه لا قرينة واضحة تصرف معنى الآية عن كونها الآية في كتاب الله المعهودة.**

**ولهؤلاء في ذلك بعض العذر إذ قد انفتح باب الحديث عن النسخ في القرآن حتى صار فيه من التطرف ما عاد بأسئلةٍ كثيرةٍ مشكلةٍ؛ خصوصا مع ورود رواياتِ آحادٍ لا يثبت أكثرها في نسخ سورٍ بأكملها أو أكثرها لا يوجد شيءٌ منها في المصحف الشريف، ورواياتٌ مثلُها عن آياتٍ تخالف في معناها وتركيبها ونسقها نسق القرآن ولغته. هذا وغيره من الإفراط في جانب النسخ حتى جعل بعضهم بعض الآية منسوخا وبعضها ناسخا، وحتى بالغ بعضهم فجاء بالنسخ في نواحي العقائد والأخبار وهو لا يجوز.**

**لقد جعل هذا بعض العلماء والباحثين – الذين لا نتهمهم في نظرهم؛ فحاشا أن نتهم دينهم-يعيد النظر في مسألة وقوع النسخ في القرآن الكريم، وإن كانت مثل هذه الآية التي بين أيدينا لا تمنع وقوعه، ولكنها في الواقع اقترنت بمعنى الشرط الذي يفيد (مجرد جواز وقوعه ولا يعني وقوعه بالفعل).**

**(وعند البحث يتبين جواز وقوع النسخ جملةً، أما من حيث التفصيل فله بحث طويل الذيول).**

**ولذلك فقد وقفت – بحول الله – باحثا ومحققا هذا الموضوع بشىء من التأمل بين طرفيْ نقيضين ما بين مثبتٍ متجاوزٍ، ونافٍ متعسف في كتابي (المحكم والمتشابه في كتاب الله سبحانه-دراسة تفصيلية) يسَّر الله خروجه بفضله.**

**ونقف هنا على بعض ما فيه من التفصيل.**

**يقول الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله – وقد كان فقيها أصوليا ([[25]](#footnote-25)):**

**إن النسخ في ذاته لَا في القرآن بالذات لَا ينكره أحد (أي ذو عقل صحيح)؛ لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يربي المؤمنين، ويدع الدين الحق في قلوبهم، وقد مكث بينهم ثلاثة وعشرين عاما يربيهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، وما كانوا ليقبلوا ذلك التهذيب الكامل الذي ينقلهم من الجاهلية إلى العلم والتفكير، والعمل التقي الطاهر دفعة واحدة؛ بل لابد أن يأخذهم في رفق وأناة يقر أمورًا على رجاء التغيير، حتى تشرب قلوبهم حب الإسلام، وحب آدابه، ولقد روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: " ما من نبوة إلا تناسخت " أي حولت النفوس بالتدريج، وترك أمور في مرتبة العفو حتى تتشرب النفوس الحقائق الإسلامية، وليس معنى ذلك أن الله تعالى كان يجهل الحقائق ثم علم وهو ما يسمى بالبداء، والله تعالى منزه عنه تبارك وتعالى، وإنما معناه أن الله عالم بكل شيء، ولكن نبيه كان كالمربي الذي يتدرج بتعليمه حتى يشب ويعلو فكره، فتتكامل الشريعة نزولا إذ تكامل عقله إدراكا وبيانا.**

**لذلك كان النسخ وكانت الأحكام الئى تجيء في السنة موضع التناسخ الثابت بالحديث.**

**ولكن هل يجيء النسخ في القرآن، قال جمهور العلماء ذلك مستدلين بقوله تعالى: (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ منْهَا أَوْ مِثْلِهَا). ولكن نقول: إن الآية الكريمة كما في بيان الشرط وجوابه، وتدل على الإمكان لَا على الوقوع فعلًا، وإن هذا على أساس تفسير الآية بمعنى الآية القرآنية المشتملة على حكم تكليفي، ولكن كلمة الآية تدل معانيها على الآية الكونية، والمعجزات الكونية والحسية التي يجيء بها الرسل كإحياء عيسى عليه السلام الموتى بإذن الله تعالى، وإحياء الموتى من قبورهم، وتصويره كهيئة الطير فينفخ فيه فتكون طيرا بإذن الله تعالى، وكعصا موسى عليه السلام التي فلقت البحر وفجرت الماء من الحجر، وكإرسال الجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات.**

**وإن المشركين طلبوا من النبي - صلى الله عليه وسلم - آيات أي معجزات دالة على رسالته كمعجزات عيسى وموسى ويظهر أن اليهود طلبوا مثلها، فرد الله تعالى عليهم بقوله: (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ منْهَا أَوْ مِثْلِهَا) أي ما ننزل آية لنبي أو رسول أو نؤجلها إلا أتينا بخير منها أو مثلها، وفي ذلك إشارة إلى أن معجزة القرآن خير من المعجزات التي سبقت كمعجزة موسى وعيسى، لأنَّ معجزاتهم حوادث تنقضي، وتنتهي بانتهاء وقتها ولا تؤثر إلا في نفوس من عاينوا، وشاهدوا، أما معجزة القرآن، فإنها باقية خالدة تتحدى الأجيال كلها إلى يوم القيامة.**

**وإننا نميل إلى تفسير الآية بالمعجزة، وذلك للأمور الآتية:**

**أولا -تعقيب النسخ والتغيير بقوله تعالى: (ألَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) فإن ذلك يتناسب بوضوح مع الآية بمعنى المعجزة القاهرة التي تدل (على قدرة الله وصدق رسوله)، والمعجزة الكونية، ولا تظهر مناسبة مع آية التكليف.**

**وثانيا -قوله تعالى: (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... (107)**

**فذكر هذا النص السامي يدل قياسًا أن النسخ أو الترك يكون لآية كونية بخير منها، تكون أبقى وأعظم أثرا.**

**ثالثا -أنه كان لوم على طلب آية أخرى، فقد قال تعالى: (أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ) هذه الآيات كلها جاءت تالية لآية النسخ وهي في تواليها تناسب أن تكون الآية المنسوخة معجزة من معجزات الرسالة الإلهية، ومعجزات النبيين.**

**ورابعا -أن النسخ يقتضي ألا يمكن الجمع بين الناسخ والمنسوخ، وليس في القرآن آيات تتعارض، ولا يمكن التوفيق بينها، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده.**

**وإن الله تعالى إذا أنزل معجزة لنبي، وبدل بها معجزة فذلك من كمال قدرته وليس لمؤمن أن ينكر معجزة، ولا يطلب معجزة معينة، وألا يقال: إن الرسول الذي جاء بالمعجزة القاطعة مغتر، فقد قال تعالى: (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّل قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)، فإن الله العليم الحكيم هو الذي يختار من الآيات الدالة على رسالة أنبيائه ما يراه أقوى دلالة، وأكثر بقاء، فهو الذي يعلم الآيات كلها، وهو الذي يدبر كل شيء بحكمته، وإرادته، وإن الله أعلم حيث يجعل رسالته، وهو أعلم بمكان آيته. انتهى كلامه.**

**أقول: هنا نرى توجيها معتبرا لتأويل هذه الآية – وإن ظل فيه بعض التعسف -ولكننا لو قرأنا ما نقله السيوطي – رحمه الله – في إتقانه وتفسيره من رواياتٍ تدفع – دون قصدٍ- القلوب المرتجفة والنفوس الفاسدة والعقول القاصرة لكثيرٍ من الطعن على كتاب الله تعالى وتواتره، كما ذكرنا آنفاً في أصل الإشكالية هنا؛ لو قرأنا ذلك فنحن أمام طريقين هيِّنيْن؛ إما أن نمر على الآية مرور الكثيرين ونضعها في خانة ما لا نعلمه وتظل حكة الأسئلة حول الموضوع برمته في نفوسنا مستترة، أو نأخذ طريق من ينكر ويتأول متخذا السياق سبيلا أو حتى لاويا عنقه في ذلك كما فعل الشيخ أبو زهرة – رحمه الله- وغيره.**

**وأمامنا طريق ثالث أكثر عمقا وصعوبة، ولكنه يلائم حق القرآن علينا في التأمل والتدبر العميق دون تكلفٍ أو تعسفٍ أو تطرفٍ في التأويل والتوجيه.**

**مستعينين بدلالة النص الحكيم ذاته ومشابهه في القرآن وتوجيه السلف ودقائق السنة. والله سبحانه وحده المعين.**

**نقول – بحول الله تعالى: نفرق هنا بين حديثان:**

* **حديثٌ عن النسخ في أحكام الله تعالى – بجملته – سواء نسخ أحكام الإنجيل للتوراة أو نسخ أحكام القرآن لهما، وهو انتهاء العمل بحكم شرعه الله تعالى لانتهاء الفائدة منه إلى وقت معين يبدله الله تعالى بحكمٍ منه سواه.**
* **والحديث الآخر هو عن نسخ آيةٍ من القرآن بأخرى من القرآن أو من السنة.**

**أما حديثنا الأول فإنه بيان مدة المصلحة، والمصالح تختلف بالأوقات والأعيان والأحوال، فكذلك الأحكام، ألا ترى أن الله يصرِّف ملكه بين السراء والضراء لمصالح العباد يعلمها؛ قال تعالى: {أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} (الأعراف:54)، فتغيير (نسخ) خلقٍ بخلقٍ منه سبحانه هو كنسخ أمرٍ بأمرٍ لا فرق إذ الكل ملكه وطوع قدرته سبحانه.**

**والنسخ واقعٌ في شرائع اليهود أنفسهم، فنسخ إباحة تزويج آدم أولاد صلبه ذوي الأرحام بعضهم من بعض، وتحريمه ثابت، كذلك جمع يعقوب عليه السّلام بين أختين، لايان وراحيل ابنتا خاله، ثمّ حرم ذلك التوراة، وكذلك ما حرم يعقوب-عليه السلام-على نفسه فحرمه الله على بني إسرائيل بعد إباحته، وغير ذلك كثير يدل على وقع تبديل حكمٍ بحكم سماوي آخر تربيةً منه سبحانه وعلما منه بمصلحة الوقت لعباده.**

**فالنسخ على هذا المعنى جائزٌ عقلا ونقلاً بالجملة.**

**(قال بعض الفضلاء: نزلت هذه الآية لمّا قال المشركون أو اليهود: إنّ محمدا يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه. وفي الآية ردّ عليهم بأنّ المقصود من نسخ الحكم السابق: تهيّؤ النفوس لأرقى منه. وهو معنى قوله تعالى: {نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها} لأنّ الخالق تعالى ربّى الأمّة العربية في ثلاث وعشرين سنة تربية تدريجية لا تتم لغيرها-بواسطة الفواعل الاجتماعية-إلّا في قرون عديدة.**

**لذلك كانت عليها الأحكام على حسب قابليّتها، ومتى ارتقت قابليتها بدّل الله لها ذلك الحكم بغيره. وهذه سنّة الخالق في الأفراد والأمم على حدّ سواء. فإنّك لو نظرت في الكائنات الحية-من أوّل الخلية النباتية إلى أرقى شكل من أشكال الأشجار، ومن أوّل رتبة من رتب الحيوانات إلى الإنسان-لرأيت أن النسخ ناموس طبيعيّ محسوس في الأمور المادّية. والأدبية معا ...!**

**فإنّ انتقال الخلية الإنسانية إلى جنين، ثم إلى طفل، فيافع، فشاب، فكهل، فشيخ، وما يتبع كل دور من هذه الأدوار-من الأحوال الناسخة للأحوال التي قبلها-يريك بأجلى دليل: أنّ التبدّل في الكائنات ناموس طبيعيّ محقق. وإذا كان هذا النسخ ليس بمستنكر في الكائنات، فكيف يستنكر نسخ حكم وإبداله بحكم آخر في الأمة، وهي في حالة نمو وتدرج من أدنى إلى أرقى؟ هل يرى إنسان له مسكة من عقل أن من الحكمة تكليف العرب-وهم في مبدإ أمرهم-بما يلزم أن يتصفوا به وهم في نهاية الرقيّ الإنسانيّ، وغاية الكمال البشريّ ... ؟! وإذا كان هذا يصح، وجب أن الشرائع تكلف الأطفال بما تكلف به الرجال، وهذا لم يقل به عاقل في الوجود ...! وإذا كان هذا لا يقول به عاقل في الوجود، فكيف يجوز على الله-وهو أحكم الحاكمين-بأن يكلف الأمة-وهي في دور طفوليتها-بما لا تتحمله إلّا في دور شبوبيتها وكهولتها ...؟**

**وأي الأمرين أفضل: أشرعنا الذي سنّ الله لنا حدوده بنفسه، ونسخ منه ما أراد بعلمه، وأتمه-بحيث لا يستطيع الإنس والجن أن ينقضوا حرفا منه-لانطباقه على كل زمان ومكان، وعدم مجافاته لأي حالة من حالات الإنسان. ؟! أم شرائع دينية أخرى، حرّفها كهانها، ونسخ الوجود أحكامها-بحيث يستحيل العمل بها-لمنافاتها لمقتضيات الحياة البشرية من كل وجه ؟!) ([[26]](#footnote-26))**

**أما حديثنا عن وقوع النسخ في القرآن الكريم، وهو تبديل حكم آية بأخرى فعلى ما قررنا من جملة جواز النسخ واقعٌ لا غبار عليه، وهو مذهب جمهور علماء المسلمين، والأئمة الأربعة الكبار، وجُلُّ الشيعة غير بعض الإمامية والمعتزلة، ومنهم أبو مسلم محمد بن بحر الأصفهاني (أحد أئمة المعتزلة المتوفى عام 322 هـ.) الذي يرى أنه لا نسخ في القرآن قط؛ لأنه شريعة الله الباقية إلى يوم القيامة؛ ولأنه لم يصرح النبي صلى الله عليه وسلم بنسخ آية من القرآن، ولأن النسخ يقتضي أن تكون آيتان في القرآن موضعهما واحد، وإحداهما مثبتة والأخرى نافية، ولا يمكن الجمع بين النفي والإثبات.**

**ثم تأوَّل أبو مسلمٍ كثيراً من الآيات التي ادعي فيها النسخ بنوع تخصيصٍ وبيانِ إحدى الآيتين الأخرى لا النسخ المعروف. وقد تصدى له د.مصطفى زيد في كتابه النسخ في القرآن الكريم وبيَّن خطأه، وأثبت أن على أبى مسلم أن ينقض دعوى النسخ في كل واقعةٍ ثبت النسخ فيها. كما تصدى له (علي حسن العريض) في كتابه (فتح المنان) ونقل ردود بعض العلماء عليه.**

**ومن الكتاب والمفكرين المعاصرين ممن أنكر النسخ كذلك: (د.عبد المتعال محمد الجبري) في كتابه (النسخ في الشريعة الإسلامية كما أفهمه)، وكتابه الثاني (لا نسخ في القرآن لماذا؟)، وكذلك الشيخ (محمد الغزالي السقا) أنكر وقوع النسخ في كتابه (نظرات في القرآن).**

**و(د.عبد الكريم الخطيب) في تفسيره، والشيخ محمد أبو زهرة في تفسيره، وغيرهم...**

**والحق أن نفى النسخ في كتاب الله جملةً واحدةً هو خلقٌ علمىٌ متهورٌ لا يؤيده البحث المنصف، كما أن الانتقاص من قدر الذين فكروا وتدبروا -أيَّا بلغ رأيهم -وتضليلهم هو تطرفٌ موازٍ كذلك، إذ نحسب أنَّ نيتهم كانت في تنزيه القرآن ورفع قدره عن الطعن الذي توهموه، ولهم في ذلك بعض الحق، والله وليهم وولينا وهو نعم الوكيل.**

**هذا من حيث الجملة، وأما من حيث التفصيل فقد استدل مثبتوا وقوع النسخ في كتاب الله تعالى بثلاث آيات:**

**أولها: آية البقرة (106) {ما ننسخ من آيةٍ أو ننسها تأت بخير منها أو مثلها}، وهى أكبر أدلتهم، وفيها تفصيلنا وبحثنا.**

**وثانيها قوله تعالى: {وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ} (النحل:101)، والثالثة قوله: {يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وعنده أم الكتاب} (الرعد:39) وهذه لا دليل فيها مباشر على النسخ.**

**ثم كان استدلال المثبتون بإجماع السلف على وجود الناسخ والمنسوخ في كتاب الله، وفي إجماع تفصيلهم لضروب النسخ وحجيته وتأثير ذلك على تواتر كتاب الله نظرٌ كثير، ثم في اصطلاحهم ذاته عن معنى النسخ عندهم نظر كذلك.**

**وكي نصل معا بمنهجيةٍ منضبطةٍ لا أفراط ولا تفريط فيها نقف على أمور:**

1. **معنى النسخ في لغة العرب وتوقيع ذلك على القرآن، ثم توقيعه على نص الآية في سياقها.**
2. **اتساق معنى النسخ في الآية ودلالته مع نسق (الإنساء) أو (النسئ) في لفظة {أو ننسها} {أو ننسأها} في الآية.**
3. **اتساق معنى النسخ والإنساء مع معنى التبديل والإتيان بآيةٍ مكان آيةٍ كما في آية سورة النحل، وكما في نسق الآية هنا {نأت بخير منها أو مثلها}.**
4. **النظر فيما ذكر العلماء من ضروب النسخ وشرطه واتساق ذلك مع نسق الآية ودلالاتها التي نبحثها.**
5. **خلاصة هامة في الفصل بين جواز النسخ، ووقوعه. والفرق بين النسخ في عرف المتقدمين وعرفه بين محدثي الأصوليين. والفرق بين إثباته جملةً وإثباته على التفصيل. ومنه البحث في إثبات أي صنفٍ من صنوفه.**

**وفي النهاية فإن البحث النزيه وعدم المجازفة ونبذ التطرف في الأحكام هو غاية ما نريد من أجل تعظيم حق كلام الله تعالى في تدبره وفهمه والعمل به، مع اعتقاد تنزيهه وعظمته، وأن علم اليقين عند الله تعالى.**

## تفصيل البحث في الآية

**{ما} هنا (الذي) تحمل معنى الشرط بدلالة جزم الفعل بعدها وجوابه في الشرط، نظيره: {وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ} (التوبة/110). تعطي معنى جواز وقوع النسخ في شرع الله تعالى خلافا لليهود الحاقدين، وقال بعض العلماء: أنها تدل على جواز وقع النسخ ولا تعني وقوعه، وردَّه عليهم مثبتوا النسخ أن الآية نزلت بعد وقوع النسخ بالفعل، كما في حادثة تغيير القبلة وغيرها.**

**قال الفخر الرازي: وأما تمسكنا فِي وقوع النسخ بقوله تعالى: {مَا نَنسَخْ مِنْ ءايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} ، فالاستدلال به ضعيف ، لأن " ما" ههنا تفيد الشرط والجزاء ، وكما أن قولك: من جاءك فأكرمه لا يدل على حصول المجيء ، بل على أنه متى جاء وجب الإكرام ، فكذا هذه الآية لا تدل على حصول النسخ ، بل على أنه متى حصل النسخ وجب أن يأتي بما هو خير منه ، فالأقوى أن نعول فِي الإثبات على قوله تعالى: {وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءايَةً مَّكَانَ ءايَةٍ} ( النحل: 101 ) وقوله: {يَمْحُو الله مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكتاب} ( الرعد: 39 ). والله تعالى أعلم. انتهى. ([[27]](#footnote-27))**

**ومعنى الآية: إن ننسخ حكم آية، أي نغيره ونبدله من التحريم إلى الإباحة أو العكس أو غيره، نأت بما هو خير لكم في دينكم ودنياكم من التخفيف أو زيادة الحسنات والدرجات عند الله.**

**وقال صاحب تفسير المنار حـ 1 صـ 342 ما نصه:**

**إن السيوطي روى فِي أسباب النزول أن الآية كانت تنزل على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلا فينساها نهارا ، فحزن لذلك فنزلت الآية. قال الأستاذ الإمام: ولا شك عندي فِي أن هذه الرواية مكذوبة وأن مثل هذا النسيان محال على الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ؛ لأنهم معصومون فِي التبليغ ، والآيات الكريمة ناطقة بذلك كقوله تعالى ( إن علينا جمعه وقرآنه ) وقوله ( إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ) وقد قال المحدثون والأصوليون: إن من علامة وضع الحديث مخالفته للدليل القاطع عقليا كان أو نقليا كأصول الاعتقاد وهذه المسألة منها فإن هذا النسيان ينافى العصمة المجمع عليها. أ هـ**

**أقول: والمعول عليه ليس ذوق العلماء وإنما هى علومٌ رصينةٌ تقررت عند العلماء في نقد الحديث متنا وسندا، وروايةً ودرايةً من علوم الحديث. وإن وافقنا الشيخ هنا في ضعف الروايات التي وردت بما أنكر.**

**(1) معنى النسخ في كلام العرب وفي لغة القرآن.**

**فالنسخ في كلام العرب وفي لغة القرآن على وجهين:**

**أحدهما: النقل، كنقل كتاب من آخر، ويثبت الأصل والمنسوخ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْقُرْآنُ كُلُّهُ مَنْسُوخًا، أَعْنِي: مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، فلا مدخل لهذا المعنى في هذه الآية، وَمِنْهُ قوله تعالى: {إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} (الجاثية 29) أَيْ: نَأْمُرُ بِنَسْخِهِ.**

**وأما المعنى الثاني للنسخ: الذي هو الإزالة فهو الذي في هذه الآية، وهو منقسم في اللغة على ضربين:**

**أحدهما: يثبت الناسخ بعد المنسوخ أى يصبح محله كقولهم "نسخت الشمس الظل": إِذَا أَذْهَبَتْهُ وَحَلَّتْ مَحَلَّهُ.**

**والآخر: إِزَالَةُ الشَّيْءِ دُونَ أَنْ يَقُومَ مَقَامَهُ آخَرُ، كقولهم «نسخت الريح الأثر» وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى قوله تعالى: {فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطانُ} أَيْ: يُزِيلُهُ. وورد النسخ في الشرع حسب هذين الضربين. ([[28]](#footnote-28))**

**وقبل أن نتعرض لمعنى الآية يقف بنا المقام عند ما في الآية من القراءات العشرة المتواترة لأنها الحجة ومنها يتوجه التفسير بعدُ بإذن الله تعالى: -**

**{ننسخ} قرأ ابن عامر بضم نون المضارعة وكسر السين، والباقون بفتحهما.**

**ففيها إذن من القراءات المتواترة قراءتان: قراءة الجمهور {نَنْسَخ}، وقراءة ابن عامر {نُنْسِخ}.**

**وكذلك {ننسها} قرأ الجمهور بضم النون وكسر السين دون همز {نُنْسِها}.**

**وقرأ أبو عمرو وابن كثير بفتح نون المضارعة والسين وهمزة محققة بعدهما {نَنْسَأها}. ([[29]](#footnote-29))**

**\*\*\*\***

**وحيث ثبت جواز النسخ فقد اختلفوا فيه على وجوه:**

**أحدها: أن القرآن نسخ جميع الشرائع والكتب القديمة كالتوراة والإنجيل وغيرهما.**

**والوجه الثاني: المراد من النسخ هو نسخ القرآن ونقله من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا. والوجه الثالث، وهو الصحيح الذي عليه جمهور العلماء: أن المراد من النسخ هو رفع حكم بعض الآيات بدليل آخر يأتي بعده وهو المراد بقوله تعالى: {ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ...} لأن الآية إذ أطلقت، فالمراد به آيات القرآن لأنه هو المعهود عندنا. ([[30]](#footnote-30))**

**\*\*\*\***

**(2) ونقف تفصيلا على تأويل {ننسخ} في الآية هنا بقراءتيها:**

**وفي المراد بالنسخ – كما قال العلماء -ثلاثة أقوال:**

**أحدها: وهو المعروف من النسخ فِي القرآن: إبطال الحكم مع إثبات الخط، وهو أن تكون الآية الناسخة والمنسوخة ثابتتين فِي التلاوة، إلا أن المنسوخة لا يُعمل بها، مثل عدة المتوفى عنها زوجها، كانت سنة، لقوله تعالى: {مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ} (البقرة: 240) ثم نسخت بأربعة أشهر وعشر، لقوله تعالى: {يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا} (البقرة: 234) ، وكقوله: {إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ} (الأنفال: 65) الآية، ثم نسخت بقوله: {الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ} (الأنفال: 66) ، الآية. رُوى عن ابن عباس ورواه مجاهد وغيره عن ابن مسعود وأصحابه. ويعود عليه تبديل حكم آية بأخرى، والنسخ رفع الحكم مع بقاء اللفظ، (والنسخ هنا بمعنى التبديل والإحلال). ويتسق مع نسق الآية في قوله تعالى: {نأت بخير منها أو مثلها}، وكذا قوله تعالى {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ.... الآية} (النحل 101). وهذا القول هو المتجه عندنا.**

**والقول الثاني: رفع اللفظ والحكم (وهو هنا على معنى أن النسخ = الإزالة بغير بدل). قاله السُدِّى.**

**والثالث: ورفع لفظ آية وبقاء حكمها، كآية الرجم المزعومة.**

**أقول: ولا يتفق هذان القولان مع معنى الإنساء في {ننسِها} أي ننسك يا محمد إياها، لأنها في نفس معنى الرفع من القلوب ولا يحسن في البلاغة التكرار، وكذلك لا يتفق مع معنى الإبدال الصريح في قوله تعالى: {نأت بخير منها أو مثلها}، فإن هناك إبدالاً سواء للمنسوخة أو المنساة، ولأن المرفوعة لفظا وحكما لا تعد آية من كتاب الله أصلاً فكيف يأتي بخيرٍ منها أو مثلها، وخصوصا أن الحديث عن إبدال آيةٍ مكان آيةٍ كما قال تعالى: {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ.... الآية} (النحل 101)، فتأمل.**

**وعلى وفق هذا التقسيم درج علماء الفقه وأصوله وهو: نسخ الحكم والتلاوة كليهما، أو نسخ الحكم وبقاء التلاوة، أو نسخ التلاوة وبقاء الحكم. وهذا من حيث (جواز الوقوع) لا من حيث (وقوعه في ذاته).**

**وقد ذكروا في الآيات التي نسخ لفظها مع بقاء حكمها كآية الرجم، وفي إحدى الآثار سورة بأكملها، وفي غيرها أن سورة الأحزاب كانت في مثل طول سورة البقرة، وفي أخرى آيات أخبار نُسخت من مثل: " لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثا". وبأقل تأملٍ في هذه الآثار نقف على ضعف في أسانيدها، واضطراب في متونها، وأحسنها حالا حديث آحادٍ لا يحكم على تواتر ما بين دفتى المصحف من كلام الله تعالى بالنسخ أو بغيره، هو أشبه بشاذ القراءات بل دونها.**

**كل ذلك مما حدا بنا إلى اعتماد القول الأول في معنى النسخ هنا مع ترجيحه من قِبل النسق والنظم والسياق.**

**وقرأ ابن عامر (من القراء العشرة): «ما نُنْسِخ» بضم النون، وكسر السين. قال أبو علي الفارسي أي: ما نجده منسوخاً كقولك: أحمدت فلاناً، أي: وجدته محموداً، وإنما يجده منسوخاً بنسخه إياه (قلتُ: فيعود تفسير هذه القراءة إلى ما ذكر من معنى القراءة بفتح النون). ([[31]](#footnote-31))**

**وقد أنكر قومٌ من أهل العربية هذه القراءة وتوجيهها.**

**وتأمل بعدُ -مشكورا -ما قال أبو علي الفارسي ونقله الواحدي؛ قال: ولم يثبت بتسمية النسخ ومعناه رواية نعلمها عن العرب، ولا سماع، ولا قياس، وإن المفسرين قالوا فيه على طريق التقريب. الذي يدل على هذا: أن الفراء قال: النسخ: أن يعمل بالآية ثم تنزل أخرى فيعمل بها، وتترك الأولى. ([[32]](#footnote-32))**

**\*\*\*\***

**(3) ثم نقف عند قوله تعالى: {أَوْ نُنْسِها} واتساقه مع نسق النسخ قبله.**

**وقد ذكرنا قراءتيها:**

**فقد قرأ ابن كثير وأبو عمرو (من العشرة): «ننسأها» بفتح النون مع الهمزة، والمعنى: نؤخرها. قال أبو زيد: نسأتُ الإبل عن الحوض، فأنا أنسؤها نَسْأً، إذا أخَّرْتَها عنه، ونسأت الإبل: إذا زدتَ في ظمئها يومًا أو يومين أو أكثر، وأنسأته الدين إنساءً: إذا أخرت قضاءه عنه. واسم ذلك: النسيئة، ومعنى التأخير في الآية على ثلاثة أوجه:**

**أحدها: أن يؤخر التنزيل فلا يُنزَّل ألبتَّة، ولا يُعْلَم، ولا يُعْمَل به، ولا يُتلى، والمعنى على هذا: ما نؤخر إنزالها فلا ننزِلُها.**

**الوجه الثاني: أن ينزلَ القرآن فيُعمل به ويُتلى، ثم يؤخر بعد ذلك، بأن يُنْسخ فترفع تلاوته ألبتّة، فلا يُتلى ولا يُعمل بتأويله (قلت-متأمله: وهذا يعود على معنى النسخ).**

**والوجهُ الثالث: أن يؤخر العملُ بالتأويل؛ لأنه نسخ، ويترك خَطه مُثبتًا وتلاوته في أن يُتلى قُرآن. وهو ما حكي عن مجاهد في قوله: (أو ننساها) قال: نُثْبت خطها ونُبَدّل حكمها.**

**قال الواحدي: ولا يصح في معنى الآية من هذه الأوجه إلا الأول؛ لأن الثاني والثالث يرجع تأويلهما إلى النسخ، ولا يَحسُن في التقدير: ما نَنْسَخْ من آية أو نَنْسَخْها. ([[33]](#footnote-33))**

**وللإمام الحرالي-رحمه الله-قول جدير بالتأمل: أن النسيء في {ننسأها} بالهمز تأخيرٌ عن وقتٍ إلى وقت، ومن أمثله ذلك المقاتلة للعدو عند وجدان المنعة والقوة، والمهادنة عند الضعف عن المقاومة، وكذلك كل ما من شأنه أن يمتنع في وقتٍ ما لمعنى مّا ثم يعود في وقتٍ آخر لزوال ذلك المعنى فهو من المُنسَأ الذي أهمل علمه أكثر الناظرين، وربما أضافوا أكثره إلى نمط النسخ لخفاء الفرق بينهما؛ فتدبر تجده عجبا.**

**وحاصله أن مدلول النسيء هو تأخير الإباحة أو الحرمة من وقتٍ إلى وقتٍ آخر كما في زواج المتعة الذي أبيح وقتا قصيرا ثم حُرِّم، ونحو ذلك. وهو على ما كانت العرب تتعارفه كما سيأتي تحريره في سورة براءة عند {إنما النسيء زيادة في الكفر} (التوبة: 37). انتهى. ([[34]](#footnote-34))**

**أقول-متأمله: أن القول عندي في معنى(ننسأها) وهو معنى التأخير، إما ينصرف إلى تأخير نسخ الآية فيتعلق المعنى بالعطف على معنى النسخ، فيكون: ما نبدل من حكم آية بالنسخ أو نؤخر نسخها بأن نتركها عاملة غير منسوخةٍ فكل ذلك بقدرة الله وأمره. أو يكون التأخير هنا هو تأخير بيان وحكمة العمل الآية إلى وقتها ويكون المعنى: ما ننسخ من آيةٍ فنزيل حكمها بالكلية، أو نؤخر العمل بذلك الحكم إلى وقته فبقدرة الله وعلمه. فتأمل السياق تجده متسقا مع ذلك والله أعلم.**

**\*\*\***

**قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: وقرأها أهل المدينة والكوفة: {أَوْ نُنْسِهَا}. ولقراءة من قرأ ذلك وجهان من التأويل.**

**أحدهما: أن يكون تأويله: ما ننسخ يا محمد من آيٍة فنغير حكمها أو ننسك إياها. وقد ذكر أنها في مصحف عبد الله: (ما نُنسكَ من آية أو ننسخها نجيء بمثلها)، فذلك تأويل: "النسيان". وكذلك كان سعد بن أبي وقاص يتأول الآية، إلا أنه كان يقرؤها: (أو تَنسها) بمعنى الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، كأنه عنى أو تنسها أنت يا محمد.**

**والوجه الآخر منهما، أن يكون بمعنى "الترك"، من قول الله جل ثناؤه: (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ) (التوبة: 67)، يعني به: تركوا الله فتركهم. فيكون تأويل الآية حينئذ على هذا التأويل: ما ننسخ من آية فنغير حكمها ونبدل فرضها، أو نتركها لا نبدلها؛ نأت بخير من التي نسخناها أو مثلها. ([[35]](#footnote-35))**

**قلتُ: وهذا التأويل يعود على معنى النسيئة في قراءة {ننسأها} أي نؤخرها ونتركها بغير نسخ. ويعود الضميران على الآية تُنسخ أو تُؤخر ويُؤتَى بخيرٍ من المنسوخة أو مثلها.**

**قال الطبري مرجِّحا ما ملخصه: وأولى القراءات في قوله: (أو ننسها) بالصواب، من قرأ: (أو نُنْسِها) بمعنى: نتركها. فالذي هو أولى بالآية، أن يكون – أخبر سبحانه بصنيعه إذا هو غيَّر وبدل حكم آية وأعقب ذلك بالخبر عما إذا لم يبدل ذلك ولم يغيِّر. فصحَّ في المعنى أن يكون عقيب قوله تعالى: (ما ننسخ من آية). قوله: أو نترك نسخها، وكان ذلك المعروف الجاري في كلام الناس. فهو يشتمل على معنى "الإنساء" الذي هو بمعنى الترك، ومعنى "النَّساء" الذي هو بمعنى التأخير. فكل متروكٍ مؤخَّر على حال ما هو متروك. ([[36]](#footnote-36))**

**قلتُ: ومنه قوله -تعالى -: {كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى} (طه 126) أي تركتها بترك العمل بها، فجزاؤك أن تترك في العذاب فهذه لطيفة في الاستعمال اللغوي القرآني لمعنى النسيان، فتأمل.**

**ثم قال الطبري رحمه الله: وقد أنكر قومٌ من العلماء معنى النسيان في قراءة من قرأ: (أو نَنْسها)، وقالوا: غير جائز أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم نسي من القرآن شيئا مما لم يُنسَخ، إلا أن يكون نسي منه شيئا، ثم ذكره. قالوا: وبعدُ، فإنه لو نسي منه شيئا لم يكن يجوز أن ينسى جميع الذين قرأوه وحفظوه من أصحابه. قالوا: وفي قول الله جل ثناؤه: (وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) (الإسراء: 86)، ما ينبئ عن أن الله تعالى لم يذهب بشيءٍ منه.**

**قلتُ-الباحث: واستدلوا كذلك بقوله تعالى: {سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (6) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ} (الأعلى: 6، 7). وقد رد الطبري على ذلك، ثم قال: فأما نحن، فإنما اخترنا ما اخترنا من التأويل طلب اتساق الكلام على نظام في المعنى، لا إنكار أن يكون الله تعالى ذكره قد كان أنسى نبيه بعض ما نسخ من وحيه إليه وتنزيله.**

**أقولُ: فأما النسيان الذي هو آفة في البشر فالنبي صلى الله عليه وسلم معصومٌ منه قبل التبليغ وبعد التبليغ ما لم يحفظه أحد من أصحابه، وأما بعد أن يُحفظ فجائزٌ عليه ما يجوز على البشر لأنه قد بلَّغ وأدى الأمانة، ومنه الحديث الذي رواه أحمد في مسنده عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبْزَى، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى فِي الْفَجْرِ فَتَرَكَ آيَةً، فَلَمَّا صَلَّى قَالَ: " أَفِي الْقَوْمِ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ؟ " قَالَ أُبَيٌّ: يَا رَسُولَ اللهِ نُسِخَتْ آيَةُ كَذَا وَكَذَا، أَوْ نُسِّيتَهَا؟ قَالَ: " نُسِّيتُهَا "). ([[37]](#footnote-37))**

**ورأيت للشيخ محمد عبده في ذلك كلاما حسنا قال فيه:**

**وأما قوله -تعالى -: {سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله} (الأعلى 6، 7) فهو يؤكد عدم النسيان؛ لأن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل في أسلوب القرآن للدلالة على الثبوت والاستمرار، كما في قوله -تعالى -: {خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ} (11: 108) أي غير مقطوع. وقوله: {قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله} (7: 188). والنكتة في الاستثناء بيان أن هذه الأمور الثابتة الدائمة إنما كانت كذلك بمشيئة الله -تعالى -لا بطبيعتها في نفسها، ولو شاء الله -تعالى -أن يغيرها لفعل، وهذا الاعتقاد من مهمات الدين، فلا غرو أن تزاح عنه الأوهام في كل مقام يمكن أن تعرض فيه، فليس امتناع نسيان الوحي طبيعة لازمة للنبي، وإنما هو تأييد ومنحة من الله -تعالى -، وليس خلود أهل الجنة في الجنة واجب عقلي أو طبيعي، وإنما هو بإرادة الله -تعالى -ومشيئته. انتهى ([[38]](#footnote-38))**

**وقال الحرالي ما ملخصه: وأما النسيان والتنسية على قراءة {ننسها} فمعناه أخفى من النسيء، وهو ما يظهره الله من الدلالات البيّنات على سبيل إدخال النسيان على رسول الله صلوات الله عليه وصحبه وقت التنزيل. وذلك كالسنن التي أبداها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن تنسيته كما ورد من قوله: " إني لأُنَسَّى لأسُنَّ". وقال عليه الصلاة والسلام في إفصاح القول فيه: «بئسما لأحدكم أن يقول: نسيت، بل هو نُسي» ومنه قيامه من اثنتين وسلامه من اثنتين – في حديث ذي اليدين-حتى أظهر الله سنة ذلك لأمته، وكانت تلك الصلاة بسهوها ليست بدونها من غير سهو بل هي مثلها أو خير؛ إذ شرع بعدها التخفيف، فتأمل.**

**ومن نحو ذلك منامه عن صلاة الصبح حتى أظهر الله توقيت الصلاة بالذكر كما كان قد أظهرها بالوقت الزماني، فصار لها وقتان: وقت يراها بالعيان بمدارها مع الشمس، ووقت يجدها فيه بمدارها مع الذكر، حيث قال عليه الصلاة وإسلام: «مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا» ([[39]](#footnote-39)) ولصحة وقوعها للوقتين كانت الموقتة بالذكر أداء بحسب تذكرها، وقضاء بحسب فوت الوقت الزماني؛ فلله تعالى على هذه الأمة فضل عظيم فيما يكمل لها على طريق النسخ، وعلى سبيل النسء، وعلى جهة النسيان الذي ليس عن تراخٍ ولا إهمالٍ، وإنما يوقعه الله تنسيةً منه للتخفيف والرحمة، وفي كل ذلك إنباء بأن ما وقع من الأمر بعد هذا النسيان خيرٌ من موقع ذلك الأمر المتقدم الذي كان يقع على غير نسيان لأنه منه سبحانه وهذا سر إضافة الفعل إلى الله تعالى { أو ننسها}، كل ذلك من اختصاص رحمته وفضله العظيم - انتهى. ([[40]](#footnote-40))**

**\*\*\*\***

**(4) وفي اتساق نسق (النسخ) و(الإنساء أو النسئ) مع تبديل آية مكان آية:**

**أقول بعد التأمل لمباحث اللفظ والمعنى في الآية مع مراعاة السياق التركيبي والاتساق بين معاني {ننسخ} و{ننسها} و{ننسأها} و{نأت بخير منها أو مثلها}:**

**لقد خلص لي أن تأويل {ننسخ} يتوجه إلى معنى تبديل حكم آية بحكم آيةٍ أخرى مثلها أو خير-في مصلحة العباد -منها في وقتها تماشيا مع دلالة {نأت بخير منها أو مثلها}. وعلى هذا فإن نسخ آيةٍ لفظاً وحكما بمعنى إزالتها بغير تبديلٍ يشذ عن النظم والنسق المنطقي للكلام الفصيح، وكذلك يخرج نسخ لفظ آيةٍ مع بقاء حكمها وعدم إبدالها بلفظ غيرها. ولم يبقَ من دلالة النسخ -التي تتماشى مع معنى تبديل آيةٍ مكان آيةٍ – غير نسخ الحكم وبقاء اللفظ، واستبدال حكم المنسوخة بلفظ وحكم الناسخة. وهو في الحقيقة الذي يتماشى أيضا مع حكم النسخ التي تأملها العلماء، ولا تبرز حكمة في سواه. فتأمل.**

**ثم يخلص أيضا أن تأويل {ننسها} والذي يوائم معنى القراءة الأخرى{ننسأها} هو الترك والإرجاء، كما رجَّح العلامة ابن جرير الطبري رحمه الله.**

**ويكون معنى الآية: فاعلم يا محمد ردا على اليهود المكذِّبين بنسخ الله تعالى لشرائعه وأحكامه، أنَّه إنْ ينسخ الله تعالى حكم آيةٍ فيبدلها بآيةٍ أخرى تنزل بعدها تكون أنفع للعباد في المعاش والمعاد في حينها؛ إن ينسخها أو يتركها ويرجئها ويؤخرها فلا ينسخها فهو سبحانه على كل شىءٍ قدير؛ فلا شريك له في ملكه، ولا حد لقدرته، ولا محيط بعلمه وحكمته، ولا راد لحكمه.**

**\*\*\*\***

**والنسخ يعرفه أهل الفقه وأصوله بتعريفات كثيرة لعل أقربها عندي: أنه ارتفاع العمل بحكم شرعي بدليل شرعي متأخر عنه في النزول عُلم تأخره بيقين ولا يمكن الجمع بينهما. ([[41]](#footnote-41))**

**\*\*\*\***

**قوله تعالى: {نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها}، قال ابن عباس: بألين منها، وأيسر على الناس.**

**قوله تعالى: {أَوْ مِثْلِها}، أي: في الثواب والمنفعة، فتكون الحكمة في تبديل حكم آيةٍ بمثلها الاختبار هل يطيع المؤمنون أم لا.**

**قال ابن عطية: ولفظة خير في الآية صفة تفضيل، والمعنى أنفع لكم أيها الناس في عاجلٍ إن كانت الناسخة أخف، وفي آجلٍ بالثواب إن كانت أثقل، وبمثلها إن كانت مستوية، (قلتُ-جامعه: فالأفضلية هنا بالنسبة للناس وانتفاعهم بالآيات لا بالنسبة للآيات في ذاتها).**

**وقوله تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ظاهره الاستفهام ومعناه التقرير، وهذا كله على أن القصد بمخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم مخاطبة أمته. ومعنى الآية أن الله تعالى ينسخ ما يشاء، ويثبت ما يشاء، ويفعل في أحكامه ما يشاء، هو قدير على ذلك وعلى كل شيء، وهذا لإنكار اليهود النسخ. ([[42]](#footnote-42))**

**\*\*\***

**مسألة: قال الشافعي رضي الله عنه الكتاب لا ينسخ بالسنة المتواترة، واستدل بهذه الآية وهو أنه تعالى قال: {ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها}. وذلك يفيد أنه تعالى هو الآتي والمؤتي به هو من جنس القرآن، وما كان من جنس القرآن فهو قرآن. وقوله: {نأت بخير منها} يفيد أنه هو المنفرد بالإتيان بذلك الخير، وهو القرآن الذي هو كلام الله دون السنة ولأن السنة لا تكون خيرا من القرآن ولا مثله. واحتج الجمهور على جواز نسخ الكتاب بالسنة بأن آية الوصية للأقربين منسوخة بقوله صلّى الله عليه وسلّم: «لا وصية لوارث» أجاب الشافعي رضي الله عنه: بأن هذا ضعيف لأن كون الميراث حقا للوارث يمنع من صرفه إلى الوصية فثبت أن آية الميراث مانعة من الوصية، وتقرير هذا وبسطه معروف في أصول الفقه. ([[43]](#footnote-43))**

**\*\*\*\*\***

**(5) يبقي لنا أن نعرف الفرق بين معنى "النسخ" عند السلف، ومعناه في اصطلاح فقهاء المتأخرين.**

**فهذا تنبيه هام على استعمال المتقدمين من السلف لاصطلاح النسخ وتعميمه ليشمل التخصيص والبيان الذي يكون بين الآيات، وعلى هذا المعنى درج كثير من السلف فاتسع لديهم باب النسخ جدا. ويكون النسخ عندهم يشتمل على معنى تغير في معنى أو أشخاص حكم آية بتخصيصٍ أو استثناء ونحوه.**

**(قال الإمام شمس الدين ابن القيم رحمه الله تعالى: مراد عامة السلف بالناسخ والمنسوخ رفع الحكم بجملته تارةً-وهو اصطلاح المتأخرين-ورفع دلالة العام والمطلق والظاهر وغيرها تارة، إما بتخصيص أو تقييد مطلق. وحمله على المقيد وتفسيره وتبيينه. حتى إنهم يسمون الاستثناء والشرط والصفة نسخا، لتضمن ذلك رفع دلالة الظاهر وبيان المراد. فالنسخ، عندهم وفي لسانهم، هو بيان المراد بغير ذلك اللفظ، بل بأمرٍ خارج عنه. ومن تأمل كلامهم رأى من ذلك فيه ما لا يُحصَى، وزال عنه به إشكالات أوجبها حمل كلامهم على الاصطلاح الحادث المتأخر. انتهى.**

**وقال وليّ الله الدهلويّ في الفوز الكبير: من المواضع الصعبة في فن التفسير التي ساحتها واسعة جدّا، والاختلاف فيها كثير، معرفة الناسخ والمنسوخ، وأقوى الوجوه الصعبة اختلاف اصطلاح المتقدمين والمتأخرين، وما علم في هذا الباب، من استقراء كلام الصحابة والتابعين، أنهم كانوا يستعملون النسخ بإزاء المعنى اللغويّ الذي هو إزالة شيء بشيء، لا بإزاء مصطلح الأصوليين. فمعنى النسخ عندهم إزالة بعض الأوصاف من الآية بآية أخرى، إما بانتهاء مدة العمل، أو بصرف الكلام عن المعنى المتبادر إلى غير المتبادر، أو بيان كون قيد من القيود اتفاقيا، أو تخصيص عام، أو بيان الفارق بين المنصوص وما قيس عليه ظاهرا، أو إزالة عادة الجاهلية، أو الشريعة السابقة، فاتسع باب النسخ عندهم وكثر جولان العقل هنالك، واتسعت دائرة الاختلاف. ولهذا بلغ عدد الآيات المنسوخة خمسمائة.**

**وإن تأملت، متعمقا، فهي غير محصورة. والمنسوخ باصطلاح المتأخرين عدد قليل. لا سيما بحسب ما اخترناه من التوجيه. انتهى.**

**وقال الإمام الشاطبيّ في الموافقات: الذي يظهر من كلام المتقدمين أن النسخ عندهم، في الإطلاق، أعم منه في كلام الأصوليين. فقد يطلقون على تقييد المطلق نسخا، وعلى تخصيص العموم، بدليل متصل أو منفصل، نسخا، وعلى بيان المبهم والمجمل نسخا، كما يطلقون على رفع الحكم الشرعيّ، بدليل شرعيّ متأخر، نسخا. لأن جميع ذلك مشترك في معنى واحد. وهو أن النسخ في الاصطلاح المتأخر اقتضى أن الأمر المتقدم غير مراد في التكليف، وإنما المراد ما جيء به آخرا، فالأول غير معمول به، والثاني هو المعمول به.). ([[44]](#footnote-44))**

## والخلاصة.

**أن هذه الآية صريحة في بيان جواز وقوع النسخ في كتاب الله تعالى وشرعه، وأن إنكار هذا النسخ لا مسوِّغ له فالله تعالى أعلم بالمصلحة والخير، وأعلم بأوفق الأزمنة لنسخ شرع بشرعٍ، فليس فيه (بَداء) أى ابتداء علمٍ في حقه تعالى، وإنما المسألة مسألة توقيت لوقف العمل بشرع وبدء العمل بشرع جديد، وكل في علمه القديم سبحانه، وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية إنما نزلت ردا على اعتراض اليهود والمنافقين ومَن على شاكلتهم على تغيير القبلة، والحق أن كتاب اليهود نفسه وقع فيه النسخ، كذلك يقع النسخ في الشرائع، والآية هنا تشير إلى وقوعه في الآيات في كتاب الله سبحانه ، لا كما توهم البعض بكثير تكلفٍ أنها في نسخ الشرائع والمعجزات؛ فتنبه.**

**ولكن الكلام على حدوث النسخ وأمثلته فله مجال آخر للبحث، إذ أن القرآن الكريم لا يثبت بغير التواتر، وما ورد عن وجود سور بأكملها وآيات قد رُفعت لا يصح أكثره، بل ما صح فيه آحادٌ لا تحكم على تواتر آيات الكتاب.**

**كما أن نص الآية {ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (البقرة: 106)، مع جمعها مع الآية الأخرى {وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ} (النحل: 101). يتضح لنا أن معنى النسخ الثابت وجوده في كتاب الله تعالى هو تبديل آيةٍ بأخرى، وهو ما يفيده – بظاهره -لفظ {ننسخ} في الآية والذي عُطف عليه قوله تعالى: {أو ننسها} على قراءتها ب(ننسِها) أو ننسأها)، والعطف ب (أو) التي تفيد التغاير، سواء على معنى (الإنساء) أو معنى (النسيان)، فتبين إما أن يكون هناك نسخ وإنساء (تأخير لنزول حكم)، أو نسخ ورفع. وعلى كلٍ فظاهر الآية يدل أن النسخ غير الرفع، فالنسخ إذن هو إبدال آية مكان آية توقف المتأخرة العمل بالأولى، مع بقاء تلاوة الآيتين، والرفع هو نزول آية ثم رفعها من صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بحيث لا تعد قرآنا يُذكر، فالحديث عنها هو مجرد روايات لا تمت للقرآن الثابت في المصحف بالتواتر بصلة.**

**فهنا حديثٌ عن ثلاث معانٍ تختلف: النسخ، والنسيان، والإنساء(التأخير).**

**وحين البحث نجد معنى النسخ لم يتضح المراد منه (تفصيلا) في اللغة أو لغة القرآن أو في السنة المنسوبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وإنما دل عليه وقوعه في القرآن الكريم، وفعله عليه السلام. وما جاء في اصطلاح المتأخرين من علماء الأصول لا يُعَدّ (بتفصيله) حاكما على المراد من الآية هنا، كما لا تعد الآية دليلا صريحا على ذلك التفصيل. وخصوصا إذا كان هذا التفصيل فيه مساس بمفهوم تواتر القرآن في بعض ما ذكروه من ضروب النسخ التي لا يقين فيما ورد فيها من دليلٍ. فتنبه.**

**يقول الإمام ابن حزم الظاهري المتوفى سنة: 556هـ: "لا يحل لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقول في شيء من القرآن والسنة: هذا منسوخ إلا بيقين، لأن الله عزوجل، يقول: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ} (الآية 64 النساء). وقال تعالى: {اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ} (الآية 3 الأعراف). فكل ما أنزل الله في القرآن، وعلى لسان نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرض اتباعه. فمن قال في شيء من ذلك إنه منسوخ، فقد أوجب ألا يطاع ذلك الأمر وأسقط لزوم اتباعه، وهذه معصية لله تعالى مجردة، وخلاف مكشوف إلى أن يقوم برهان على صحة قوله، وإلا فهو مفتر مبطل…". ([[45]](#footnote-45))**

**ويقول ابن الحصار عليّ بن محمّد الأنصاري المتوفى سنة: (611هـ): "إنما يرجع في النسخ إلى نقل صريح عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلم، أو عن صحابي يقول آية كذا نسخت كذا.**

**قال: وقد يحكم به عند وجود التعارض المقطوع به مع علم التاريخ ليعرف المتقدم والمتأخر، قال: ولا يعتمد في النسخ قول عوام المفسرين، بل ولا اجتهاد المجتهدين، من غير نقل صحيح ولا معارضة بيّنة، لأن النسخ يتضمن رفع الحكم، وإثبات حكم تقرر في عهده صلى الله عليه وسلم، والمعتمد فيه النقل والتاريخ، دون الرأي والاجتهاد. قال: والناس في هذا بين طرفي نقيض فمن قائل: لا يقبل في النسخ أخبار الآحاد العدول، ومن متساهل: يكتفى فيه بقول مفسر أو مجتهد، والصواب خلاف قولهما). انتهى ([[46]](#footnote-46))**

**وأختم ههنا بكلمة غالية للزركشي في "البرهان" قال:**

**قيل في قوله تعالى: {ما ننسخ من آية} ولم يقل من القرآن لأن القرآن ناسخ مهيمن على كل الكتب وليس يأتي بعده ناسخ له. وما فيه من ناسخ ومنسوخ فمعلوم وهو قليل بين الله ناسخه عند منسوخه كنسخ الصدقة عند مناجاة الرسول، والعدة، والفرار في الجهاد ونحوه.**

**وأما غير ذلك فمن تحقق علما بالنسخ علم أن غالب ذلك من المُنسأ، ومنه ما يرجع لبيان الحكم المجمل كالسبيل في حق الآتية بالفاحشة؛ فبينته السنة.**

**وكل ما في القرآن مما يُدَّعى نسخه بالسنة عند من يراه فهو بيان لحكم القرآن وقال سبحانه: {وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس}.**

**وأما بالقرآن على ما ظنه كثير من المفسرين فليس بنسخ، وإنما هو نسأ وتأخير أو مجمل أخر بيانه لوقت الحاجة، أو خطاب قد حال بينه وبين أوله خطاب غيره، أو مخصوص من عموم، أو حكم عام لخاص، أو لمداخلة معنى في معنى، وأنواع الخطاب كثيرة فظنوا ذلك نسخا، وليس به.**

**وإنه الكتاب المهيمن على غيره وهو في نفسه متعاضد وقد تولى الله حفظه فقال تعالى: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}. انتهى ([[47]](#footnote-47))**

**\*\*\*\***

## {ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض}.

**{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} (البقرة: 107)**

**فلما كان السياق في الرد على تخرصات اليهود والمنافقين على الرسالة المحمدية واتهام شريعة الله سبحانه عقَّبت الآيات بتقرير حقيقةٍ عقائدية راقية يضعها كل مؤمن في قلبه ووجدانه وعقله ويسير معها في الحياة. يرشد تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر وهو المتصرف، فكما خلقهم كما يشاء، كذلك يحكم في عباده بما يشاء، وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه. {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} (الأنبياء: 23). وفي هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف شبهتهم -لعنهم الله -في دعوى استحالة النسخ.**

**وَالْمَعْنَى: قَدْ عَلِمْتَ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُ أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَلَهُ التَّصَرُّفُ فِي تَكَالِيفِ عِبَادِهِ، بِمَحْوِ وَإِثْبَاتِ وَإِبْدَالِ حُكْمٍ بِحُكْمٍ، وَبِأَنْ يَأْتِيَ بِالْأَخِيرِ لَكُمْ وَبِالْمُمَاثِلِ. وَحِكْمَةُ إِفْرَادِ الْمُخَاطَبِ: أَنَّهُ مَا مِنْ شَخْصٍ إِلَّا يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ الْمُخَاطَبُ بِذَلِكَ، وَالْمُنَبَّهُ بِهِ، وَالْمُقَرَّرُ عَلَى شَيْءٍ ثَابِتٍ عِنْدَهُ، وَهُوَ أَنَّ قُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى مُتَعَلِّقَةٌ بِالْأَشْيَاءِ، فَلَنْ يُعْجِزَهُ شَيْءٌ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يُنْكَرِ النَّسْخُ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ، لَا رَادَّ لِأَمْرِهِ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ. ([[48]](#footnote-48))**

**والاستفهام {ألم تعلم} هنا خارجٌ مخرج التقرير، لا مخرج الاستفهام. كما قال الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ: اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَم أَنتَ قُلْتَ لِلْنَّاسِ: اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ} (المائدة: 116) خرج مخرج التقرير لا مخرج الاستفهام. وهذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد به أمته، ألا تراه قال بعد ذلك: {وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ}.**

**وهنا نكتة بديعة أيضا في العدول عن ضمير المتكلم المعظَّم سبحانه في قوله { ما ننسخ} إلى ضمير المخاطَب في { ألم تعلم} وبان وجهها، ثم ترك الضمير والإتيان بِاسم "الله" في {أن الله له ملك السموات والأرض} ويجيبنا أبو حيان فيقول: إِذْ هُوَ الِاسْمُ الْعَلَمُ الْجَامِعُ لِسَائِرِ الصِّفَاتِ، فَفِي ضِمْنِهِ صِفَةُ الْقُدْرَةِ، فَهُوَ أَبْلَغُ فِي نِسْبَةِ الْقُدْرَةِ إِلَيْهِ مِنْ ضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ الْمُعَظِّمِ، فَلِذَلِكَ عَدَلَ عَنْ قَوْلِهِ:( أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّنَا) إِلَى قَوْلِهِ: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ} الذي فيه من الفخامة والعظمة ما فيه. قال أبو حيان: وَخَصَّ السموات وَالْأَرْضَ بِالْمُلْكِ، لِأَنَّهُمَا مِنْ أَعْظَمِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَلِأَنَّهُمَا قَدِ اشْتَمَلَا عَلَى جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ. وَإِذَا كَانَ اسْتِيلَاؤُهُ عَلَى الطَّرَفَيْنِ، كَانَ مُسْتَوْلِيًا عَلَى مَا اشْتَمَلَا عَلَيْهِ، أَوْ لِأَنَّهُ يُعَبِّرُ عَنْ مَخْلُوقَاتِهِ الْعُلْوِيَّةِ بِالسَّمَاوَاتِ، وَالسُّفْلِيَّةِ بِالْأَرْضِ. فتأمل دقة القرآن.**

**وهنا أيضا يعاودنا الحديث عن مستويات الخطاب القرآني: فالخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم تثبيتا وتقريرا، ولأمته ثانيا تأكيدا وتذكيرا، ولليهود ردا وتبكيتا، وللمنافقين تفنيدا لحيلهم وتكذيبا، بل هو خطابٌ موجَّه لكل مَن يقرأ القرآن فكأنما يعنيه بذاته. وهكذا ينبغي أن نتأمل (مستويات الخطاب القرآني) وأفقه الدلالية المترامية الظليلة.**

**وقد ربنا تبارك وتعالى في هذه الآية وتذييل الآية قبلها بين وصفين: القدرة والاستيلاء. فقال سبحانه {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} (البقرة: 106، 107) لأن المرء قد يكون قادرا بِمَعْنَى أَنَّ لَهُ اسْتِطَاعَةً عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ، لَكِنَّهُ لَيْسَ لَهُ اسْتِيلَاءٌ عَلَى ذَلِكَ الشَّيْءِ، فَيُنَفِّذَ فِيهِ مَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْعَلَ. فَإِذَا اجْتَمَعَتِ الِاسْتِطَاعَةُ والملك وَعَدَمُ وجود المانع كَمُلَ بِذَلِكَ التَّصَرُّفُ مَعَ الْإِرَادَةِ. ([[49]](#footnote-49))**

**وفي تذييل الآية قوله تعالى: {وَمَا لَكُمْ} انتقل الخطاب هنا إلى صيغة الجمع من أجل تربية الجماعة المؤمنة وكذلك تربية المخاطبين بالقرآن فردا فردا {مِنْ دُون اللَّه} أَيْ غَيْره سبحانه {مِنْ} أدنى ما يُقال له {وَلِيّ} يَحْفَظكُمْ أو يظاهركم {وَلَا نَصِير} يَمْنَع عَنْكُمْ عَذَابه إنْ أَتَاكُمْ إنْ أنتم لم تؤمنوا بقدرته وملكه وعدله وتتركوا الاعتراض على حكمه وقضائه. وَلَمَّا كَانَتِ الْجُمْلَتَانِ الْأُولَيَانِ استفهامٌ لِتقْرِيرِ قدرته وملكه سبحانه، نَاسَبَ ذلك أَنْ تَكُونَ الْجُمْلَةُ الثَّالِثَةُ نَفْيًا لِلْوَلِيِّ وَالنَّاصِرِ، أَيْ أَنَّ الْأَشْيَاءَ الَّتِي هِيَ تَحْتَ قُدْرَةِ اللَّهِ وَسُلْطَانِهِ وَاسْتِيلَائِهِ، فَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَحْجِزُهُ عَمَّا يُرِيدُ بِهَا شَيْءٌ، وَلَا مُغَالِبَ لَهُ تَعَالَى فِيمَا يُرِيدُ (أفاده أبو حيان).**

**وهو تذييلٌ فيه رائحة التهديد لأولئك الذين يتملصون من تكاليف الله تعالى بالتلاعب في شريعته واتهامها، سواء كانوا من اليهود أو من أشباههم.**

**والتذييل أسلوب بلاغي تجده في القرآن كثيرا وهو في البلاغة أن يؤتَى بعد الجملة الأولى بجملة أخرى تشتمل على معناها إما:**

**للتأكيد، وهو إما تأكيد المنطوق، نحو﴿ وقُل جاءَ الْحَقُّ وزهَقَ الباطِلُ إنَّ الباطِلَ كانَ زَهوقًا ﴾(سورة الإسراء 81)، وإما تأكيد المفهوم نحو:**

**ولست بمستبْقٍ أخا لا تلمه — على شعثٍ. أيُّ الرجال المهذب؟**

**فقد دلت الجملة الأولى بعدم وجود الرجل الكامل فأكدها بالجملة الثانية "أي الرجال المهذب؟"**

**أو تأتي للتذييل نفسه، وهو إما يستقل بمعناه لجريانه مجرى المثل، نحو:**

**كلكم أروغ من ثعلب — ما أشبه الليلة بالبارحة.**

**أو لا يستقل، لعدم جريانه مجرى المثل، نحو:**

**لم يبقِ جودك لي شيئاً أؤمله — تركتني أصحب الدنيا بلا أملِ.**

**ولعل ما يهيج التأمل في هذه الآية هي أسلوب القرآن في الانتقال من مناقشة القضايا الجزئية (كتعامل اليهود والمنافقين مع الرسول باللؤم، وكالنسخ وغيره) إلى تقرير الأصول العامة التي ينبني عليها حقائق عقدية كبرى في الإسلام. وكأنها القيم العليا في تعليق ختامي على نقاش وجدال تأملي طويل تمتعنا به الآيات الكريمة. ([[50]](#footnote-50))**

# تربية الأمة المؤمنة وقيم التميز عن أخطاء الأمم.

**{ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (108) وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110) وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (112) } (البقرة: 108 - 112)**

**في هذه الآيات تتدفق اللغة القرآنية في خطابها السامي لبناء الأمة المؤمنة الناشئة في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتي تمثل النموذج الأسمى للأمة الخاتمة الحاملةِ لراية منهج الإسلام إلى آخر الزمان. هذا البناء الإيماني العميق الأساسات والمتين الأعمدة لوحظ فيه تلافي أخطاء الأمم السابقة وتجنب منزلقاتهم بعيدا عن حدود المنهج الرباني، وهنا تبدأ الخطوط الرئيسية التي تمتد في عمق منهجية سورة البقرة تتضح شيئا فشيئا لتبزغ في أرقى تجلياتها في خضم هذه القواعد المنهجية في البناء على أسسٍ ربانية مفارقة بذلك انحرافات اليهود والنصارى عن (سواء الصراط) ومقتضى العقيدة والشريعة الربانية. إنه المنهج الرباني الذي تضع سورة البقرة في هذه الآيات وأمثالها خطوطه لبناء الأمة الربانية. وذلك لأن هذه السورة هي فسطاط القرآن الجامعة لجميع ما تفصّل فيه؛ وهي سنام القرآن، وسنام الشيء أعلاه؛ ففيها لذلك جوامع ينتظم بعضها ببعض تبيّن تفاصيل البناء في سنامية معانيها وسيادة خطابها التي يشاكلها -ولكن في إجمالٍ-سنامية معاني الفاتحة قبلها.**

**لقد جاء الإسلام بعظمته الربانية في بناء الضمير الإيماني قبل مناقشة تفاصيل التشريع. مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم ينشأ أساسات البناء الإيماني في نفوس أتباعه لأكثر من نصف عمر الدعوة ويعلمهم كيف يتعاملون مع المنهج الرباني بالتسليم والرضا بحكم وحكمة الرب الرحمن الرحيم. ثم كان الاجتماع في المدينة المنورة بأهل الكتاب، والذين استغلوا بكورية الإيمان في قلوب الرعيل الأول وحاولوا أن يمسخوهم مثلهم في العناد والمجادلة والتملص من منهج الله تعالى. وهنا بدأ التدخل الرباني ليعطي الدرس للمؤمنين ساعتها؛ وللأجيال القادمة إلى يوم القيامة والتي ستقابل حملات التشكيك والإماهة والتذويب للهوية والطعن في المنهج الرباني.**

## ومع الآيات نسير

**ذكروا في اتصال هذه الآية ما حاصله: أن الشبهات التي ألقاها اليهود في حربهم المستمرة على دين الله الحق ربما تكون قد خلقت في نفوس المؤمنين بعض التساؤلات والتي بدورها تؤدي إلى الجدالات والتحايلات التي ملأت علاقة اليهود مع أنبيائهم ومع نبى الله موسى عليه السلام خصوصا. وعلى كلٍ؛ فالخطاب -على الأرجح-للمؤمنين من أمة محمد عليه الصلاة والسلام، وفيه نهى عن اتباع سبيل المجرمين، واعتراضهم المستمر على منهج الله تعالى والتحايل والتحجج للتملص من تكاليفه بعقولهم الفاسدة وأهوائهم الماجنة.**

**فإنه (لما بيَّن لهم سبحانه أنه مالك أمورهم ومدبرها على حسب مصالحهم من نسخ الآيات وغيره، وقررهم على ذلك بقوله: (أَلَمْ تَعْلَمْ) أراد أن يوصيهم بالثقة به فيما هو أصلح لهم مما يتعبدهم به وينزل عليهم وأن لا يقترحوا على رسولهم ما اقترحه آباء اليهود على موسى عليه السلام من الأشياء التي كانت عاقبتها وبالا عليهم كقولهم – لعنهم الله: {اجعل لنا إلها}، و{أرنا اللَّه جهرة}، وغير ذلك). ([[51]](#footnote-51))**

**وقد ذكر العلماء في سبب نزول الآية كلام لا يتصل أكثره بسند صحيح، وكذا ذكروا في المخاطَب بها. والحق أن سياق الآية واضح لا يحتاج لذلك؛ وخصوصا بعد بيان اتصالها بقضيةٍ خطيرة في العقيدة وهي تعامل المؤمنين مع النبوة ومع الوحي بعمومه، فتأمل. ([[52]](#footnote-52))**

**{أمْ} تأتي في اللغة إما متصلة بما قبلها بمعنى أو وتكون في استفهام ويقصد بها إرادة التعيين بين متماثلين أو التسوية بينهما. كما في قوله تعالى: {أقَرِيبٌ أمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ} (الأنبياء 109) أي أجيبوا! وللتسوية كما في قوله تعالى: {سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا}: أي جزعنا وصبرنا سواء. هذه المتصلة. وأما المنقطعة فهى التي لا علاقة لها بما بعدها وتكون بمعنى (بل) مثل قوله تعالى: {قل هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى والْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ والنُّورُ} (الرعد 16). ([[53]](#footnote-53))**

**وقد ذكر العلماء في معناه في هذه الآية الوجهين: اتصالها بما قبلها وانقطاعها في كلام مستأنفٍ جديد ولكل وجهته ووجهه ومحل خلافهم (أعاريب القرآن) ([[54]](#footnote-54)). فقيل هو معطوف على قوله تعالى: (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، وتقديره: ألم تعلموا ذلك أم لم تعلموا فتريدون أن تسئلوا رسولكم...، وقيل هو لاستئناف الاستفهام المفسَّر بها. قال الزجاج: والمعنى " بل أتريدون أن تسألوا رسولكم كما سُئِل موسى من قبل "، فمعناه أنهم نُهوا أن يسألوا النبي -صلى الله عليه وسلم -ما لا خير لهم في السؤال عنه وما يُكَفِّرهم، وإِنما خوطبوا بهذا بعد وضوح البراهين لهم وإقامتها على مخالفتهم. فأُعْلِم المسلمون أن السؤال بعد قيام البراهين كفر. انتهى**

**والعتاب هنا للمؤمنين على خواطرٍ خطرت بنفوسهم. بدليل أنه علق الاستنكار على الإرادة لا على صدور السؤال منهم فقال سبحانه {أم تريدون أن تسألوا} ولم يأتِ ( أم تسألون)، فأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم – خاصةً- وأتباعه المؤمنون عامةً أقرب عند الله تعالى وأكرم من أن يدعهم يقعون في كفر اليهود وتعنتهم، فأتاهم بما يحذرهم سوء الأدب مع الله قبل وقوعه. والحمد لله رب العالمين.**

**وهنا مبدأ تربوي هام للأمة المؤمنة في الأدب مع الله تعالى ومع النبوة والوحي: حيث نهى الله تعالى في هذه الآية الكريمة، عن كثرة سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن الأشياء قبل كونها، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وإنْ تسألوا عنها حين يُنَزَّل القرآن تُبْدَ لكم} (المائدة: 101) أي: وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم، ولا تسألوا عن الشيء قبل كونه؛ فلعله أن يحرم من أجل تلك المسألة. ولهذا جاء في الصحيح: "إن أعظم المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم، فحرم من أجل مسألته". وفي صحيح مسلم: "ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه" الحديث. وهكذا قال أنس بن مالك: نهينا أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء، فكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع. ([[55]](#footnote-55))**

**فالأدب مع النبوة والتسليم للوحي ولحكمة الله تعالى في تشريعه دون اللهاث خلف التساؤلات التي تضاهئ تحايلات اليهود للتملص من شرع الله تعالى، وقد مر بك مثل فعلهم ذلك في قصة البقرة، ولعل الإشارة اللطيفة بالإحالة على قصة البقرة منحى دقيق يدل المتأمل البصير على ما نقصده من تلاحم القرآن واتصاله في منهج ونظامٍ واحدٍ متسق.**

**قال تعالى: {وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ} تذييلٌ للتحذير وللدلالة على أن المحذَّر منه كفر أو يفضي إلى الكفر لأنه ينافي حرمة الرسول والثقة به وبحكم الله تعالى، ويحتمل أن المراد بالكفر أحوال أهل الكفر أي لا تتبدلوا بآدابكم تقلد عوائد أهل الكفر في سؤالهم كما قال صلى الله عليه وسلم في حديث «الصحيحين»: «فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم». وإطلاق الكفر على أحوال أهله وإن لم تكن كفرا شائع في ألفاظ الشريعة وألفاظ السلف كما قالت جميلة بنت عبد الله بن أبي زوجة ثابت بن قيس: «إني أكره الكفر» تريد الزنا. (أفاده صاحب التحرير)**

**ويتبدل= أي يستبدل، والباء فيها للعوض والبدل أَيْ: مَنْ يَأْخُذِ الْكُفْرَ بَدَلَ الْإِيمَانِ؟ وَهَذِهِ كِنَايَةٌ عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنِ الْإِيمَانِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى الْكُفْرِ، كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ: {اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى}. وَفَسَّرَ الزَّمَخْشَرِيُّ هَذَا بِأَنْ قَالَ: وَمَنْ تَرَكَ الثِّقَةَ بِالْآيَاتِ الْمُنَزَّلَةِ وَشَكَّ فِيهَا وَاقْتَرَحَ غَيْرَهَا.**

**{فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ} أي قصد السبيل. قال أبو حيان: وَلَمَّا كَانَتِ الشَّرِيعَةُ تُوَصِّلُ سَالِكَهَا إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى، كَنَّى عَنْهَا بِالسَّبِيلِ، وَجَعَلَ مَنْ حَادَ عَنْهَا: كَالضَّالِّ عَنِ الطَّرِيقِ، وَكَنَّى عَنْ سُؤَالِهِمْ نَبِيَّهُمْ مَا لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَسْأَلُوهُ بِأخذ الْكُفْرِ بدل الْإِيمَانِ، وَأَخْرَجَ ذَلِكَ فِي صُورَةٍ شَرْطِيَّةٍ، وَصُورَةُ الشَّرْطِ لَمْ تَقَعْ منهم بَعْدُ تَنْفِيرًا عَنْ ذَلِكَ، وَتَبْعِيدًا مِنْهُ. فَوَبَّخَهُمْ أَوَّلًا عَلَى تَعَلُّقِ إِرَادَتِهِمْ بِسُؤَالِ مَا لَيْسَ لَهُمْ سُؤَالُهُ، وَخَاطَبَهُمْ بِذَلِكَ، ثُمَّ أَدْرَجَهُمْ فِي عُمُومِ الْجُمْلَةِ الشَّرْطِيَّةِ. وَأَنَّ مِثْلَ هَذَا يَنْبَغِي أَنْ لَا يَقَعَ، لِأَنَّهُ ضَلَالٌ عَنِ الْمَنْهَجِ الْقَوِيمِ، فَصَارَ صَدْرُ الْآيَةِ إِنْكَارًا وَتَوْبِيخًا على مَن يفعل ذلك، وَعَجُزُهَا تَكْفِيرًا وَضَلَالًا. وَمَا أَدَّى إِلَى هَذَا فَيَنْبَغِي أَنْ لَا يَتَعَلَّقَ بِهِ غَرَضٌ وَلَا طَلَبٌ وَلَا إِرَادَةٌ. انتهى.**

## حقيقة الإيمان العبودية التي هي التسليم لأمر الله.

**ويبدو من الناحية الدلالية سؤال: إذا كان مستبدل الكفر بالإيمان بالفعل ضالّاً، فما فائدة الشرط وجوابه هنا؟ ويجيب الراغب في تفسيره بما لم أفهمه، وأفاد صاحب التحرير ما ملخصه: هذا استعمال عربي جيد يأتون بالجزاء ماضيا لقصد الدلالة على شدة ترتب الجزاء على الشرط وتحقق وقوعه معه؛ حتى إنه عند ما يحصل مضمون الشرط يكون الجزاء قد حصل؛ فكأنه حاصلٌ من قبل الشرط نحو قوله تعالى: {وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى} (طه: 81) وهم يجعلون (قد) علامة على هذا القصد. وأحيانا يجعلون الجزاء ماضيا مريدين أن حصول مضمون الشرط كاشف عن كون مضمون الجزاء قد حصل أو قد تذكره الناس نحو قوله تعالى على لسان إخوة يوسف: {إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ} [(يوسف: 77) ودلالة الجزاء هنا أنه يحمل معنى كشف او ذكر ما سبق أن وقع فعلا حال ذكر ما يحضر، ومعناه هنا فلا تعجب إذ قد سرق أخ له، وفي الآية معناه: ومن يتبدل الكفر بالإيمان فالسبب فيه أنه قد كان ضل قصد السبيل من قبلُ؛ كما تقول: من يقع في الحفرة، فقد عشى بصره. ([[56]](#footnote-56))**

**ولكنني أقول: المعنى العميق لهذا التركيب فيه أن من يستبدل الكفر الذي هو منهج اليهود مع الوحي بالإيمان الذي هو هدايات القرآن فهو الضال بحق علم ذلك كفرا وضلالا أو جهله. فهو تأكيد لمعنى ضلالهم وإرشادهم أن طريق المتملصين من الشرع كفر. فتنبه.**

**وهو تذييل آخر وفيه تقرير للحقيقة التي تمحَّضت بعد فهم قضية مناكفة الأنبياء والتملص من منهجهم. القضية صارت إذن بين (إيمانٍ) و(كفر). فحقيقة الإيمان هو التسليم الكامل لمنهج الله تعالى بتصديق خبره، والتزام أمره. كما أن الكفر هو رفض منهج الله تعالى وتركه إلى هوى النفوس. وهذا هو جوهر المفارقة والمفاصلة بين المسلمين الذين ارتبطوا بربانية المنهج، وأهل الكتاب من قبل حين حرفوا دينهم واخترعوا منهجا لهم وضعه أحبارهم ولذلك يقول ربنا تبارك وتعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} (التوبة: 31). فجوهر الإيمان الصحيح هو عبادة الله وحده، فإذا ما اعتُرض على منهج الله صار الأمر إلى الهوى، فصار الهوى إلها يُعبد من دون الله، كما قال تعالى {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} (الجاثية: 23). فمن ترك لهواه العنان يقبل ما شاء من منهج الله ويرد منه ما لا يرضي هواه، كان عابدا لهواه وليس عابدا لله تعالى. ولشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-رسالة ماتعة نافعة جدا سماها" العبودية" بسط فيها هذا المعنى فراجعه تجد خيرا.**

## استعمال لفظ "الضلال" ودلالاته في القرآن.

**ونستطرد أيضا بنكتةٍ بديعةٍ يذكرها صاحب المفردات في معنى "الضلال" يقول:**

**الضَّلَالُ: العدولُ عن الطّريق المستقيم، ويضادّه الهداية، قال تعالى: {فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها} (الإسراء/ 15)، ويقال الضَّلَالُ لكلّ عدولٍ عن المنهج، عمدا كان أو سهوا، يسيرا كان أو كثيرا، فإنّ الطّريق المستقيم الذي هو المرتضى صعب جدا، قال النبيّ صلّى الله عليه وسلم: «استقيموا ولن تُحْصُوا». وقال بعض الحكماء: كوننا مصيبين من وجه وكوننا ضَالِّينَ من وجوه كثيرة، فإنّ الاستقامة والصّواب يجري مجرى الهدف من المرمى، وما عداه من الجوانب كلّها ضَلَالٌ. وإذا كان الضَّلَالُ تركَ الطّريق المستقيم عمدا كان أو سهوا، قليلا كان أو كثيرا، صحّ أن يستعمل لفظ الضَّلَالِ ممّن يكون منه خطأ ما، ولذلك نسب الضَّلَالُ إلى الأنبياء، وإلى الكفّار، وإن كان بين الضَّلَالَيْنِ بون بعيد، ألا ترى أنه قال في النّبي صلّى الله عليه وسلم: {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى} (الضحى/ 7)، أي: غير مهتد لما سيق إليك من النّبوّة. وقال في يعقوب: {إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ} (يوسف/ 95)، وقال أولاده: {إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ} (يوسف/ 8)، إشارة إلى شغفه بيوسف وشوقه إليه، وكذلك: {قَدْ شَغَفَها حُبًّا إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ} (يوسف/ 30)، وقال عن موسى عليه السلام: {فَعَلْتُها إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} (الشعراء/ 20)، تنبيه أنّ ذلك منه سهو، وقوله: {أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما} (البقرة/ 282)، أي: تنسى، وذلك من النّسيان الموضوع عن الإنسان.**

**والضَّلَالُ من وجه آخر ضربان: ضَلَالٌ في العلوم النّظريّة، كالضَّلَالِ في معرفة الله ووحدانيّته، ومعرفة النّبوّة، ونحوهما المشار إليهما بقوله: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيداً}(النساء/ 136)، والضَّلَالُ البعيدُ إشارةٌ إلى ما هو كفر، وكما في قوله:{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالًا بَعِيداً}(النساء/ 167) ، وكقوله: {فِي الْعَذابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ}(سبأ/ 8) ، أي: في عقوبة الضَّلَالِ البعيدِ، وعلى ذلك قوله: {إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ}(الملك/ 9) ، {قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ} (المائدة/ 77). وضرب هو ضَلَالٌ في العلوم العمليّة، كمعرفة الأحكام الشّرعيّة التي هي العبادات.**

**وأما قوله تعالى: {أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ} (السجدة/ 10)، كناية عن الموت واستحالة البدن. وقوله: {وَلَا الضَّالِّينَ} (الفاتحة/ 7)، فقد قيل: عني بِالضَّالِّينَ النّصارى.**

**وقوله تعالى: {فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى} (طه/ 52)، أي: لا يَضِلُّ عن ربّي، ولا يَضِلُّ ربّي عنه: أي: لا يغفله.... إلى آخر مبحثه الرائع رحمه الله. ([[57]](#footnote-57))**

# اتضاح المواقف.

**{وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110) وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (112) } [البقرة: 109 - 112]**

**ذكر المفسرون في هذه الآية رواياتٍ، وزعموا أن الآية نزلت بسببها، والحق ان الآية – وإن كانت تنتظم ما رووه على عمومها-ليست على ما ذكروا. وقد أحسن العلامة الطبري في تفسيره حيث دفع تنزيل الآية على تلك الروايات بعينها مستدلا ببراعةٍ فائقةٍ بعموم لفظ الآية ودلالاتها على أن ما ذكروا من الروايات هو حكايةٌ عن نفرٍ قليلٍ من اليهود؛ مع أن لفظ الآية {كثير} وهو بصيغة الجمع {يردونكم} التي تعبر عن موقفٍ عامٍ وليس فعلا فرديا من نفرٍ من المشركين، وعلى هذا تتحدد صيغةٌ ربانيةٌ لفهم قضية التعامل مع أهل الكتاب. فتأمل براعة الترجيح والتدبر عند علمائنا تجد عجبا وتعلم سفاهة من يدعي أن نهضتنا في انفصالنا عن تراثهم. ([[58]](#footnote-58))**

**كما يتبين هنا مبدأ عموم اللفظ وتقديم دلالاته المتسعة على خصوص السبب، وهي مسألة تجدها في أصول التفسير وقواعده. فإن كثيرا من أهل الأصول وعلماء التفسير يتبنى مبدأ: ان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، يقولون إن الآيات التي وردت على أسباب فهى وإن كانت تنتظم أسبابها لا محالة، فهى في كثير من الأحيان تتعدى إلى عموم دلالتها. ويمثلون لذلك بالآيات التي وردت ردا على أسئلةٍ ووقائع وقعت للصحابة فأُنزل بسببها آيات هي تشريع عام للامة إلى يوم القيامة مثل قضية الظهار واللعان وغيرها. أقول: وهذه قاعدة صحيحة قطعا يمثل لها ما قدمنا من الترجيح في الآية المذكورة آنفا (109 من البقرة)، وما كان في مرتبتها من عموم اللفظ. ويشذ عن هذه القاعدة - على خلافٍ يستحق التأمل- ما إذا كان اللفظ فيه نوع خصوص بنوعٍ أو شخصٍ او أشخاصٍ ومثل ذلك، كما يشذ عنها ما إذا كان الكلام لا ينفك لفهمه عن سببه كما في آية {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا} (البقرة: 158)؛ فقد فهم عروة بن الزبير أن الطواف بالصفا والمروة مباح وليس بركن في الحج، وقد ردت ام المؤمنين عائشة – عليها الرضوان- على عروة في فهمه ذلك بسبب نزولها وهو أن الصحابة تأثموا من السعي بينهما لأنه من عمل الجاهلية. فنزلت. ومثل ذلك وإن كان أخفى ما نقلنا آنفا في قوله تعالى {لا تقولوا راعنا} الآية؛ فمن المشكل أن ينهى المؤمنون عن لفظ عادي، إلا أن يكون خلف ذلك قصة فاستصحب ذلك في تعاملك مع تدبر كتاب الله والله أعلم.**

**\*\*\*\*\*\***

**نعود فنقول:**

**بيَّن الله - تعالى - في الآية الأولى من هاتين الآيتين أن أهل الكتاب المتعصبين لدينهم - من حيث هو جنسية لهم تقوم بها منافع جنسهم - لم يكتفوا بكفرهم بالنبي - صلى الله عليه وسلم - والكيد له ونقض ما عاهدهم عليه حسدا له ولقومه على نعمة النبوة، بل هم يزيدون على ذلك ما قصه - تعالى - بقوله: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا} ، فهو بيان لما يضمرونه وما تكنه صدورهم للمسلمين من الحسد على نعمة الإسلام التي عرفوا أنها الحق، ولكنهم شق عليهم أن يتبعوهم، فتمنوا أن يحرموا هذه النعمة ويرجعوا كفارا كما كانوا، وذلك شأن الحاسد يتمنى أن يسلب محسوده النعمة ولو لم تكن ضارة به، فكيف إذا كان يعلم أن تلك النعمة إذا تمت وثبتت يكون من أثرها سيادة المحسود عليه، كما كان يتوقع علماء يهود في عصر التنزيل؟ وقد جاء هذا التنبيه تتمة لقوله -تعالى - قبل آيات: { مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ} (البقرة: 105) وقد بيَّن الله لنا ما كان من محاولة أهل الكتاب وتحيلهم على تشكيك المسلمين في دينهم كقول بعضهم لبعض: بأن يؤمنوا أول النهار ويكفروا آخره، لعل ضعفاء الإيمان يرجعون عن الإسلام اقتداء بهم، كما سيأتي في سورة آل عمران، وفي هذه الآية وما بعدها إشارة إلى أن لذلك بعض الأثر في نفوس بعض المسلمين.**

**وفائدة هذا التنبيه أو التنبيهات أن يعلم المسلمون أن ما يبدو من أهل الكتاب أحيانا من إلقاء الشبه على الإسلام وتشكيك المسلمين فيه، إنما هو مكر السوء، يبعث عليه الحسد، وقال: {حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ} ليبين أن حسدهم لم يكن عن شبهة دينية أو غيرةً على حقٍ يعتقدونه، وإنما هو خبث النفوس وفساد الأخلاق والجمود على الباطل، وإن ظهر لصاحبه الحق؛ ولذلك قفاه بقوله: {مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ} أي بالآيات التي جاء بها النبي - صلى الله عليه وسلم - وبانطباق ما يحفظون من بشارات كتبهم بنبي آخر الزمان عليه.**

**ثم أمر الله -تعالى -المؤمنين بأن يقابلوا هذا الحسد وما ينبعث عنه بما يليق بهم من محاسن الأخلاق، فقال: {فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا}، ولم يقل: فاعفوا واصفحوا (عنهم) كأنه لإرادة العموم، أي عاملوا جميع الناس بالصفح والعفو، فإن هذا هو اللائق بشأن المؤمنين المتقين {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} (الفرقان: 63).**

**والعفو ترك العقاب على الذنب. والصفح: الإعراض عن المذنب بصفحة الوجه، فيشمل ترك العقاب وترك اللوم والتثريب.**

**(قال الأستاذ محمد عبده رحمه الله): وفي أمره - تعالى - لهم بالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلتهم هم أصحاب القدرة والشوكة؛ لأن الصفح إنما يطلب من القادر على خلافه، كأنه يقول: لا يغرنكم أيها المؤمنون كثرة أهل الكتاب مع باطلهم فإنكم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق، فعاملوهم معاملة القوي العادل للقوي الجاهل، (قال): وفي إنزال المؤمنين على ضعفهم منزل الأقوياء، ووضع أهل الكتاب على كثرتهم موضع الضعفاء، إيذانٌ بأن أهل الحق هم المؤيدون بالعناية الإلهية، وأن العزة لهم ما ثبتوا على حقهم، ومهما يتصارع الحق والباطل فإن الحق هو الذي يصرع الباطل، وإنما بقاءُ الباطل في غفلةِ الحقِّ عنه. ثم قال -تعالى -: {حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ} فوعدهم بأن سيمدهم بمعونته، ويؤيدهم بنصره، ثم أحالهم بقوله: {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} على قدرته النافذة التي لا يشذ عنها شيء في العالمين تأييدا للوعد، وكشفا لشبهة مَن عساه يقول: أنى لهذه الشرذمة القليلة العدد، الضعيفة القوى، أن تنتحل لنفسها وصف الملوك العالين، وتقف مع الأمم القوية موقف العافين القادرين؟ فجاء الجواب يقول لمثل هذا المشتبه: إن الذي أوقفها هذا الموقف، ومنحها هذا الوصف، وهو القادر على أن يهبها من القوة ما تتضاءل دونه جميع القوى، وهو ما يؤيد به سبحانه من يقوم بالحق ويثبت عليه {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} (الحج: 40) وقد فعل سبحانه فلله الحمد. انتهى ([[59]](#footnote-59))**

## أخلاق الدعوة لا تُنسخ.

**أقول: كلام صاحب المنار يكتب بماء الذهب، وقد جعل شيخنا الغاية التي قيد بها الأمر العفو والصفح هي النصر الذي يمن الله به على من نصر دينه، وهو ينتظم كثيرا من الأمور، وهو جيد في تحقيقه.**

**وكثير من المفسرين جعلوه أمرا واحدا، وهو الأمر بقتالهم، ويعبر بعضهم بآية السيف، ويعنون آية التوبة التي فيها حكم الجزية {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ... الآية} (التوبة: 29). وقال بعضهم: إنه توقيتٌ (تحديد وقت) لبيان الحكم بغيره بعد ذلك على وفق الظروف؛ فلا يصح أن يسمى منسوخا-أي في عرف الأصوليين-وإن روي عن ابن عباس-رضى الله عنه-وغيره، وذلك أن السلف كانوا يتوسعون في باب النسخ كما وضحنا. وهو ما ارتضيه لنفسي بعد التحقيق.**

**وذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم -كان عاهد جميع اليهود المجاورين له في المدينة عهدا أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم وحرية دينهم، فغدروا ونقضوا العهد بموالاة المشركين عليه مرارا، وكان يعفو عنهم ويصفح حتى أذن الله له بقتالهم وإجلائهم.**

**إذن فالذي قضاه الله تعالى في أولئك المشركين بعد ذلك هو من باب البيان لبعض أمر الله الذ قال فيه تعالى: {حتى يأتي الله بأمره} ويظل الأمر بالعفو والصفح ديدن دعوة الإسلام وجوهره وخلقه الذي لا يأتي عليه نسخ، ويظل أمر الله على اتساع معناه، فربما يكون النصر الذي وعد الله به المؤمنين أو انتصار الإسلام واضمحلال ما سواه الذي صرَّح به رسول الله صلى الله عليه وسلم في كثير من حديثه الشريف. وما أجمل ما قال صاحب الظلال:**

**وهكذا؛ يوقظ السياق القرآني وعي الجماعة المسلمة ويركزه على مصدر الخطر، ومكمن الدسيسة ويعبىء مشاعر المسلمين تجاه النوايا السيئة والكيد اللئيم والحسد الذميم، ثم يأخذهم بهذه الطاقة المعبأة المشحونة كلها إلى جناب الله ينتظرون أمره، ويعلقون تصرفهم بإذنه. وإلى أن يحين هذا الأمر يدعوهم إلى العفو والسماحة، لينقذ قلوبهم من نتن الحقد والضغينة. ويدعها طيبة في انتظار الأمر من صاحب الأمر والمشيئة. ([[60]](#footnote-60))**

**أقول: وإن التساهل الذي حدث في إطلاق دعوى النسخ ينم عن سطحية في تناول قضايا الإسلام، حتى قَالَ أبو عبيدة-كما ذكر القرطبي عنه: كُلُّ آيَةٍ فِيهَا تَرْكٌ لِلْقِتَالِ فَهِيَ مَكِّيَّةٌ مَنْسُوخَةٌ بِالْقِتَالِ. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَحُكْمُهُ بِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ ضَعِيفٌ، لِأَنَّ مُعَانَدَاتِ الْيَهُودِ إِنَّمَا كَانَتْ بِالْمَدِينَةِ. انتهى**

**قلتُ: وربما كان السلف لهم عذرهم في أنهم أطلقوا النسخ على أمور كثيرة منها التخصيص والتوقيت والبيان وغيره، ولم يكن يوازي عندهم رفع العمل بحكمٍ رفعا نهائيا لتعارضه مع الناسخ، كما هو في اصطلاح المحدثين. وإنما ننفي في هذه الآية وقوع النسخ بمعنى تعارض الآيتين، فليس تعارض ضرورةٌ واقعةٌ فرضها التعامل مع موقفٍ مؤقت في التاريخ بعينه؛ ليست تعارض أبداً مبدأً دعويا أخلاقيا ثابتا في الإسلام من العفو والصفح حين جهل الجاهلين. وتأمل قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث: " إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً، ولكن بعثت معلماً ميسّراً " (رواه مسلم وغيره).**

**فالعفو عن الجاهل حتى يُعلَّم والصفح عن السفيه المبغض هو من صفات وأخلاق الإيمان والدعوة المحمدية الثابتة، أما تقلب الأمور في علاقة المؤمنين بغيرهم بين سلامٍ وحربٍ، أو بين هدنةٍ وصلحٍ، وبين تعايشٍ وبغضٍ حسب مقتضيات الظروف والوقائع فهو من باب التوسعة التي مَنَّ الله تعالى بها على عباده المؤمنين في دولة الإسلام يقدرونها بحكمتهم حسب ظروفهم ووفق الضوابط الأخلاقية العليا في دعوة الإسلام. وليس في ذلك أبدا باب ناسخٍ ومنسوخٍ فتدبره تجده حقا إن شاء الله.**

**وتأمل ما رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَكِبَ عَلَى حِمَارٍ عَلَيْهِ قَطِيفَةٌ فَدَكِيَّةٌ وَأُسَامَةُ وَرَاءَهُ، يَعُودُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ فِي بَنِي الْحَارِثِ ابن الْخَزْرَجِ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، فَسَارَا حَتَّى مَرَّا بِمَجْلِسٍ فِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ - وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ- فَإِذَا فِي الْمَجْلِسِ أَخْلَاطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ وَالْيَهُودِ، وَفِي الْمُسْلِمِينَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَلَمَّا غَشِيَتِ الْمَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّابَّةِ خَمَّرَ ابْنُ أُبَيٍّ أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ وقال: لا تغيروا عَلَيْنَا!**

**فَسَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ وَقَفَ فَنَزَلَ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ: أَيُّهَا الْمَرْءُ، لَا أَحْسَنَ مِمَّا تَقُولُ إِنْ كَانَ حَقًّا! فَلَا تُؤْذِنَا بِهِ فِي مَجَالِسِنَا، ارْجِعْ إِلَى رَحْلِكَ فَمَنْ جَاءَكَ فَاقْصُصْ عَلَيْهِ.**

**قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَاغْشَنَا فِي مَجَالِسِنَا، فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ. فَاسْتَتَبَّ الْمُشْرِكُونَ وَالْمُسْلِمُونَ وَالْيَهُودُ حَتَّى كَادُوا يَتَثَاوَرُونَ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَنُوا، ثُمَّ رَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَابَّتَهُ فَسَارَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا سَعْدُ أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ-يُرِيدُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ-قَالَ كَذَا وَكَذَا.**

**فَقَالَ: أَيْ رَسُولَ اللَّهِ، بِأَبِي أَنْتَ وأمي! اعف عنه واصفح، فو الذي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لَقَدْ جَاءَكَ اللَّهُ بِالْحَقِّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ، وَلَقَدِ اصْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ الْبُحَيْرَةِ عَلَى أَنْ يُتَوِّجُوهُ وَيُعَصِّبُوهُ بِالْعِصَابَةِ، فَلَمَّا رَدَّ اللَّهُ ذَلِكَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَ شَرِقَ بِذَلِكَ، فَذَلِكَ فِعْلُ مَا رَأَيْتَ، فَعَفَا عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ يَعْفُونَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلُ الْكِتَابِ كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، وَيَصْبِرُونَ عَلَى الْأَذَى، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً}. انتهى نقلا عن القرطبي.**

**\*\*\*\*\***

## دعائم التمكين.

**ومما يؤكد ما اتبعناه من مسلكٍ في فهم حقيقة هامة في اخلاق الدعوة ما أردف تلك الآية ( البقرة 109) وهو قوله تعالى:**

**{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}.**

**(قال الأستاذ محمد عبده- عليه الرحمة): ثم بعد الوعد بالنصر والإرشاد إلى الاعتماد فيه على القدرة دلهم على بعض وسائل تحققه، وهي الصلاة التي توثق عروة الإيمان، وتعلي الهمة، وترفع النفس بمناجاة الله العلي الكبير، وتؤلف بين القلوب بالاجتماع لها، والتعارف في مساجدها، والزكاة التي تصل بين الأغنياء والفقراء فتتكون باتصالهم وحدة الأمة حتى تكون كجسمٍ واحد، فقال سبحانه: {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة}، ولم تُذكَر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في موضعٍ من الكتاب الحكيم إلا والمقام يقتضي الذكر لبيان فائدةٍ خاصة لهذا الأمر لا يمكن أن تستفاد من ذكرهما في موضع آخر.**

**[أقول-جامعه: وذكر الصلاة والزكاة هنا -وهما الركنان الأعظمان في الإسلام-هو تكملة لمنهج أخلاق الدعوة المحمدية وثوابتها؛ فبدأ بالعفو عن الجاهل والصفح عن السفيه الحاقد، ثم أردف ذلك بأن بيَّن -سبحانه -أنَّ نصره وإتمام أمره بأن يدخل الإسلام كل بيتٍ هو في الالتزام بشرع الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.**

**وما أجمل ما قال أحد الدعاة: "أقيموا دولة الله في قلوبكم يقيمها الله على أرضكم".**

**فالجهاد في تحقيق معاني العبودية في نفوسنا هو سبب النصر الحق، وليس السلاح؛ مصداقا لقوله تعالى: «وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (آل عمران/ 123)، ثم قال سبحانه تنويها بسبب الهزيمة في غزوة أحدٍ: «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» (أل عمران 132). مُعَاتَبَةً لِلَّذِينَ عَصَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَمَرَهُمْ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَفِي غَيْرِهِ. ثُمَّ قَال سبحانه: «وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ، وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ، وَالله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» (الآيات 133 حتى 136)، وفي الانتقال من الحديث عن الجهاد إلى تفصيل واجبات العبودية أكبر دلالة على أن أول الجهاد جهاد النفوس وقهرها على طاعة الله، فإذا انقادت فالنصر من الله كما وعد سبحانه.**

**وإنْ ظل للسيف موضعه كما قال المتنبي:**

**وَوَضْعُ النّدى في موْضعِ السّيفِ بالعلى.......مضرٌّ كوضْع السيفِ في موضع النّدى] انتهى.**

**قال الشيخ محمد عبده:**

**وقد تقدم أن إقامة الصلاة ليست عبارة عن أدائها مطلقا، وإنما هي عبارة عن القيام بحقوقها الروحية في صورتها العملية، وذلك بالتوجه إلى الله - تعالى - ومناجاته والانقطاع إليه عما عداه، وإشعار القلب عظمته وكبرياءه، فبهذا الشعور ينمو الإيمان، وتقوى الثقة بالله، وتتنزه النفس أن تأتي الفواحش والمنكرات، وتستنير البصيرة فتكون أقوى نفاذا في الحق، وأشد بعدا عن الأهواء، فنفوس المصلين جديرة بالنصر لما تعطيها الصلاة من القوة المعنوية، ومن الثقة بقدرة الله - تعالى -، فإذا كان قوله - تعالى - بعد الوعد بالنصر: {إن الله على كل شيء قدير} دليلا أيَّد به الوعد، فقوله: {وأقيموا الصلاة} هداية إلى طريق الاقتناع التام بهذا الدليل – وهو الصلاة والزكاة- حتى يكون وجدانا للنفس لا تزلزله الشبهات، ولا تؤثر فيه المشاغبات والمجادلات.**

**وقد مضت سنة القرآن بقَرْن الزكاة بالصلاة؛ لأن الصلاة لإصلاح نفوس الأفراد، والزكاة لإصلاح شئون الاجتماع، ثم إن فيها من معنى العبادة ما في الصلاة، فإن المال -كما يقولون -شقيق الروح، فمن جاد به ابتغاء مرضاة الله -تعالى -كان بذله مزيدا في إيمانه، فهي إصلاح روحي أيضا.**

**وبعد أن أمر بالصلاة والزكاة في سياق كشف شبهة من يشتبه من ضعفاء الإيمان في نصر الله المؤمنين، وجعل السلطان لهم على الكافرين، وبيان أن إقامة هذين الركنين من وسائل النصر والسلطان في الدنيا، بيَّن لهم أنها من أسباب السعادة في الآخرة، فقال سبحانه: {وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله}.**

**وقوله -تعالى -: (تجدوه) هو كقوله: {فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره} وقالوا: إن المراد أنه يرى ويجد جزاءه، ولكن لما كان الجزاء مبنيا على أثر العمل في نفس العامل وارتقائها به كان الجزاء بمثابة العمل نفسه، ووصل الوعد بالجزاء على العمل بما يبعث المؤمن على الإحسان فيه، ويدل على تحققه، فقال سبحانه: {إن الله بما تعملون بصير} فلا يخفى عليه منه شيء فتخافوا أن ينقصكم من أجوركم شيئا. انتهى. ([[61]](#footnote-61))**

**(ثم قال الأستاذ الإمام): هذه الآيات هي آخر ما أدب الله - تعالى - به المؤمنين في هذا المقام على ما يخامر البعض منهم وما يظهر له من الشبه في مستقبل الإسلام وتأييده - تعالى - لنبيه وإعزازه لحزبه، وكان أولها قوله - عز وجل -: {ياأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا} (البقرة 104). وقد جاء هذا الإرشاد والتأديب في سياق الكلام على أهل الكتاب؛ لأن مكرهم السيئ كان مثارا لبعض الخواطر في المسلمين، فالكلام تأديب للمؤمنين ورد على اليهود. انتهى مختصرا.**

**\*\*\*\***

**أقول- جامعه: جاء البناء الإيماني للأمة الخاتمة حاملة الشعلة والراية في صورة بيان عملي بالخطاء التي وقعت الأمم من قبل؛ وما أحسن موضع ذلك في التعليم والتربية على تصحيح الاعتقاد والعمل جميعا. فإن تربية الأمة على توقير التعامل مع الوحى الذي يتصرف بحكمة الله تعالى، وتوقير التعامل مع الذي انزل عليه الوحى صلى الله عليه وسلم، ثم الإرشاد إلى الاعتقاد الجازم بأن الله ناصر الحق، وما علينا سوى المضي في أمر الله والدعوة إليه متحلِّين بالصبر والعمل الصالح. كل ذلك هو منهج الحق الذي لا يتبدل ولا ينتسخ، مع أن الأحكام تتبدل بمكانها من فقه الواقع ومتطلباته. فالإسلام بهذا دين متكامل ومنهج شامل لا يعرف الجمود، وفي ذات الوقت به من الثوابت التي لا تقبل الميوعة. فتدبر كيف أن هذه السورة ببنائها للأمة الإيمانية سورة عظيمة.**

**\*\*\*\***

## تلك أمانيهم بغير برهان.

**{وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111)}**

**قال الطبري رحمه الله: (وقالوا)، أى وقالت اليهود والنصارى. ومعناه: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا النصارى. ولكن لما كان معنى الكلام مفهوما عند المخاطبين به معناه، جُمع الفريقان في الخبر عنهما.**

**قلت -جامعه: وهو من حسن البلاغة التي تقدر عقل المتلقي ما دام أمن اللبس في الكلام. ونحوه في الإجمال قوله-عز وجل-{جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ} ويسميه أهل المعاني ( اللف والنشر) وهو من ضروب البلاغة اعتمادا على فهم المخاطَب. قال صاحب البحر المحيط: ولفَّهم فِي زعمهم { لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ}، لِأَنَّ الْقَوْلَ صَدَرَ مِنَ الْجَمِيعِ، بِاعْتِبَارِ أَنَّ كُلَّ فَرِيقٍ مِنْهُمَا قَالَ ذَلِكَ، لَا أَنَّ كُلَّ فَرْدٍ فَرْدٍ قَالَ ذَلِكَ حَاكِمًا عَلَى أَنَّ حَصْرَ دُخُولِ الْجَنَّةِ عَلَى كُلِّ فَرْدٍ فَرْدٍ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَلِذَلِكَ جَاءَ فِي العطف ب(أو) الَّتِي هِيَ لِلتَّفْصِيلِ وَالتَّنْوِيعِ، وَأَوْضَحَ ذَلِكَ الْعِلْمَ بِمُعَادَاةِ الْفَرِيقَيْنِ، وَتَضْلِيلِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، فَامْتَنَعَ أَنْ يَحْكُمَ كُلُّ فَرِيقٍ عَلَى الْآخَرِ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ، وَنَظِيرُهُ فِي لَفِّ الضَّمِيرِ، وَفِي كَوْنِ (أَوْ) لِلتَّفْصِيلِ قوله تعالى عنهم: {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (البقرة: 135) إِذْ مَعْلُومٌ أَنَّ الْيَهُودِيَّ لَا يَأْمُرُ بِالنَّصْرَانِيَّةِ، وَلَا النَّصْرَانِيَّ يَأْمُرُ بِالْيَهُودِيَّةِ .انتهى.**

**قال الطبري: وأما قوله تعالى: {تلك أمانيهم}، فإنه خبر من الله تعالى ذكره عن قولهم؛ أنه أماني منهم يتمنونها على الله بغير حق ولا حجة ولا برهان، ولا يقين علمٍ بصحة ما يدعون، ولكن بادعاء الأباطيل وأماني النفوس الكاذبة.**

**قال تعالى: {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111)}.**

**وهذا أمر من الله جل ثناؤه لنبيه صلى الله عليه وسلم بدعاء الذين ادعوا ذلك إلى أمر عدلٍ بين جميع الفرق: مسلمها ويهودها ونصاراها، وهو إقامة الحجة على دعواهم التي ادعوا. يقول الله لنبيه: قل للزاعمين أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هودا أو نصارى، دون غيرهم من سائر البشر: (هاتوا برهانكم) على ما تزعمون، فنسلم لكم إن كنتم محقين. والبرهان: هو البيان والحجة والبينة. انتهى([[62]](#footnote-62))**

**قلتُ-متأمله: ونلحظ ههنا ملحظين: أولهما هذه الدعوة الصادقة إلى الحوار ومقارعة الحجة بالحجة التي تتبين في هذا الرقي القرآني في التعامل مع الخصم حتى ولو ما يقوله سفها وخبطا بغير حقٍ. فالحديث هنا بين {وقالوا} و {قل}. قال تعالى: {وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}.**

**ثم تجد قيمة العقل والمنطق والحجة والبرهان والدليل في الإسلام الذي يدفع أتباعه إلى فهم الحجة وإدراك الدليل وسل البرهان في كل مصاولة بين الحق والباطل. قال الزمخشري وصدق: وهذا أهدم شيء لمذهب المقلدين. وأنّ كل قولٍ لا دليلَ عليه فهو باطلٌ غيرُ ثابت.ا.ه**

**والتَّقْلِيدُ هُوَ قَبُولُ الشَّيْءِ بِغَيْرِ دَلِيلٍ. فإن كان له دليل فهو اتباع. فإن أخرجت له الدليل فهو اجتهاد.**

**يقول الشيخ الدهلوي رحمه الله: [وعَلى هَذَا وجدنَا محققي الْعلمَاء من كل مَذْهَب قَدِيما وحديثا. وَهُوَ الَّذِي وصّى بِهِ أَئِمَّة الْمذَاهب أَصْحَابهم. وَرُوى عَن أبي حنيفَة رَضِي الله عَنهُ أَنه كَانَ يَقُول: لَا يَنْبَغِي لمن لم يعرف دليلي أَن يُفْتِي بكلامي.**

**وَكَانَ رَضِي الله عَنهُ إذا أفتى يَقُول: هَذَا رأى النُّعْمَان بن ثَابت يَعْنِي نَفسه، وَهُوَ أحسن مَا قَدرنَا عَلَيْهِ فَمن جَاءَ بِأَحْسَن مِنْهُ فَهُوَ أولى بِالصَّوَابِ.**

**وَكَانَ الامام مَالك رَضِي الله عَنهُ يَقُول: مَا من أحد الا وَهُوَ مَأْخُوذ من كَلَامه ومردود عَلَيْهِ إِلَّا رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم.**

**وروى الْحَاكِم وَالْبَيْهَقِيّ عَن الشَّافِعِي رَضِي الله عَنهُ أَنه كَانَ يَقُول: إذا صَحَّ الحَدِيث فَهُوَ مذهبي وَفِي رِوَايَة إذا رَأَيْتُمْ كَلَامي يُخَالف الحَدِيث فاعملوا بِالْحَدِيثِ واضربوا بكلامي الْحَائِط.**

**وَقَالَ يَوْمًا للمزني: يَا أَبَا إِبْرَاهِيم لَا تقلدني فِي كل مَا أَقُول، وَانْظُر فِي ذَلِك لنَفسك، فإنه دين.**

**وَكَانَ رَضِي الله عَنهُ يَقُول: لَا حجَّة فِي قَول أحدٍ دون رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم، وإن كَثُرُوا، وَلَا فِي قِيَاس، وَلَا فِي شَيْء، وَمَا ثمَّ الا طَاعَة الله وَرَسُوله بِالتَّسْلِيمِ.**

**وَكَانَ الإِمَام أَحْمد رَضِي الله عَنهُ يَقُول: لَيْسَ لأحد مَعَ الله وَرَسُوله كَلَام.**

**وَقَالَ أَيْضا لرجلٍ: لَا تقلدني، وَلَا تقلدن مَالِكًا وَلَا الْأَوْزَاعِيّ وَلَا النَّخعِيّ وَلَا غَيرهم، وَخذ الْأَحْكَام من حَيْثُ أخذُوا؛ من الْكتاب وَالسّنة.]. ([[63]](#footnote-63))**

**\*\*\*\*\*\*\***

**ومن نفيس صناعة البلاغة ما طرحه الزمخشري وأجاب عنه حين تسائل: فإن قلت: لم قيل تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ وقولهم (لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ) أمنية واحدة؟**

**وكان جواب العلامة ابن المنير في حاشيته أروق فقال:**

**والجواب القريب: أنهم لشدة تمنيهم لهذه الأمنية ومعاودتهم لها وتأكدها في نفوسهم جمعت، ليفيد جمعها أنها متأكدة في قلوبهم، بالغة منهم كل مبلغ، والجمع يفيد ذلك وإن كان مؤداه واحداً. ونظيره قولهم: رجل جياع، فجمعوا الصفة ومؤداها واحد، لأن موصوفها واحد تأكيداً لثبوتها وتمكنها. وهذا المعنى أحد ما روى في قوله تعالى: (إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ) فانه جمع قليلا وقد كان الأصل إفراده، فيقال لشرذمة قليلة كقوله تعالى: (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ) لولا ما قصد إليه من تأكيد معنى القلة بجمعها. ووجه إفادة الجمع في مثل هذا للتأكيد أن الجمع يفيد بوضعه الزيادة في الآحاد، فنقل إلى تأكيد الواحد، وإبائه زيادته على نظرائه نقلا مجازيا بديعاً، فتدبر هذا الفصل فانه من نفائس صناعة البيان واللَّه الموفق.**

**قلتُ -متأمله: وللزمخشري وجهٌ حسن قال فيه: أو أريد أمثال تلك الأمنية أمانيهم، يريد أن أمانيهم جميعا في البطلان مثل أمنيتهم هذه. ([[64]](#footnote-64))**

**وهذا القول ناطق بأمنية واحدة ولكنها تتضمن أماني متعددة هي لوازم لها، كنجاتهم من العذاب وكوقوع أعدائهم فيه وحرمانهم من النعيم، ولهذا ذكر الأماني بالجمع ولم يقل: تلك أمنيتهم. ([[65]](#footnote-65))**

**وتأمل كيف جاء التعبير بالإشارة للبعيد(تلك) عدولا عن (هذه) إيماءً إلى استبعاد أمانيهم من كل وجه.**

**\*\*\*\***

**{بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (البقرة: 112)**

**{ بلى}: فيه رَدٌّ لِقَوْلِهِمْ: {لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلا مَن كان هودا او نصارى}، فقيل لهم: بلى يدخلها مّن أسلم وجهه لله كان هودا أو نصارى أو غيرهم، فالنجاة ليست مختصةً بصنف اليهود والنصارى ولكنها مختصة بإسلام الوجه لله والخضوع له تعالى ولأمره.**

**و" بلى" في اللغة جواب إيجابٍ (إقرار = عكس النفى) لاستفهامٍ منفى، والذي يؤكد النفى فيه الجواب ب" نعم". فإن قلتُ لك: أليس زيدٌ راضٍ؟ إن قلتَ: بلى، فهو راضٍ. وإن قلتَ: نعم، فهو ليس براضٍ.**

**وقوله تعالى: {مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ} قال الطبري: يعني بـ "إسلام الوجه": التذلل لطاعته سبحانه والإذعان لأمره. وأصل "الإسلام": الاستسلام، لأنه "من استسلمت لأمره"، وهو الخضوع لأمره. وإنما سمي "المسلم" مسلما بخضوع جوارحه لطاعة ربه.**

**وَالْوَجْهُ هُنَا يَحْتَمِلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ الْجَارِحَةُ خُصَّ بِالذِّكْرِ، لِأَنَّهُ أَشْرَفُ الْأَعْضَاءِ، وأكثرها في آدم حرمة، أَوْ لِأَنَّهُ فِيهِ أَكْثَرُ الْحَوَاسِّ. فإذا خضع لشيء وجهه الذي هو أكرم أجزاء جسده عليه فغيره من أجزاء جسده أحرى أن يكون أخضع له. ولذلك تذكر العرب في منطقها الخبر عن الشيء، فتضيفه إلى "وجهه" وهي تعني بذلك نفس الشيء وعينه، كقول الأعشى:**

**أَؤُوِّل الحكم على وَجهه ... ليس قضائي بالهوى الجائرِ. يعني بقوله: "على وجهه": على ما هو به من صحته وصوابه، وما أشبه ذلك، إذْ كان حسن كل شيء وقبحه في وجهه، وكان في وصف العرب من الشيء وجهه بما تصفه به، إبانةٌ عن عين الشيء ونفسه.**

**وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ الْجِهَةُ، وَالْمَعْنَى: أَخْلَصَ طَرِيقَتَهُ فِي الدِّينِ لِلَّهِ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: أَخْلَصَ دِينَهُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَخْلَصَ عَمَلَهُ لِلَّهِ. وَقِيلَ: قَصْدَهُ. وَقِيلَ: فَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى. وَقِيلَ: خَضَعَ وَتَوَاضَعَ. وَهَذِهِ أَقْوَالٌ مُتَقَارِبَةٌ فِي الْمَعْنَى، وَإِنَّمَا يَقُولُهَا السَّلَفُ عَلَى ضَرْبِ الْمِثَالِ، لَا عَلَى أَنَّهَا مُتَعَيَّنَةٌ يُخَالِفُ بَعْضُهَا بَعْضًا. وَهَذَا مطرد في كثير مما جاء عن السلف في التفسير فتنبه.**

**وأما قوله تعالى: {وهو محسن}، فإنه يعني به: في حال إحسانه. وتأويل الكلام: بلى من أخلص طاعته لله وعبادته له، محسنا في فعله ذلك.**

**قال أبو حيان: {وَهُوَ مُحْسِنٌ}: جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ، وَهِيَ مُؤَكِّدَةٌ لما قبلها مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى، لِأَنَّ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ فَهُوَ مُحْسِنٌ. وَقَدْ قَيَّدَ (الزَّمَخْشَرِيُّ) الْإِحْسَانَ بِالْعَمَلِ، وَجَعَلَ مَعْنَى قَوْلِهِ: {مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ}: مَنْ أَخْلَصَ نَفْسَهُ لَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ غَيْرَهُ، وَهُوَ مُحْسِنٌ فِي عَمَلِهِ، فَصَارَتِ الْحَالُ هُنَا مُبَيِّنَةً، إِذْ مَنْ لَا يُشْرِكُ قِسْمَانِ: مُحْسِنٌ فِي عَمَلِهِ، وَغَيْرُ مُحْسِنٍ، وَذَلِكَ مِنْهُ جُنُوحٌ إِلَى مَذْهَبِهِ الِاعْتِزَالِيِّ مِنْ أَنَّ الْعَمَلَ لَا بُدَّ مِنْهُ، وَأَنَّهُ بِهِمَا يَسْتَوْجِبُ دُخُولَ الْجَنَّةِ، وَلِذَلِكَ فَسَّرَ قَوْلَهُ: {فَلَهُ أَجْرُهُ} الَّذِي يَسْتَوْجِبُهُ. ([[66]](#footnote-66))**

**أقول-متأمله: ولعل الزمخشري أصاب في ناحية وأخطأ في الثانية، إذ أن العمل ركن أساسي من أركان الإيمان، كما اقترن كثيرا في القرآن الإخلاص مع إحسان العمل، كما في اقتران الإيمان بالعمل،**

**[قال سعيد بن جبير: {بلى من أسلم} أخلص، {وجهه} قال: دينه، {وهو محسن} أي: متبع فيه الرسول صلى الله عليه وسلم. فإن للعمل المتقبل شرطين، أحدهما: أن يكون خالصا لله وحده والآخر: أن يكون صوابا موافقا للشريعة. فمتى كان خالصا ولم يكن صوابا لم يتقبل؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد". رواه مسلم من حديث عائشة عنه-عليه السلام.**

**فعمل الرهبان ومن شابههم -وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله-فإنه لا يتقبل منهم، حتى يكون ذلك متابعا للرسول محمد صلى الله عليه وسلم المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، وفيهم وأمثالهم، قال الله تعالى: {وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا} (الفرقان: 23).**

**وأما إن كان العمل موافقا للشريعة في الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله فهو أيضا مردود على فاعله وهذا حال المنافقين والمرائين، كما قال تعالى: {إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا} (النساء: 142). ولهذا قال تعالى: {فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا} (الكهف 110). ([[67]](#footnote-67))**

**وإنما أخطأ الزمخشري أنه وعلى مذهبه أن الثواب يجب على الله في حق من أحسن، وأهل الحق يتأدبون في مثل هذا فيقولون: لا شيء يجب على الله وهو مالك الملك؛ وإنما يتفضل بوعده على من يشاء. وعند الزمخشري في تفسيره الكشاف من نصرةٍ لمذهبه خفيةٍ لا يتنبه لها غير من أتقن علم العقيدة فتنبه.**

**{فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: 112]. والنكتة فيها أنه سبحانه سمى ثوابه أجراً ليربط بين العمل والثواب ويؤكد على قيمة العمل الصالح من الإيمان. وباقي الآية تقدم بيانه في الآية (62 من سورة البقرة) فراجعه مشكورا.**

**\*\*\*\*\***

## ليسوا على شيء جميعا.

**{وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} (البقرة: 113)**

**قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: وَلَمَّا قَدِمَ أَهْلُ نَجْرَانَ مِنْ النَّصَارَى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَتْهُمْ أَحْبَارُ يَهُودَ، فَتَنَازَعُوا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَافِعُ بْنُ حُرَيْمِلَةَ: مَا أَنْتُمْ عَلَى شَيْءٍ، وَكَفَرَ بِعِيسَى وَبِالْإِنْجِيلِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ مِنْ النَّصَارَى لِلْيَهُودِ: مَا أَنْتُمْ عَلَى شَيْءٍ، وَجَحَدَ نُبُوَّةَ مُوسَى وَكَفَرَ بِالتَّوْرَاةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ: {وَقالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارى عَلى شَيْءٍ، وَقالَتِ النَّصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شَيْءٍ}.([[68]](#footnote-68))**

**وقد صدقوا جميعا إذ لا دين بعد البعثة المحمدية إلا دين الإسلام كما كذبوا في الآية السابقة. وقد وضع الناس لغزاً في هذا فقالوا: قومٌ صدقوا ودخلوا النار أي إذا ماتوا على ما عاشوا عليه من عقيدتهم الواهية، وهم اليهود والنصارى في قول هم في هذه الآية. كما يُقال في اخوة يوسف عليهم السلام قوم كذبوا ودخلوا الجنة، لأن فعلتهم مع أخيهم أعقبتها التوبة منهم.**

**وليس مثل الاسلام في صراحته وسعة أفقه، فهو يصدق بالأديان السماوية ويعتبرها، ويؤمن بكتبها الحقيقية قبل أن يطرأ عليها التحريف. ما أعظم قوله تعالى: {آمَنَ الرسول بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ والمؤمنون كُلٌّ آمَنَ بالله وملائكته وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ} (البقرة: 285). هذا هو الاسلام وهذه هي عظمته.**

**وقولهم: {عَلى شَيْءٍ} أي على شيءٍ يصح ويُعتدّ به. وهذه مبالغة منهم في الإنكار على بعضهم البعض، فالشيء يطلق على مطلق الموجود، وقد بالغوا في نفى أقل وجود لما هم عليه. كقول القائل: أقل من لا شيء. وهذا بيانٌ لمدى العداوة بين أهل الباطل ولو اتفقوا ظاهرا على معاداة الحق، كما قال تعالى: {وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} (المائدة: 64)، وكما قال بعضهم: إذا اجتمع عشرة نفر من النصارى خرجوا على إحدى عشرة مذهب.**

**وقوله تعالى: {وهم يتلون الكتاب} جملة حالٍ فيها كثير من التوبيخ لهم، إذ هم بذلك الجهل والعداء وهم يتلون الكتاب بين أيديهم وفيه الحق الذي نبذوه.**

**قال صاحب الكشاف: وحق مَن حمل التوراة أو الإنجيل أو غيرهما من كتب اللَّه وآمن به ألَّا يكفر بالباقي؛ لأن كل واحد من الكتابين مصدّقٌ للثاني شاهد بصحته، وكذلك كتب اللَّه جميعا متواردة على تصديق بعضها بعضا.**

**{كَذلِكَ} أي مثل ذلك الذي سمعت به على ذلك المنهاج {قالَ} الجهلة {الَّذِينَ لا يعلمون} لا علم عندهم ولا كتاب؛ كعبدة الأصنام والمعطلة ونحوهم؛ قالوا لأهل كل دين: ليسوا على شيء. وهذا توبيخ عظيم لهم حيث نظموا أنفسهم مع علمهم في سلك مَن لا يعلم.**

**{فَاللَّهُ يَحْكُمُ بينهم} أى بين اليهود والنصارى {يَوْمَ الْقِيامَةِ} بما يقسم لكل فريق منهم من العقاب الذي استحقه. وعن الحسن: حكم اللَّه بينهم أن يكذبهم ويدخلهم النار. ([[69]](#footnote-69))**

**ومعنى الحكم هنا ليس هو بيان المخطئ من المصيب فالطوائف الثلاث مخطئة. والطوائف الثلاث في إنكارها للإسلام قد خرجت عن إطار الإيمان. ويأتي الحكم يوم القيامة ليبين ذلك ويواجه المخالفين بالعذاب. ([[70]](#footnote-70))**

**توعَّد الفريقين بحكمه بينهم يوم القيامة. وقد أبهم حكمه سبحانه فيما فيه يختلفون جميعه؛ فيدخل فيه كل قول قالوه، وكل ما اعتقدوا.**

**قال الرازي: واعلم أن هذه الواقعة بعينها قد وقعت في أمة محمد -صلى الله عليه وسلم -فإن كل طائفة تكفر الأخرى مع اتفاقهم على تلاوة القرآن. انتهى**

**(فإن قيل: كيف عرض تعالى بتكذيبهم فيما ادعوه، وقد صدق الفريقان على قول المسلمين أنهما كلتيهما على الباطل؟**

**قيل: ليس قول أحد الفريقين بسديدٍ من وجه، إذ قد بتُّوا الحكم وليس ذلك على البت والقطع، فكلا الفريقين في وقتٍ وعلى وجهٍ على حقٍ، على أن القصد بالآية الدلالة على جهلهم وتخبطهم مع تشاركهم في قراءة التوراة دالَّةً على ما اختلفوا فيه، فبيَّن أن كلا الفريقين حائدٌ عن الطريق، وأنهم في الجهل أو التجاهل كالمشركين الذين لا كتاب لهم في دعواهم على أهل الكتابين والمسلمين أنهم ليسوا على شي). ([[71]](#footnote-71))**

**والخلاصة أن في الآيات: ذكر ما ادعاه كل فريقٍ من فرقاء أهل الكتاب أن الجنة من نصيبه لوحده، فأكذب الله الفريقين، وطالبهم بالدليل الصادق على ما ادعوه، وبيَّن سبحانه أن ذلك من قبيل التخرُّص والتمني بغير بيِّنةٍ. فالذين يحوزون رضا الله ويستحقون النجاة والثواب هم أهل التسليم لله تعالى فيما أمر والعمل الصالح على مقتضى شريعته. وفيه تبكيتٌ خفىٌ لمسلكِ أولئك الضالين عن الصراط المستقيم (ويستمر معنا الحديث عن الصراط والناكبين عنه، فتأمل). ثم يرجع القول لسخيف قولهم ويبين هنا مدى تخبطهم في تكفير بعضهم البعض وإنكار عقيدته، مع أنهم أهل كتابٍ جميعا، وفيه تبكيتٌ آخرٌ لمسلك مَن جعل نفسه في سلك الجهال وهو من أهل العلم إذ حذا حذوهم في نبذ الحق. ثم توعدهم سبحانه بالفصل يوم الفصل والنكاية بأهل الكفر والضلال. فتبيّنْ هذا التسلسل والاتساق المنطقي الرائع للكلام يشد بعضه بعضا في تناسقٍ بديعٍ يدرك حلاوته الذين يتدبرون كلام الله تعالى.**

**\*\*\*\***

# {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ...}

**{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (114)}**

**في هذه الآية استطراد بديع بعد ذكر العلاقة المتوترة والعداوة السخيفة بين فريقين من أهل الكتاب وإكفار بعضهم بعضاً، هذا الاستطراد يُلمِح إلى ما وقع بين الفريقين من حروبٍ قامت على أسس هذه العلاقة المتوترة ولم يراعَ لله تعالى فيها حقٌ، ودُمِّرت مساجد الله ومُنع الناس من إعمارها حتى خربت بفعل شياطين الإنس. ثم ينتقل الاستطراد بصيغته العمومية البديعة إلى تقرير حكم عامٍ في كل مَن حَرم الناس من إعمار مساجد الله في أرضه تحت أي مسمىً. فمن سببٍ خاص تُلمح به الآية ولا تصرِّح إلى حكمٍ عظيم من أحكام القرآن يخص إعمار بيوت الله تعالى.**

**(والكلام في أهل الكتاب عامة ومن على شاكلتهم، فقوله - تعالى -: (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها) الآية فيه وجوه: (أحدها): أنه يشير إلى حادثة وقعت بعد المسيح بسبعين سنة، وهي دخول (تيطس الروماني) بيت المقدس وتخريبها حتى صارت المدينة تلا من التراب، وهدمه هيكل سليمان - عليه السلام - حتى لم يبق منه إلا بعض الجدر المدعثرة، وإحراقه ما كان عند اليهود من نسخ التوراة، وكان المسيح - عليه السلام - قد أوعد اليهود بذلك. وقال بعض المفسرين: إن أتباع المسيح هم الذين هيجوا الرومانيين وأغروهم بهذا العمل.**

**قال الأستاذ محمد عبده رحمه الله: ولا أدري هل يصح هذا الخبر أم لا، فإن قائليه لم يأتوا عليه بأدلة ولا بنقول تاريخية، ولكنني أعلم أن المسيحيين على قلتهم وتشتتهم**

**واستخفائهم من اضطهاد اليهود كانوا قد وصلوا إلى (رومية) وكانوا يودون الإيقاع باليهود الذين اضطروهم إلى الخروج من بلادهم انتقاما منهم، وتحقيقا لوعيد المسيح، وأن الرومانيين - وإن كانوا وثنيين يرون أن اليهود ليسوا على شيء - لم تكن حروبهم دينية وإنما كانوا يحاربون اليهود وغيرهم لشغبهم وفتنهم أو للطمع في بلادهم وذلك لا يقضي بهدم المعبد وإحراق كتب الدين، فهذه قرائن ترجح أنه كان للمسيحيين يد في إغارة تيطس، ولكن لا يجزم به إلا إذا وجد نقل تاريخي صحيح يؤيد الخبر.**

**ومن الغريب أن ابن جرير الطبري قال في تفسيره: إن الآية في اتحاد المسيحيين مع (بختنصر البابلي) على تخريب بيت المقدس مع أن حادثة بختنصر كانت قبل وجود المسيح والمسيحية بستمائة وثلاث وثلاثين سنة. ولو لم يكن مؤرخا من أكبر المؤرخين لالتمس له العذر بحمل قوله على حادثة (أدرينال الروماني) الذي جاء بعد المسيح بمائة وثلاثين سنة، وبنى مدينة على أطلال أورشليم وزينها وجعل فيها الحمامات، وبنى هيكلا للمشترى على أطلال هيكل سليمان، وحرم على اليهود دخول هذه المدينة، وجعل جزاء من يدخلها القتل؛ فلذلك كان اليهود يسمونه (بختنصر الثاني) لشدة ما قاسوا من ظلمه واضطهاده. ولكن هذا لا يصح أن يكون عذرا للمؤرخ.**

**(الثاني): ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله -تعالى -: (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) نزل في منع مشركي العرب النبي وأصحابه من دخول مكة في قصة عمرة الحديبية، وقالوا: إن حادثة الرومانيين كانت قد طال عليها الأمد فلا مناسبة لإرادتها بالآية.**

**واعترض على هذا القول بأن مشركي العرب ما سعوا في خراب الكعبة، بل كانوا عمروها في الجاهلية وكانوا يعظمونها ويرونها مناط عزهم ومحل شرفهم وفخرهم.**

**وقال الأستاذ محمد عبده: يصح أن تكون الآية في الأمرين على التوزيع، فالذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه هم مشركو مكة، والذين سعوا في خرابها هم مشركو الرومانيين.**

**ويكون قرن ما عمل المشركون من منع البيت الحرام أن يذكر فيه اسم الله بزيارة النبي وأصحابه بما عمل من قبلهم من مشركي الرومانيين من التخريب من قبيل الإشارة إلى تساوي الفعلين في القبيح.**

**(الثالث): أن الكلام في أهل الكتاب، وأن الآية ليست منبئة بأمر وقع،**

**ولكن بأمر سيقع، وهو ما كان بعد ذلك من إغارة الصليبيين على بيت المقدس وغيره من بلاد المسلمين وصدهم إياهم عن المسجد الأقصى، وتخريبهم كثيرا من المساجد.**

**(الرابع): وهو مبني أيضا على أن الآية منبئة عن أمر سيقع وأن المراد بها حادثة (القرامطة) الذين هدموا الكعبة ومنعوا المسلمين منها، وهدموا كثيرا من المساجد، كأنه بعد أن ذكر حال أهل الكتاب في طعن اليهود منهم بالنصارى وقولهم فيهم: إنهم ليسوا على شيء من الدين، وطعن النصارى في اليهود كذلك، وبعد قوله في المشركين الذين لا يعلمون الكتاب: إنهم قالوا مثل قولهم، لم يبق إلا ما سيقع للمسلمين وفي المسلمين، فأنبأ الله - تعالى - بهذه الحادثة من الإخبار بالغيب فوقعت، وكانت حادثتهم من أكبر الأحداث في المسلمين، فإنهم استولوا على جزء كبير من ممالك الإسلام وهدموا المساجد، وعاثوا في الأرض فسادا ولم يكن في أيام الحروب الصليبية على طولها من الصد عن ذكر الله وعن الصلاة مثلما كان على عهد (القرامطة) فالآيات على هذا مبينة لأحوال جميع الملل.). انتهى كلام صاحب المنار.([[72]](#footnote-72))**

**وأخرج ابن أبي حاتم أن قريشا منعوا النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام، فأنزل الله تعالى: "ومَن أظلم ..." الآية، ورجحه ابن كثير في تفسيره.**

**وأخرج ابن كثير، وأخرج ابن جرير عن أبي زيد قال: هؤلاء المشركون -حين حالوا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحدييبة وبين أن يدخل مكة.**

**قال ابن جرير: وأولى التأويلات قول من قال: عنى الله عز وجل بقوله "ومن أظلم ..." النصارى. وقال: إن النصارى هم الذين سعوا في خراب بيت المقدس بدليل أن مشركي العرب لم يسعوا في خراب المسجد الحرام وإن كانوا قد منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأوقات من الصلاة فيه. وأيضاً الآية التي قبل هذه والتي بعدها في ذم أهل الكتاب، ولم يجر لمشركي مكة ذكر، ولا للمسجد الحرام، فتعين أن يكون المراد بهذه بيت المقدس.**

**وقال الرازي: وعندي فيه وجهٌ وهو أقرب إلى رعاية النظم. وهو أنه لما حولت القبلة إلى الكعبة شق ذلك على اليهود فكانوا يمنعون الناس عن الصلاة إلى الكعبة، ولعلهم سعوا أيضاً في تخريب الكعبة وفي تخريب مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم.**

**وقال الطبري: وإن كان قد دل بعموم قوله: {ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه}، أن كلَّ مانعٍ مصلياً في مسجدٍ لله، فرضا كانت صلاته فيه أو تطوعا-، وكل ساعٍ في إخرابه فهو من المعتدين الظالمين.**

**وقال الزمخشري رحمه الله: لا بأس أن يجيء الحكم عاما وإن كان السبب خاصا، كما تقول لمن آذى صالحا واحداً: ولا أظلم ممن آذى الصالحين. وكما قال اللَّه عز وجل: {وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ} والمنزول فيه الأخنس بن شريق.**

**قلتُ -متأمله: وهذا هو الصواب فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ويدخل فيه السبب الخاص دخولاً أولياً.**

**وقد رجح ابن العربي رحمه الله: أَنَّ ذلك في كُلِّ مَسْجِدٍ؛ وَهُوَ الصَّحِيحُ؛ لِأَنَّ اللَّفْظَ عَامٌّ وَرَدَ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ؛ فَتَخْصِيصُهُ بِبَعْضِ الْمَسَاجِدِ أَوْ بَعْضِ الْأَزْمِنَةِ مُحَالٌ.**

**قال: وفَائِدَةُ هَذِهِ الْآيَةِ تَعْظِيمُ أَمْرِ الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا لَمَّا كَانَتْ أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ وَأَعْظَمَهَا أَجْرًا كَانَ مَنْعُهَا أَعْظَمَ إثْمًا، وَإِخْرَابُ الْمَسَاجِدِ تَعْطِيلٌ لَهَا وَقَطْعٌ بِالْمُسْلِمِينَ فِي إظْهَارِ شَعَائِرِهِمْ وَتَأْلِيفِ كَلِمَتِهِمْ. ([[73]](#footnote-73))**

**\*\*\*\***

**{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ} هذا الاستفهام فيه أبلغ دلالة على أن هذا الظلم غير متناهٍ، وأنه بمنزلة لا ينبغي أن يلحقه سائر أنواع الظلم. أي لا أحد أظلم ممن يمنع مساجد الله أي من يأتي إليها للصلاة والتلاوة والذكر وتعليمه. وهو استفهام غرضه البلاغي الإنكار الشديد والاستنكار. وليس غرضه حصر أقصى الظلم في هذا فقط، فقد وردت الآيات بأنواع كثيرة من الفسوق هى من أظلم الظلم وهذا أحدها في بابه كما قال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ} [البقرة: 140]، وقال: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} [الأنعام: 21]، وقال: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ} [الكهف: 57]. فكل ذلك وما شاكله في التنزيل من أظلم الظلم ولا تعارض.**

**وقَوْله تَعَالَى: {مَسَاجِدَ اللَّهِ} [البقرة: 114] يَقْتَضِي أَنَّهَا لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ عَامَّةً، الَّذِينَ يُعَظِّمُونَ اللَّهَ تَعَالَى، وَذَلِكَ حُكْمُهَا بِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ؛ عَلَى أَنَّ الْبُقْعَةَ إذَا عُيِّنَتْ لِلصَّلَاةِ خَرَجَتْ عَنْ جُمْلَةِ الْأَمْلَاكِ الْمُخْتَصَّةِ بِمالكها، فَصَارَتْ عَامَّةً لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ بِمَنْفَعَتِهَا وَمَسْجِدِيَّتِهَا، فَلَوْ بَنَى الرَّجُلُ فِي دَارِهٍ مَسْجِدًا وَحَجَزَهُ عَنْ النَّاسِ، وَاخْتَصَّ بِهِ لِنَفْسِهِ لَبَقِيَ عَلَى مِلْكِهِ، وَلَمْ يَخْرُجْ إلَى حَدِّ الْمَسْجِدِيَّةِ، وَلَوْ أَبَاحَهُ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ لَكَانَ حُكْمُهُ حُكْمَ سَائِرِ الْمَسَاجِدِ الْعَامَّةِ، وَخَرَجَ عَنْ اخْتِصَاصِ الْأَمْلَاكِ. ([[74]](#footnote-74))**

**\*\*\*\***

**وقوله تعالى: {وسعى في خرابها} قال أبو البقاء: الخراب اسم مصدر بمعنى التخريب، وقال غيره: هو مصدر خرِب المكان يخرِب خراباً، وهو هنا السعي في هدمها ورفع بنيانها، ويجوز أن يراد بالخراب تعطيلها عن الطاعات التي وضعت لها فيكون أعم من تخصيصه بقوله تعالى بقوله {أن يذكر فيها اسمه} فيشمل جميع ما يمنع من الأمور التي بُنيت لها المساجد لتعلم العلم وتعليمه والقعود للاعتكاف وانتظار الصلاة، ويجوز أن يراد ما هو أعم من الأمرين من باب عموم المجاز كما في قوله تعالى {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ} [التوبة: 18]. والعمارة التي هي ضد تخريب بيوت الله هى إحياء المكان وشغله بما وضع له. وليس المراد بعمارته. زخرفته وإقامة صورته فقط، إنّما عمارته بذكر الله فيه وإقامة شرعه فيه ورفعه عن الدنس والشرك.**

**قال العلامة الرازي ([[75]](#footnote-75)):**

**فإذا كان الساعي في تخريبه في أعظم درجات الفسق وجب أن يكون الساعي في عمارته في أعظم درجات الإيمان. وأما الأخبار،**

**فأحدها: ما روى الشيخان في صحيحيهما أن عثمان بن عفان رضي الله عنه أراد بناء المسجد فكره الناس ذلك وأحبوا أن يدعه، فقال عثمان رضي الله عنه: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «من بنى لله مسجدا بنى الله له كهيئته في الجنة». وفي رواية أخرى: «بنى الله له بيتا في الجنة».**

**وثانيها: ما روى أبو هريرة أنه عليه الصلاة والسلام قال: «أحب البلاد إلى الله تعالى مساجدها وأبغض البلاد إلى الله أسواقها»، واعلم أن هذا الخبر تنبيه على ما هو السر العقلي في تعظيم المساجد وبيانه أن الأمكنة والأزمنة إنما تتشرف بذكر الله تعالى، فإذا كان المسجد مكانا لذكر الله تعالى حتى إن الغافل عن ذكر الله إذا دخل المسجد اشتغل بذكر الله والسوق على الضد من ذلك، لأنه موضع البيع والشراء والإقبال على الدنيا وذلك مما يورث الغفلة عن الله، والإعراض عن التفكر في سبيل الله، حتى إن ذاكر الله إذا دخل السوق فإنه يصير غافلا عن ذكر الله لا جرم كانت المساجد أشرف المواضع والأسواق أخس المواضع.**

**وفي فضل المشي إلى المساجد. جاءت الأخبار مستفيضة فمن ذلك:-**

**(أ) عن أبي هريرة قال: قال عليه الصلاة والسلام: «من تطهر في بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله كانت خطواته إحداها تحط خطيئته والأخرى ترفع درجته»، رواه مسلم.**

**(ب) أبو هريرة قال: قال عليه الصلاة والسلام: «من غدا أو راح إلى المسجد أعد الله له في الجنة منزلا كلما غدا أو راح» أخرجاه في الصحيح.**

**(ج) وعن أبي بن كعب قال: كان رجل ما أعلم أحدا من أهل المدينة ممن يصلي إلى القبلة أبعد منزلا منه من المسجد وكان لا تخطئه الصلوات مع لرسول عليه السلام، فقيل له: لو اشتريت حمارا لتركبه في الرمضاء والظلماء، فقال: والله ما أحب أن منزلي بلزق المسجد، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فسأله فقال: يا رسول الله كيما يكتب أثري وخطاي ورجوعي إلى أهلي وإقبالي وإدباري، فقال عليه الصلاة والسلام: «لك ما احتسبت أجمع» أخرجه مسلم.**

**(د) وعن جابر قال: خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا إلى قرب المسجد فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم: «إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا إلى قرب المسجد، فقالوا: نعم قد أردنا ذلك قال يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم». رواه مسلم.**

**وعن أبي سعيد الخدري أن هذه الآية نزلت في حقهم: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ} [يس: 12].**

**(هـ) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن أعظم الناس أجرا في الصلاة أبعدهم إلى المسجد مشيا والذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام في جماعة أعظم أجرا ممن يصليها ثم ينام» أخرجاه في الصحيح. انتهى.**

**\*\*\*\***

**وقَوْله تَعَالَى: {أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلا خَائِفِينَ} [البقرة: 114]**

**يَعْنِي إذَا اسْتَوْلَى عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ، وَحَصَلَتْ تَحْتَ سُلْطَانِهِمْ فَلَا يَتَمَكَّنُ الْكَافِرُ حِينَئِذٍ مِنْ دُخُولِهَا يَعْنِي إنْ دَخَلُوهَا فَعَلَى خَوْفٍ مِنْ إخْرَاجِ الْمُسْلِمِينَ لَهُمْ مِنْهَا وَأَذِيَّتِهِمْ عَلَى دُخُولِهَا؛ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ لِلْكَافِرِ دُخُولُ الْمَسْجِدِ بِحَالٍ، وَسَيَأْتِي ذَلِكَ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. ([[76]](#footnote-76))**

**\*\*\*\***

**{لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم} فأما خزي الدنيا فهو ما يعقبه الظلم من فساد العمران، المفضي إلى الذل والهوان، وناهيك بظلم يحل القيود ويهدم الحدود، ويغري الناس بالفواحش والمنكرات، ويسهل عليهم سبل الشرور والموبقات، وهو ظلم إبطال العبادة من المساجد، والسعي في خراب المعابد، إذا وقع هذا الظلم كان الحاكم الظالم مخذولا في حكمه، والفاتح الظالم غير أمين في فتحه، وإذا أردت**

**تطبيق ذلك على من نسب إليهم هذا الظلم فانظر ماذا حل بالرومانيين، وماذا كانت عاقبة العرب المشركين، وبماذا انتهى عدوان الصليبيين، وكيف انقرض حزب القرامطة المجرمين، وأما عذاب الآخرة فالله أعلم به، ونحن بوعده ووعيده من المؤمنين. ([[77]](#footnote-77))**

**\*\*\***

# {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ}

**قال تعالى: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: 115]**

**هنا وبعد الانتقال من ذكر انحرافات أهل الكتاب وامانيهم الباطلة وتنابذهم بالكفر والعدوان انتقلت الآيات إلى هديةٍ من الله وجائزةٍ لهؤلاء الذين أسلموا وجههم لله تعالى على التصديق والطاعة والتزام شرع الله. تلك الهدية في التوسعة عليهم في دينهم الحق الذي ارتضى لهم. فمن علم الله تعالى بنا ورحمته خفَّف علينا ووسَّع، فجعل الأرض كلها لمحمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه مسجدا وطهوراً وخفف عليهم في أمر قبلتهم حال الضرورة. وهنا تأتي هذه الآية العظيمة جائزةً للمؤمنين.**

**قال القرطبي في أحكامه ما مختصره: اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمَعْنَى الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ هذه الآية عَلَى أَقْوَالٍ:**

**القول الأول: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ: نَزَلَتْ فِيمَنْ صَلَّى إِلَى غير القبلة في ليلةٍ مظلمةٍ (أو غيم)، أخرجه التِّرْمِذِيُّ عَنْهُ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ فَلَمْ نَدْرِ أَيْنَ الْقِبْلَةُ، فَصَلَّى كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا عَلَى حِيَالِهِ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا ذَكَرْنَا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَزَلَتْ:" فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ". قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ لَيْسَ إِسْنَادُهُ بِذَاكَ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ أَشْعَثَ السَّمَّانِ، وَأَشْعَثُ بْنُ سَعِيدٍ أَبُو الرَّبِيعِ يُضَعَّفُ فِي الْحَدِيثِ. (وقد حسنه الشيخ الألباني في صحيح ابن ماجة (1020)**

**قال الترمذي: وَقَدْ ذَهَبَ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى هَذَا، قَالُوا: إِذَا صَلَّى فِي الْغَيْمِ لِغَيْرِ الْقِبْلَةِ ثُمَّ اسْتَبَانَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ صَلَّى لِغَيْرِ الْقِبْلَةِ فَإِنَّ صَلَاتَهُ جَائِزَةٌ، وَبِهِ يَقُولُ سُفْيَانُ وَابْنُ الْمُبَارَكِ وَأَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ.**

**قُلْتُ (القرطبي): وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ، غَيْرَ أَنَّ مَالِكًا قَالَ: تُسْتَحَبُّ لَهُ الْإِعَادَةُ فِي الْوَقْتِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِوَاجِبٍ عَلَيْهِ.**

**وَقَالَ الْمُغِيرَةُ وَالشَّافِعِيُّ: لَا يَجْزِيهِ، لِأَنَّ الْقِبْلَةَ شَرْطٌ مِنْ شُرُوطِ الصَّلَاةِ. وَمَا قَالَهُ مَالِكٌ أَصَحُّ، لِأَنَّ جِهَةَ الْقِبْلَةِ تُبِيحُ الضَّرُورَةُ تَرْكَهَا فِي الْمُسَايَفَةِ، وَتُبِيحُهَا أَيْضًا الرُّخْصَةُ حَالَةَ السَّفَرِ.**

**وَالقول الثاني: قَالَ ابْنُ عُمَرَ: نَزَلَتْ فِي الْمُسَافِرِ يَتَنَفَّلُ حَيْثُمَا تَوَجَّهَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ. أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي وَهُوَ مُقْبِلٌ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ عَلَى رَاحِلَتِهِ حَيْثُ كَانَ وَجْهُهُ، قَالَ: وَفِيهِ نَزَلَتْ" فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ". وَلَا خِلَافَ بَيْنِ الْعُلَمَاءِ فِي جَوَازِ النَّافِلَةِ عَلَى الرَّاحِلَةِ لِهَذَا الْحَدِيثِ وَمَا كَانَ مِثْلُهُ. وَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَدَعَ الْقِبْلَةَ عَامِدًا بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ إِلَّا فِي شِدَّةِ الْخَوْفِ، عَلَى مَا يَأْتِي.**

**والقول الثَّالِثُ: قَالَ قَتَادَةُ: نَزَلَتْ فِي النَّجَاشِيِّ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا مَاتَ دَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الصَّلَاةِ عَلَيْهِ خَارِجَ الْمَدِينَةِ، فَقَالُوا: كَيْفَ نُصَلِّي عَلَى رَجُلٍ مَاتَ؟ وَهُوَ يُصَلِّي لِغَيْرِ قِبْلَتِنَا، وَكَانَ النَّجَاشِيُّ مَلِكُ الْحَبَشَةِ-وَاسْمُهُ أَصْحَمَةُ وَهُوَ بِالْعَرَبِيَّةِ عَطِيَّةُ-يُصَلِّي إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ حَتَّى مَاتَ، وَقَدْ صُرِفَتِ الْقِبْلَةُ إِلَى الْكَعْبَةِ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ، وَنَزَلَ فِيهِ قوله تعالى:" وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ "، فَكَانَ هَذَا عُذْرًا لِلنَّجَاشِيِّ، وَكَانَتْ صَلَاةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَصْحَابِهِ سَنَةَ تِسْعٍ مِنَ الْهِجْرَةِ. وَقَدِ اسْتَدَلَّ بِهَذَا مَنْ أَجَازَ الصَّلَاةَ عَلَى الْغَائِبِ، وَهُوَ الشَّافِعِيُّ.**

**الْقَوْلُ الرَّابِعُ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: كَانَتِ الْيَهُودُ قَدِ اسْتَحْسَنَتْ صَلَاةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَقَالُوا: مَا اهْتَدَى إِلَّا بِنَا، فَلَمَّا حُوِّلَ إِلَى الْكَعْبَةِ قَالَتِ الْيَهُودُ: مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، فَنَزَلَتْ:" وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ" فَوَجْهُ النَّظْمِ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ: أَنَّ الْيَهُودَ لَمَّا أَنْكَرُوا أَمْرَ الْقِبْلَةِ بَيَّنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّ لَهُ أَنْ يَتَعَبَّدَ عِبَادُهُ بِمَا شَاءَ، فَإِنْ شَاءَ أَمَرَهُمْ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَإِنْ شَاءَ أَمَرَهُمْ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْكَعْبَةِ، فِعْلٌ لَا حُجَّةَ عليه، ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون.**

**القول الخامس-أن الآية منسوخة بقوله:" وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ " ذَكَرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، فَكَأَنَّهُ كَانَ يُجَوِّزُ فِي الِابْتِدَاءِ أَنْ يُصَلِّيَ الْمَرْءُ كَيْفَ شَاءَ ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: النَّاسِخُ قَوْلُهُ تَعَالَى:" فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ" أَيْ تِلْقَاءَهُ، حَكَاهُ أَبُو عِيسَى الترمذي.**

**وقول سادس-رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَالضَّحَّاكِ أَنَّهَا مُحْكَمَةٌ، الْمَعْنَى: أَيْنَمَا كُنْتُمْ مِنْ شَرْقٍ وَغَرْبٍ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ الَّذِي أَمَرَنَا بِاسْتِقْبَالِهِ وَهُوَ الْكَعْبَةُ.**

**السابع: وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَيْضًا وَابْنِ جُبَيْرٍ لَمَّا نَزَلَتْ:" ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ" قَالُوا: إِلَى أَيْنَ؟ فَنَزَلَتْ:" فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ".**

**والثامن: وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ وَالنَّخَعِيِّ: أَيْنَمَا تُوَلُّوا فِي أَسْفَارِكُمْ وَمُنْصَرِفَاتكُمْ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ.**

**وَالتاسع: قِيلَ: هِيَ مُتَّصِلَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:" وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ" الْآيَةَ، فَالْمَعْنَى أَنَّ بِلَادَ لله أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ تَسَعُكُمْ، فَلَا يَمْنَعُكُمْ تَخْرِيبُ مَنْ خَرَّبَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ نَحْوَ قِبْلَةِ اللَّهِ أَيْنَمَا كُنْتُمْ مِنْ أَرْضِهِ.**

**وَالعاشر: قِيلَ: نَزَلَتْ حِينَ صُدَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْبَيْتِ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ فَاغْتَمَّ الْمُسْلِمُونَ لِذَلِكَ. فَهَذِهِ عَشَرَةُ أَقْوَالٍ.**

**قال القرطبي: وَمَنْ جَعَلَهَا مَنْسُوخَةً فَلَا اعْتِرَاضَ عَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ كَوْنِهَا خَبَرًا، لِأَنَّهَا مُحْتَمِلَةٌ لِمَعْنَى الْأَمْرِ. يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى" فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ": وَلُّوا وُجُوهكُمْ نَحْوَ وَجْهِ اللَّهِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ هِيَ الَّتِي تَلَا سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ لَمَّا أَمَرَ الْحَجَّاجُ بِذَبْحِهِ إِلَى الْأَرْضِ. ([[78]](#footnote-78))**

**قلتُ-جامعه: رحم الله شيخنا القرطبي فقد استقصى ونفع، وإن كان جعلها منسوخةً يبعد، وذلك من جهة أنها خبرٌ بالتخفيف ولا معارضة بينها وبين أصل التوجه إلى القبلة فهى مخصوصة بحال الخوف أو السفر أو عدم تبيُّن القبلة على ما تقدم. ولا تعارض بين الجميع.**

**والخلاصة أن الآية متسقة مع ما قبلها وفيها تخفيف من الله ورحمة. أما ما كثَّر به العلماء في تفاسيرهم من الاستطراد إلى مباحثٍ في فقه القبلة والصلاة عموما فليس بغرض النص ههنا.**

**قال ابن كثير رحمه الله: وهذا -والله أعلم-فيه تسليةٌ للرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين أخرجوا من مكة وفارقوا مسجدهم ومصلاهم، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه. فلما قدم المدينة وجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا، أو سبعة عشر شهرا، ثم صرفه الله إلى الكعبة بعد، ولهذا يقول تعالى: {ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله} انتهى ([[79]](#footnote-79))**

**قال العلامة الرازي: فإن قيل: فأي هذه الأقاويل أقرب إلى الصواب. قلنا: إن قوله: فأينما تولوا فثم وجه الله مشعر بالتخيير والتخيير لا يثبت إلا في صورتين أحدهما: في التطوع على الراحلة. وثانيهما: في السفر عند تعذر الاجتهاد للظلمة أو لغيرها، لأن في هذين الوجهين المصلي مخير فأما على غير هذين الوجهين فلا تخيير.**

**ثم قال: إن فسرنا الآية بأنها تدل على تجويز التوجه إلى أي جهة أريد، فالآية منسوخة وإن فسرناها بأنها تدل على نسخ القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة فالآية ناسخة، وإن فسرناها بسائر الوجوه فهي لا ناسخة ولا منسوخة. ([[80]](#footnote-80))**

**\*\*\*\***

**أما عن تفصيل تفسير الآية: {ولله المشرق والمغرب} يطلق المشرق والمغرب على ناحيتىْ الأرض (شرقها وغربها)، كما يطلق على مطلع الشمس ومغربها، اللام في قوله تعالى: {ولله} لام الاختصاص، والواو للابتداء. والمعنى أن ملك الشرق والغرب ومطلع الشمس ومغربها وما بينهما لله وحده لا شريك له في خلقه وتدبيره.**

**وقد أفرد هنا المشرق والمغرب، ثم ثناَّهما في قوله تعالى: {رب المشرقين ورب المغربين} (الرحمن: 17)، وجمع في قوله: {فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ} (المعارج: 40).**

**وهذا دأب القرآن في حكمة تصريفاته، فحين عنى الجهة في المطلع والمغيب أفرد اللفظ.**

**وحين أشار إلى مشرق الشمس ومغربها في الشتاء، ومشرقها ومغربها في الصيف ثنَّاهما {المشرقين والمغربين} مع ملائمة خطاب الثقلين الممتد في سورة الرحمن كما في قوله: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}. وأما قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ} (38 الزخرف) أى قال أحد هذين القرينين لصاحبه الآخر: وددت أن بيني وبينك بُعد المشرقين: أى بعد ما بين المشرق والمغرب، فغلَّب اسم أحدهما على الآخر، كما قيل: شبه القمرين، وكما قال الشاعر الفرذدق:**

**أخَذْنا بآفاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمُ ... لنَا قَمَرَاهَا والنُّجُومُ الطَّوَالِعُ.**

**فإذا قال سبحانه: {المشارق والمغارب} فمشرق كل يوم ومغرب كل يوم، حيث لا يتشابه يوم ويوم في مشرقه ومغربه زمانا، أو عنى مشرق كل مكانٍ ومغربه.**

**\*\*\*\***

**{فأينما} اسم شرط للمكان، و(ما) زائدة للصلة، و(تُوَلُّوا) مضارع مجزوم بـ (أيْنَمَا)، والجوإبُ (فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) اقترن بالفاء لأنه جملة إسمية، وعلامة الجزم في (تُوَلُّوا) سقوط النون. و(ثَمَّ) موضع نصب على الظرفية بمعنى (هناك) ولكن مبني على الفتح. هذا من حيث النحو والإعراب. ([[81]](#footnote-81))**

**وقد جرى التنويه آنفا على وجوهٍ من اختلافهم في سبب نزول الآية: -**

**فربما كان المعنى: أنه لما أخبر بمنع المخربين المؤمنين من عمارة مساجدهم، سلَّاهم سبحانه وأعلمهم أن لله ملك المشرق والمغرب وما بينهما، فهو الخالق والمدبر سبحانه فحيثما توجهتم بعملكم وطاعتكم فالله سبحانه حاضر بعلمه وسمعه وبصره رقيبٌ مجيبٌ يلقاكم بثوابه. فأخبر تعالى -كما قال الحرالي- بإضافة جوامع الآفاق إليه إعلاماً بأن الوجهة لوجهه لا للجهة، كما قال سبحانه في غير هذه الآية {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: 7]، وهذا عندي أقوى الوجوه لاتصاله بالسياق قبله، وعلى هذا المعنى فالآية خبرٌ محض لا يدخله نسخ ولا تخصيص.**

**وربما قيل: الآية تمهيدٌ وتوطئةٌ للإذن للمسلمين بتحويل القبلة أو رد لما عساه أن يشبِّه ويلبِّس على الناس في أمرها، فكأنه يعني: أن لله المشرق والمغرب فأينما تكون القبلة سواء إلى بيت المقدس أو إلى الكعبة فإن ذلك لله وبأمره، وهو سبحانه بعلمه لا يحده زمان ولا مكان، كما قال تعالى في غير هذه الآية {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة: 142]، وعلى هذا أيضا فالآية محكمة لا نسخ فيها.**

**وربما قيل: فإذا غُمَّ على أحدكم أمر القبلة واشتبه في غيمٍ أو غيره، فليجتهد في تحري القبلة، فإن أخطأ فلا إثم عليه إذ أن كل الجهات شرقا وغربا وما بينهما هي خلق الله وتحت سمعه وبصره {فلله المشرق والمغرب} وقوله {إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} يدل على تَوْسيعه سبحانه على الناس في شيءِ رُخِّص لهم به؛ كما قال الزجاج رحمه الله. فالآية على هذا من باب الرخص وهى مخصوصة من آية القبلة {فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام}، فلا نسخ. وإن صح سبب نزولها في اشتباه القبلة على بعض صحب رسول الله، فهو سبب خاص والآية عامة والقاعدة: أن عموم اللفظ مقدم على خصوص السبب ويدخل فيه السبب دخولا أولياً...وفيه من الله توسعةٌ وفقهٌ عظيما لقومٍ يعلمون!**

**وقال قتادة وغيره: " هذا منسوخ، وذلك أن الله تعالى أباح لهم أولاً التوجه حيث شاءوا، وأخبرهم أنه أينما تولوا وجوهكم فثمَّ وجه الله، لأن له المشارق والمغارب، ثُمَّ نسخ ذلك بقوله: {فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام}. والقول بالنسخ هنا لابد له من نقلٍ صريحٍ يصح، ومعرفة أي الخبرين أسبق وأيهما المتأخر، وكذلك عدم إمكانية الجمع بين الآيتين من كل وجه، وكذلك رفع احتمالية أن يكون الخبر محضا لا إنشاء في معناه تماما إذ الأخبار المحضة لا نسخ فيها. فلذلك تصعب جدا دعوى النسخ ههنا وإن احتُملت، كما أن النسخ يرفع العمل بالنص المنسوخ تماما، وهو ممتنع ههنا إذ العمل بهذه الرخصة قائم حال الغيم وظرف التباس القبلة أو عدم معرفتها، أو على الراحلة في صلاة التطوع حيث لا يلزم التوجه للقبلة، وتلك الحالات مروىٌ العمل بالآية فيها بالأسانيد الصحاح عن رسول صلى الله عليه وسلم.**

**وقال ابن عمر: " الآية نزلت في التطوع، وكان يصلي حيثما توجهت به الراحلة ويقول: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ الله} ".**

**وقيل: " نزلت في قوم عُمِّيَت (التبست) عليهم القبلة، فصلوا إلى جهات مختلفة، فأُعلموا أن صلاتهم ماضية " صحيحة، وإليه ذهب ابن عباس وجماعة.**

**ورأيت في الآية قولا حسنا: إذ لما جرى سياق الآيات قبلها يذكر ظلم من تعدى على مساجد الله ومنع المؤمنين من إعمارها، جاءت الرخصة والاختصاص بالنعمة من الله لعباده أن جعل لهم الأرض مسجدا وطهورا كما قال رسول الله فيما صح عنه، فأينما صلى المؤمنون، واستقبلوا القبلة التي أمرهم الله في أى مكانٍ {فثَمَّ وجه الله} حاضرٌ شاهدٌ وهو (الواسع العليم) يسع علمه وقدرته وبصره وسمعه السماوات والأرض، ويسع فضله وتيسيره الخلق كلهم. وفي هذا يقول صاحب الكشاف: يعنى بلاد المشرق والمغرب والأرض كلها للَّه هو مالكها ومتوليها، ففي أى مكان تولون وجوهكم شطر القبلة بدليل قوله تعالى: {فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ، وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ}. فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ أى جهته التي أمر بها ورضيها. والمعنى أنكم إذا مُنِعتم أن تصلوا في المسجد الحرام أو في بيت المقدس، فقد جعلت لكم الأرض مسجداً فصلوا في أى بقعةٍ شئتم من بقاعها، فإن التولية ممكنة في كل مكان لا يختص إسكانها في مسجدٍ دون مسجد، ولا في مكان دون مكان. إِنَّ اللَّهَ واسِع الرحمة يريد التوسعة على عباده والتيسير عليهم {عَلِيمٌ} بمصالحهم. ([[82]](#footnote-82))**

**قلتُ: وهذا القول يجمع في العمل بين الآيتين، (وإذا أمكن الجمع بين الآيتين بطلت دعوى النسخ)، ولعل هذه قاعدة جليلة في التفسير، لأن إبطال العمل بآيةٍ من كتاب أمرٌ خطيرٌ لا يصح بغير يقين.**

**والخلاصة أن الآية خبرٌ من الله تعالى ينبأ بحقيقة الأعمال وأن لبها وروحها الإخلاص، فليس العبرة بالاتجاه أو بعمل الأجسام دون عمل القلب واتجاهه إلى الله تعالى العليم المحيط، وفيه توسعةٌ من الله على خلقه وفقهٌ عظيم لقومٍ يتدبرون. ولعل هذه المعاني كلها يلخصها ختام الآية {إن الله واسع عليم}، واتساقها مع دلالات الآية التي رجحناها.**

**ولا أفوِّت هذه الفرصة دون التنبيه إلى ضابط هام من ضوابط فهم النص القرآني كوحدة واحدة حيث تجئ فواصل الآيات متسقة مع دلالات متونها، بحيث تكون بذاتها أداة توجيه للمعاني وترجيح. ويصاحب ذلك؛ أي أدوات الترجيح في فهم النص النظر في سبب النزول – إن وُجد-والسياق سباقاً ولحاقاً، وسياق الخطاب القرآني في الآيات وتقلباته مع الدلالة. وقد بحثتُ ذلك كله وأكثر بمزيد استفاضة في دراسةٍ عن ضوابط فهم النص القرآني.**

# فصل: في تأويل " وجه الله" في الآية.

**اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي تَأْوِيلِ الْوَجْهِ الْمُضَافِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، فهذه الصفة من الصفات الخبرية الإضافية؛ أي فيها إخبار عن الله تعالى بإضافة الوجه له سبحانه كما يليق بجلاله {ليس كمثله شيء} وعلى هذا النحو يثبتها السلف وأهل الحق، (إذ مذهب السلف والأئمة؛ أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل. قال نعيم بن حماد الخزاعي: من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، فليس ما وصف الله به نفسه ورسوله تشبيهًا.**

**وكان السلف والأئمة، يعلمون أن مرض التعطيل، أعظم من مرض التشبيه، كما يقال: المعطل أعمى، والمشبه أعشى، والمعطل يعبد عدمًا، والمشبه يعبد صنمًا.**

**فكان كلامهم وذمهم للجهمية المعطلة أعظم من كلامهم وذمهم للمشبهة الممثلة، مع ذمهم لكلا الطائفتين). ([[83]](#footnote-83))**

**فكان اعتقاد السلف أسلم وأعلم إذ علموا ما أثبته الله لنفسه وما أثبته على لسان رسولهن فآمنوا به، دون خوضٍ فيما لا تدركه عقولهم فسلموا.**

**وَمن ذلك قَوْلُهُ تعالى: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن: 27]. وقوله: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلَّا وَجْهَهُ} [القصص: 88]. ومن ذلك المروى عن جابر بن عبد الله، يقول: لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم: {قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم} (الأنعام: 65) قال: «أعوذ بوجهك». {أو من تحت أرجلكم} (الأنعام: 65). قال: «أعوذ بوجهك». {أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض} (الأنعام: 659). قال «هاتان أهون وأيسر». رواه البخاري في الصحيح. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب: آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن ". رواه البخاري ومسلم في الصحيح. قال البيهقي: قوله: «رداء الكبرياء». يريد به صفة الكبرياء. فهو بكبريائه وعظمته لا يريد أن يراه أحد من خلقه بعد رؤية يوم القيامة، حتى يأذن لهم بدخول جنة عدن، فإذا دخلوها أراد أن يروه فيروه وهم في جنة عدن، والله أعلم.... إلى غير ذلك من الأحاديث راجع فيها الإمام البيهقي في الأسماء والصفات. ([[84]](#footnote-84))**

**هذه القاعدة فيما ورد من أسماء الله وصفاته العلى على العموم. أما الآية التي نحن بصددها فليست بموضعها وسياقها من آيات الصفات في شيء. و{وَجْهُ اللَّهِ} في هذه الآية: معناه: قبلته التي رضيها لنا سبحانه ووجَّهنا إليها، كما تقولُ: سافَرْتُ في وجه كذا، أي: في جهة كذا. ويتجه في بعض المواضِعِ من القرآن كهذه الآية أن يراد بالوجْهِ الجِهَةُ الَّتي فيها رضَاهُ، وعلَيْها ثوابُه كما تقول تصدَّقت لوجْهِ اللَّهِ، ويتَّجه في هذه الآية خاصَّةً أن يراد بالوجه الجهةُ الَّتي وجهنا إليها في القبلة. وهذه النكتة واللطيفة في الآية، فتأمل.**

**وأنقل عن شيخ الإسلام ههنا بحثا بديعا يقول فيه: [فَتَدَبَّرْ هَذَا فَإِنَّهُ كَثِيرًا مَا يَغْلَطُ النَّاسُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ. إذَا تَنَازَعَ الْنُّفَاةِ وَالْمُثْبِتَةُ فِي صِفَةٍ، وَدَلَالَةٍ نُصَّ عَلَيْهَا؛ يُرِيدُ الْمُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ اللَّفْظَ -حَيْثُ وَرَدَ -دَالًّا عَلَى الصِّفَةِ وَظَاهِرًا فِيهَا.**

**ثُمَّ يَقُولُ النَّافِي: وَهُنَاكَ لَمْ تَدُلَّ عَلَى الصِّفَةِ فَلَا تَدُلُّ هُنَا. وَقَدْ يَقُولُ بَعْضُ الْمُثْبِتَةِ: دَلَّتْ هُنَا عَلَى الصِّفَةِ فَتَكُونُ دَالَّةً هُنَاكَ؛ بَلْ لَمَّا رَأَوْا بَعْضَ النُّصُوصِ تَدُلُّ عَلَى الصِّفَةِ جَعَلُوا كُلَّ آيَةٍ فِيهَا مَا يَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُ يُضَافُ إلَى اللَّهِ تَعَالَى -إضَافَةَ صِفَةٍ -مِنْ آيَاتِ الصِّفَاتِ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {يا حسرتا على ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ}. (قلتُ: يقصد هنا أن هذه الآية ليست من آيات الصفات، وقرينة السياق والحال تدل على أن معنى جنب الله أي حقه وأمره).**

**وَهَذَا يَقَعُ فِيهِ طَوَائِفُ مِنْ الْمُثْبِتَةِ والْنُّفَاةِ وَهَذَا مِنْ أَكْبَرِ الْغَلَطِ فَإِنَّ الدَّلَالَةَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِحَسَبِ سِيَاقِهِ. وَمَا يُحَفُّ بِهِ مِنْ الْقَرَائِنِ اللَّفْظِيَّةِ وَالْحَالِيَّةِ.**

**وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي أَمْرِ الْمَخْلُوقِينَ يُرَادُ بِأَلْفَاظِ الصِّفَاتِ مِنْهُمْ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ غَيْرُ الصِّفَاتِ.**

**وَأَنَا أَذْكُرُ لِهَذَا مِثَالَيْنِ نَافِعَيْنِ:**

**أَحَدُهُمَا (صِفَةُ الْوَجْهِ) فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ إثْبَاتُ هَذِهِ الصِّفَةِ مَذْهَبَ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالْمُتَكَلِّمَةِ الصفاتية: مِنْ الْكُلَّابِيَة وَالْأَشْعَرِيَّةِ والكَرَّامِيَة وَكَانَ نَفْيُهَا مَذْهَبَ الْجَهْمِيَّة: مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ وَمَذْهَبَ بَعْضِ الصفاتية مِنْ الْأَشْعَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ صَارَ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ الطَّائِفَتَيْنِ كُلَّمَا قَرَأَ آيَةً فِيهَا ذِكْرُ الْوَجْهِ جَعَلَهَا مِنْ مَوَارِدِ النِّزَاعِ.**

**فَالْمُثْبِتُ يَجْعَلُهَا مِنْ الصِّفَاتِ الَّتِي لَا تُتَأَوَّلُ بِالصَّرْفِ وَالنَّافِي يَرَى أَنَّهُ إذَا قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ صِفَةً فَكَذَلِكَ غَيْرُهَا.**

**مِثَالُ ذَلِكَ قَوْله تَعَالَى {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ}. أَدْخَلَهَا فِي آيَاتِ الصِّفَاتِ طَوَائِفُ مِنْ الْمُثْبِتَةِ والْنُّفَاةِ حَتَّى عَدَّهَا " أُولَئِكَ " كَابْنِ خُزَيْمَة" مِمَّا يُقَرِّرُ إثْبَاتَ الصِّفَةِ.**

**وَجَعَلَ " النَّافِيَةَ " تَفْسِيرَهَا بِغَيْرِ الصِّفَةِ حُجَّةً لَهُمْ فِي مَوَارِدِ النِّزَاعِ.**

**وَلِهَذَا لَمَّا اجْتَمَعْنَا فِي الْمَجْلِسِ الْمَعْقُودِ وَكُنْت قَدْ قُلْت: أَمْهَلْت كُلَّ مَنْ خَالَفَنِي ثَلَاثَ سِنِينَ إنْ جَاءَ بِحَرْفِ وَاحِدٍ عَنْ السَّلَفِ يُخَالِفُ شَيْئًا مِمَّا ذَكَرْته كَانَتْ لَهُ الْحُجَّةُ وَفَعَلْت وَفَعَلْت وَجَعَلَ الْمُعَارِضُونَ يُفَتِّشُونَ الْكُتُبَ فَظَفِرُوا بِمَا ذَكَرَهُ البيهقي فِي كِتَابِ " الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ " فِي قَوْله تَعَالَى {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} فَإِنَّهُ ذَكَرَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَالشَّافِعِيِّ أَنَّ الْمُرَادَ (قِبْلَةُ اللَّهِ)، فَقَالَ أَحَدُ كُبَرَائِهِمْ - فِي الْمَجْلِسِ الثَّانِي - قَدْ أَحْضَرْت نَقْلًا عَنْ السَّلَفِ بِالتَّأْوِيلِ فَوَقَعَ فِي قَلْبِي مَا أَعَدَّ فَقُلْت: لَعَلَّك قَدْ ذَكَرْت مَا رُوِيَ فِي قَوْله تَعَالَى {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} قَالَ: نَعَمْ. قُلْت: الْمُرَادُ بِهَا قِبْلَةُ اللَّهِ فَقَالَ: قَدْ تَأَوَّلَهَا مُجَاهِدٌ وَالشَّافِعِيُّ وَهُمَا مِنْ السَّلَفِ.**

**وَلَمْ يَكُنْ هَذَا السُّؤَالُ يَرِدُ عَلَيَّ؛ بَلْ قُلْت هَذِهِ الْآيَةُ لَيْسَتْ مِنْ آيَاتِ الصِّفَاتِ أَصْلًا وَلَا تَنْدَرِجُ فِي عُمُومِ قَوْلِ مَنْ يَقُولُ: لَا تُؤَوَّلُ آيَاتُ الصِّفَاتِ. قَالَ: أَلَيْسَ فِيهَا ذِكْرُ الْوَجْهِ فَلَمَّا قُلْت: الْمُرَادُ بِهَا قِبْلَةُ اللَّهِ. قَالَ: أَلَيْسَتْ هَذِهِ مِنْ آيَاتِ الصِّفَاتِ؟ قُلْت: لَا. لَيْسَتْ مِنْ مَوَارِدِ النِّزَاعِ فَإِنِّي إنَّمَا أُسَلِّمُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْوَجْهِ -هُنَا -الْقِبْلَةُ فَإِنَّ " الْوَجْهَ " هُوَ الْجِهَةُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ يُقَالُ: قَصَدْت هَذَا الْوَجْهَ وَسَافَرْت إلَى هَذَا " الْوَجْهِ " أَيْ: إلَى هَذِهِ الْجِهَةِ وَهَذَا كَثِيرٌ مَشْهُورٌ فَالْوَجْهُ هُوَ الْجِهَةُ.**

**وَهُوَ الْوَجْهُ: كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى {وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا} أَيْ مُتَوَلِّيهَا فَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا} كَقَوْلِهِ: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} كِلْتَا الْآيَتَيْنِ فِي اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى مُتَقَارِبَتَانِ وَكِلَاهُمَا فِي شَأْنِ الْقِبْلَةِ وَالْوَجْهِ وَالْجِهَةِ هُوَ الَّذِي ذُكِرَ فِي الْآيَتَيْنِ: أَنَّا نُوَلِّيهِ: نَسْتَقْبِلُهُ.**

**قُلْت: وَالسِّيَاقُ يَدُلُّ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ قَالَ: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا} وَأَيْنَ مِنْ الظُّرُوفِ وَتُوَلُّوا أَيْ تَسْتَقْبِلُوا. فَالْمَعْنَى: أَيُّ مَوْضِعٍ اسْتَقْبَلْتُمُوهُ فَهُنَالِكَ وَجْهُ اللَّهِ فَقَدْ جَعَلَ وَجْهَ اللَّهِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَسْتَقْبِلُهُ هَذَا بَعْدَ قَوْلِهِ: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ} وَهِيَ الْجِهَاتُ كُلُّهَا كَمَا فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: {قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}.**

**فَأَخْبَرَ أَنَّ الْجِهَاتِ لَهُ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْإِضَافَةَ إضَافَةُ تَخْصِيصٍ وَتَشْرِيفٍ؛ كَأَنَّهُ قَالَ جِهَةُ اللَّهِ وَقِبْلَةُ اللَّهِ. وَلَكِنْ مِنْ النَّاسِ مَنْ يُسَلِّمُ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ جِهَةُ اللَّهِ أَيْ قِبْلَةُ اللَّهِ وَلَكِنْ يَقُولُ: هَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى الصِّفَةِ وَعَلَى أَنَّ الْعَبْدَ يَسْتَقْبِلُ رَبَّهُ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: {إذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إلَى الصَّلَاةِ فَإِنَّ اللَّهَ قِبَلَ وَجْهِهِ} وَكَمَا فِي قَوْلِهِ: {لَا يَزَالُ اللَّهُ مُقْبِلًا عَلَى عَبْدِهِ بِوَجْهِهِ مَا دَامَ مُقْبِلًا عَلَيْهِ فَإِذَا انْصَرَفَ صَرَفَ وَجْهَهُ عَنْهُ} وَيَقُولُ: إنَّ الْآيَةَ دَلَّتْ عَلَى الْمَعْنَيَيْنِ. فَهَذَا شَيْءٌ آخَرُ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهُ.**

**وَالْغَرَضُ أَنَّهُ إذَا قِيلَ: " فَثَمَّ قِبْلَةُ اللَّهِ " لَمْ يَكُنْ هَذَا مِنْ التَّأْوِيلِ الْمُتَنَازَعِ فِيهِ؛ الَّذِي يُنْكِرُهُ مُنْكِرُو تَأْوِيلِ آيَاتِ الصِّفَاتِ؛ وَلَا هُوَ مِمَّا يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَيْهِمْ الْمُثْبِتَةُ فَإِنَّ هَذَا الْمَعْنَى صَحِيحٌ فِي نَفْسِهِ وَالْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ دَالَّةً عَلَى ثُبُوتِ صِفَةٍ فَذَاكَ شَيْءٌ آخَرُ وَيَبْقَى دَلَالَةُ قَوْلِهِمْ: {فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} عَلَى فَثَمَّ قِبْلَةُ اللَّهِ هَلْ هُوَ مِنْ بَابِ تَسْمِيَةِ الْقِبْلَةِ وَجْهًا بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْوَجْهَ وَالْجِهَةَ وَاحِدٌ؟ أَوْ بِاعْتِبَارِ أَنَّ مَنْ اسْتَقْبَلَ وَجْهَ اللَّهِ فَقَدْ اسْتَقْبَلَ قِبْلَةَ اللَّهِ؟ فَهَذَا فِيهِ بُحُوثٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهَا.... إلخ آخر كلامه رحمه الله] ([[85]](#footnote-85))**

# سبحانه عما يقولون

**{وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (116) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (117)} (البقرة: 116، 117).**

**قال سبحانه: {وَقَالُواْ اتخذ الله وَلَداً}. أي: وقال الذين منعوا الذكر في مساجد الله وسعوا في خرابها: اتخذ الله ولداً. يريد بذلك النصارى واليهود والمشركين من العرب، لأنهم قالوا: الملائكة بنات الله، وقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله.**

**(ولم تفصِّل الآية هنا هذه المقولات، لأن السياق سياق إجمال للفرق الثلاث التي كانت تناهض الإسلام يومئذ في الجزيرة-ومن عجب أنها لا تزال هي التي تناهضه اليوم تماما، ممثلة في الصهيونية العالمية والصليبية العالمية، والشيوعية العالمية، وهي أشد كفراً من المشركين في ذلك الحين! - ومن هذا الإدماج تسقط دعوى اليهود والنصارى في أنهم وحدهم المهتدون وها هم أولاء يستوون مع المشركين! وقبل أن يمضي إلى الجوانب الفاسدة الأخرى من تصورهم لشأن الله-سبحانه-يبادر بتنزيه الله عن هذا التصور، وبيان حقيقة الصلة بينه وبين خلقه جميعاً.). ([[86]](#footnote-86))**

**فمَعْنًى {سُبْحَانَه}: بَرَاءَةُ اللَّهِ وتنزهه عن كل سُّوءٍ ونقص. وروي عن ابن عباس – واللفظ له:" أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قَال اللهُ تَعَالَى: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ. وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ. أَمّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَيَزْعُمُ أَنِّي لاَ أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ (وفي رواية أبي هريرة زاد: وليس أول الخلق بأهون على من إعادته). وَأَمّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لِي وَلَدٌ (وفي رواية: وأما شتمه إياى فقوله: {اتخذ الله ولدا} (البقرة: 611)، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَداً ". وفي رواية: "وأنا الأحد الصمد؛ لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفئا أحد". رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.**

**فلما ادعوا – كاذبين لله الولد-رد عليهم بحجته الباهرة في ثلاث جملٍ متصلاتٍ موجزاتٍ. وبيان الأولى أن غرض الولد للإنسان إنما هو في بقاء نوعه وعدم انقراض أثره، ولما كان الله تعالى هو الباقي الدائم بلا ابتداء ولا انتهاء، لم يكن لاتخاذه الولد لنفسه معنى، فقال {سبحانه} أي هو منزه عن السبب المقتضي للولد. ثم لما كان اتخاذ الولد للبشر ليسدَّ نقصاً وعوزا وضعفاً، بيَّن تعالى أن {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} فليس بمحتاجٍ عن فقرٍ سبحانه، وله الغنى من كل وجه. ثم زاد الحجة بقوله: {كل له قانتون} ففائدة الولد مظاهرة الوالد ومعاونته ومطاوعته، فبيَّن سبحانه أن كل ما في السماوات والأرض مع كونه مِلكا له فهم أيضاً في طوعه قانتين راضين كانوا، أو كارهين، أو مسخَّرين، كقوله: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا}، وقوله: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ}، وهذا أبلغ الحجة في ثلاث جملٍ بليغةٍ موجزة تنقضي فيها المجلدات الكبار. (أفاده الراغب) ...**

**فتأمل طريقة القرآن الرائعة في تقرير مسائل العقيدة.**

**وقوله تعالى:" كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ" ابْتِدَاءٌ وَخَبَرٌ، وَالتَّقْدِيرُ كُلُّهُمْ، أو كل الخلق سواه، ثُمَّ حُذِفَ المضاف إليه (الْهَاءُ وَالْمِيمُ أو الخلق) وعُوِّض عنه بالتنوين.**

**(فأما القنوت فقال الزجاج: هو في اللغة بمعنيين:**

**أحدهما: القيام. والثاني: الطاعة. ([[87]](#footnote-87)) فالقانت: القائم بأمر الله. ويجوز أن يقع في جميع الطاعات، لأنه إن لم يكن قيام على الرجلين، فهو قيام بالنية. وقال ابن قتيبة: لا أرى أصل القنوت إلا الطاعة، لأن جميع ما في الصلاة، والقيام فيها والدعاء وغير ذلك يكون عنها. وللمفسرين في المراد بالقنوت هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الطاعة، قاله ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، وقتادة.**

**والثاني: أنه الإقرار بالعبادة، قاله عكرمة، والسدي.**

**والثالث: القيام، قاله الحسن، والربيع. وفي معنى القيام قولان: أحدهما: أنه القيام له بالشهادة بالعبودية. والثاني: أنه القيام بين يديه يوم القيامة.**

**فإن قيل: كيف عمَّ بهذا القول وكثير من الخلق ليس له بمطيع؟**

**فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن يكون ظاهرها ظاهر العموم، ومعناها معنى الخصوص. والمعنى: كل أهل الطاعة له قانتون. والثاني: أن الكفار تسجد ظلالهم لله بالغدوات والعشيات، فنسب القنوت إليهم بذلك. والثالث: أن كل مخلوق قانت له بأثر صنعه فيه، وجري أحكامه عليه، فذلك دليل على ذلّه لربّه. ذكرهنّ ابن الأنباريّ.). ([[88]](#footnote-88))**

**وجملة القول: أن الآية ناطقة بأن ما في السماوات والأرض ملك لله - تعالى - ومُسخَّرٌ لإرادته ومشيئته لا فرق بين العاقل وغيره، فقد حكم على الجميع بالملكية وبالقنوت الذي يراد به التسخير وقبول تعلق الإرادة والقدرة، ولكنه عند ذكر الملك عبر عنه بالكلمة التي تستعمل غالبا في غير العاقل وهي كلمة (ما) ؛ لأن المعهود في ذوق اللغة وعرف أهلها أن الملك يتعلق بما لا يعقل، وعند ذكر القنوت عبر عنه بضمير العقلاء؛ لأنه من أعمالهم، ومما يعهد منهم ويسند إليهم لغة وعرفا وهذا كما ترى من أدق التعبير وألطفه، وأعلى البيان وأشرفه.([[89]](#footnote-89))**

**\*\*\*\***

**{بديع السماوات والأرض} أي مبدع السماوات والأرض ومنشأهما على غير مثال سبق، وكل منشئٍ ما لم يُسبق إليه فهو مبدع. ومنه يقال للشيء المحدث: بدعة. كما جاء في الصحيح لمسلم: "فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة ". ([[90]](#footnote-90))**

**والإبداع في الحقيقة هو خلق شيءٍ من لا شيء، وأطلق مجازا على الإنشاء على غير مثالٍ سبق، والغاية هنا هو مزيد حجةٍ وبرهان يرد قول أهل الكذب والبهتان. وتقرير الحجة: إن الله سبحانه مبدع الأشياء كلها من لا شيء. فليس ببعيد على عظيم قدرته أن يوجِد أحداً بلا أب، أو يُعلِّم بلا واسطة من البشر. وهذه هي طلاقة قدرة الله العظيم القدير. وهى كلية من كليات البناء العقدي للمؤمنين.**

**وخَصَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بالذكر لأنها أعظم ما نرى من مخلوقاته جل وعلا، ففيهما عالم الملك والملكوت بكل ما فيه العجائب التي لا يستطيع العلم والعلماء إلى يوم القيامة فك جزءٍ يسير من أسرار خلقها، وفي ذلك إشارة إلى حجةٍ أخرى خفيةٍ يدركها من مارس العلوم وعرف عظمة الله في خلق السماوات والأرض كما قال تعالى {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (غافر: 57).**

**وقوله تعالى: {إذا قضى أمراً} معناه أراده كما قدَّره في علمه سبحانه، أو أحكمه وفرغ منه.**

**وقوله تعالى: {فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}. قال العز -رحمه الله: {كُن} هذا أمر للموجودات بالتحول من حال إلى أخرى كقوله -تعالى: -{كونوا قردة}، وليس إنشاءً للمعدوم، أو ربما هو لإنشاء المعدوم، لأنه لما كانت في علم الله جاز أن يقول لها: " كن " لتحققها في علمه سبحانه، أو إنما عبَّر عن نفوذ قدرته- سبحانه- وإرادته في كل شيء بالقول – مجازا- ولا قول على الحقيقة، فالإرادة الربانية نافذة حتى دون القول.([[91]](#footnote-91))**

**وَمِنْهُ قول الشاعر، وهو عمرو بْنُ حُمَمَةَ الدُّوسِيُّ:**

**فَأَصْبَحْتُ مِثْلَ النَّسْرِ طَارَتْ فِرَاخُهُ ... إِذَا رَامَ تَطْيَارًا يُقَالُ لَهُ قَعِ.**

**وَقَالَ آخَرُ: قَالَتْ جَنَاحَاهُ لِسَاقَيْهِ الْحَقَا ... وَنَجِّيَا لحمكما أَنْ يُمَزَّقَا.**

**قال الشوكاني: وَالظَّاهِرُ فِي هَذَا هو الْمَعْنَى الْحَقِيقِيُّ، وَأَنَّهُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ هَذَا اللَّفْظَ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ مَانَعٌ وَلَا جَاءَ مَا يُوجِبُ تَأْوِيلَهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ} (يس: 82)، وَقَالَ تَعَالَى: {إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (النحل: 40)، وَقَالَ: {وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} (القمر: 50). ونبه تعالى بذلك أيضا على أن خلق عيسى بكلمة: كن، فكان كما أمره الله، قال الله تعالى: {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون} (آل عمران: 59). انتهى ([[92]](#footnote-92))**

**ثم اختلف العلماء في توجه الخطاب للمعدوم أن يوجد.**

**قال الأستاذ محمد عبده -رحمه الله: إن الأمر بكلمة (كن) هنا هو الأصل فيما يسمونه أمر التكوين، ويقابله أمر التكليف. فالأول متعلق صفة الإرادة لله سبحانه، والثاني متعلق صفة الكلام. وأمر التكليف يخاطب به العاقل المكلَّف، ولا يخاطب به غيره فضلا عن المعدوم، وأمر التكوين يتوجه إلى المعدوم كما يتوجه إلى الموجود؛ إذ المراد به جعله موجودا، وإنما يوجه إليه؛ لأنه معلوم لله تعالى، فالله يعلم الشيء قبل وجوده، وأنه سيوجد في وقت كذا. فتتعلق إرادته بوجوده على حسب ما في علمه فيوجد. وشيخ الإسلام ابن تيمية يسميه الأمر القدري الكوني، ويسمي مقابله (أمر التكليف) الأمر الشرعي.**

**ذلك شأنه -تعالى -في الإيجاد والتكوين، وهو أغمض أسرار الألوهية، فمن عرف حقيقته فقد عرف حقيقة المبدع سبحانه، وذلك ما لا مطمع فيه. وقد عبر عن هذا السر بهذا التعبير الذي يقرِّبه من الفهم ولا يتشعب فيه الوهم، ولا يوجد في الكلام تعبير آخر أليق به من هذا التعبير: يقول للشيء: (كن فيكون). انتهى ([[93]](#footnote-93))**

**أما كيف تتصل هذه الإرادة التي لا نعرف كنهها، بمراد الله تعالى في الوجود، فذلك هو السر الذي لم يكشف للإدراك البشري عنه، لأن الطاقة البشرية غير مهيأة لإدراكه. وهي غير مهيأة لإدراكه لأنه لا يلزمها في وظيفتها التي خلقت لها وهي خلافة الأرض وعمارتها. وبقدر ما وهب الله للإنسان من القدرة على كشف قوانين الكون التي تفيده في مهمته، وسخر له الانتفاع بها، بقدر ما زوى عنه الأسرار الأخرى التي لا علاقة لها بخلافته الكبرى. ولقد ضربت الفلسفات في تيهٍ لا منارة فيه، وهي تحاول كشف هذه الأسرار وتفترض فروضاً تنبع من الإدراك البشري الذي لم يهيأ لهذا المجال، ولم يزود أصلاً بأدوات المعرفة فيه والارتياد. فتجيء هذه الفروض مضحكة في أرفع مستوياتها. مضحكة إلى حد يحير الإنسان: كيف يصدر هذا عن «فيلسوف»! وما ذلك إلا لأن أصحاب هذه الفلسفات حاولوا أن يخرجوا بالإدراك البشري عن طبيعة خلقته، وأن يتجاوزوا به نطاقه المقدور له! فلم ينتهوا إلى شيء يطمأن إليه بل لم يصلوا إلى شيء يمكن أن يحترمه من يرى التصور الإسلامي ويعيش في ظله. وعصم الإسلام أهله المؤمنين بحقيقته أن يضربوا في هذا التيه بلا دليل، وأن يحاولوا هذه المحاولة الفاشلة، الخاطئة المنهج ابتداء. فلما أن أراد بعض متفلسفيهم متأثرين بأصداء الفلسفة الإغريقية-على وجه خاص-أن يتطاولوا إلى ذلك المرتقى، باءوا بالتعقيد والتخليط، كما باء أساتذتهم الإغريق! ودسوا في التفكير الإسلامي ما ليس من طبيعته، وفي التصور الإسلامي ما ليس من حقيقته. وذلك هو المصير المحتوم لكل محاولة للعقل البشري وراء مجاله، وفوق طبيعة خلقته وتكوينه. ([[94]](#footnote-94))**

**\*\*\*\***

# {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ.... }

**قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (118) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (119)} (البقرة: 118، 119)**

**اختلف علماء المعاني في المقصود بهؤلاء الذين لا يعلمون فقال بعضهم: هم اليهود الذين يتوجه إليهم الخطاب تبكيتا في أكثر هذه السورة، ورأى الطبري مرجحا: أنهم النصارى الذين ادعوا لله الولد، فقال جل ثناؤه، مخبرا عنهم أنهم مع افترائهم على الله الكذب، تمنوا على الله الأباطيل، فقالوا جهلا منهم بالله وبمنزلتهم عنده وهم بالله مشركون: (لولا يكلمنا الله)، كما يكلم رسوله وأنبياءه، أو تأتينا آية كما أتتهم؟ وكيف يؤيد الله الكاذب المشرك بكلامه ومعجزاته.**

**وقال آخرون: هم مشركو العرب. والحقيقة أنني أرى أن هذا هو الأقوى ومنه يتفرع الخطاب لبقية أهل الجهل، لما في خصوصية الخطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام وأتباعه من دلالة، حيث انتقل من بيان مخازي اليهود والنصارى وافترائهم ما ليس لهم به علم إلى تثبيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-وتسليته والمؤمنين، بعد تكذيب المشركين من العرب ومماطلتهم للرسول سنين، فهؤلاء الأميون الذين لا يعلمون اتبعوا ديدن الذين كانوا قبلهم من أمم أهل الكتاب الضالة في التشغيب على أنبيائهم. فهذا انتقال خطابي لطيف يربط بين تربية الأمة المحمدية بالعبرة من مزالق الأمم الضالة، وبين تسلية النبي وأتباعه لما يصيبهم من تكذيب أقوامهم وتشغيبهم.**

**ويؤيده لحاقُ هذه الآية: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ} فكأنه سبحانه يقول لنبيه الكريم: هذه مهمتك البشارة والنذارة، وليس عليك هداهم إذا ما اتبعوا هواهم فهووا في الجحيم.**

**وفي الحقيقة فإن هذا الإبهام في وصفهم ب{الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} يمكن أن يشمل كلا أهل الكتاب تبعا مع المشركين أصالةً، ويربطهم جميعا برباط الجهل الذي اتكأ عليه التعبير. ويعتبر هذا من مناحي الإعجاز القرآني في اتساع الدلالة، الذي يجعل كلا الإجمال والتفصيل دالاً بديعا في موضعه. والله أعلم.**

**وقوله تعالى: {لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ} أى هلَّا يكلمنا الله كما يكلم الملائكة وكلم موسى؟ يقولونها استكباراً منهم وعتوا.**

**وقوله: {أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ} يقولونها جحوداً واستهانةً، ولم يكن قصدهم تبين الحق، فإن الرسل، قد جاءوا من الآيات، بما يؤمن بمثله البشر، وبما يبعث اليقين بصدق الرسل في التبليغ عن الله.**

**{تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ} أي قلوب أولئك الجاهلين والذين سبقوهم في العمى والضلال.**

**قال تعالى: {قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ لِقَوْمٍ يوقنون} فلو كانوا منصفين لأدركوا أنها معجزات بيِّنات يجب الاعتراف بها، والإذعان لها والاكتفاء بها عن غيرها؛ فمن أراد اليقين فعليه بها. أو لما تقدم ذكر الجاحدين وطلبهم ما لا يجوز لهم أتبع ذلك بذكر بيان الله المعجز الذي تقوم به الحجة، لكن البيان وقع وتحصل للموقنين فقط، فلذلك خصهم بالذكر.**

**قال سبحانه: {إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ} أَيْ بِالْآيَاتِ الْوَاضِحَةِ، متلبساً بالحق مُحاوَطاً به في كل ما تقول وتفعل كما قال تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} (النجم: 3، 4). وَفُسِّرَ الْحَقُّ هُنَا بِالصِّدْقِ وَبِالْقُرْآنِ وَبِالْإِسْلَامِ، والأمر على عمومه. وَبِالْحَقِّ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، أَيْ أَرْسَلْنَاكَ وَمَعَكَ الْحَقُّ لَا يُفارقكَ.**

**{بَشِيرًا وَنَذِيرًا} أي: بشيراً لمن اتبعك، ونذيراً لمن كفر بك، لأن تبشر الطائع المهتدي وتنذر العاصي الجاحد؛ لا لتجبر الناس على الإيمان، وهذه تسليةٌ لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وتسريةُ عنه، لأنه كان يغتم ويضيق صدره لإصرارهم وتصميمهم على الكفر. فلذلك قال بعدها: {وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ} أي ولا نسألك عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلَّغتَ، وبَلَغْتَ جهدك في دعوتهم، كقوله تعالى في الآية الأخرى: {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ}، وقوله {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ}، وقوله: {مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ}، وقوله: {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ}.**

**وقرأ الإمام (نافع) وحده: (وَلا تُسْأَلُ) على النهى وجزم الفعل (ولا تسألْ) وفيه من المبالغة في استعظام ما ينالهم من العقاب حتى إن السامع لخبره ليصيبه ما لا يقدر أن يتحمله من سماع ذلك، كما تقول: كيف فلان؟ سائلا عن الواقع في مصيبة، فيقال لك: "لا تسأل عنه" أي إن حاله أشد من أن يُحكى. ([[95]](#footnote-95))**

**وهذا الذي رجحته وذكرته وحده في مقصود الآية يتفق مع جماليات البلاغة القرآنية واستقصائها لأفصح أساليب العربية، وقد ذكر بعض المفسرين أن هذا المقطع {ولا تسألْ عن أصحاب الجحيم} على قراءة من جزم الفعل نزل في سؤال نبى الله – وحاشاه-عن مصير أبويه؛ والعجب من تطاول هذا الذي تأول ذلك، واستقطاعه النص من سياقه، وحشره لروايته فيما لم يُسَقْ له الكلام أصلاً؛ فكأنه فصل تفسير هذا الجزء عن الآية كلها لأجل روايته الواهية تلك، ثم إن هذا التأويل – لو ساغ- في إحدى القراءتين وليس ينطبق على قراءة الجمهور، ثم إن الرواية التي ساقوها في ذلك ضعيفة مرسلة من كل طرقها.([[96]](#footnote-96))**

**وبهذا يتبين سقوط هذا التأويل عقلا ونقلا، فلا يجوز تفسير الآية به عند التحقيق. وليس كل ما ذكرته التفاسير يُنقل، وخصوصا إذا كان تحكما لا يتفق وسياق القرآن، فكيف إذا كان به من الأذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا منهجي والله المستعان.**

**ثم إنني رأيت في التحرير والتنوير حـ1 صـ 398 ما مختصره: وما قيل فهو استناد لرواية واهية ولو صحت لكان حمل الآية على ذلك مجافيا للبلاغة إذ قد علمت أن قوله (إنا أرسلناك) تأنيسٌ وتسكينٌ فالإتيان معه بما يذكر المكدرات خروج عن الغرض وهو مما يعبر عنه بفساد الوضع. انتهى كلامه.**

**قال الأستاذ محمد عبده: وقد فشا هذا القول، ولولا ذلك لم نذكره، وإنما نريد بذكره التنبيه على أن الباطل صار يفشو في المسلمين بضعف العلم، والصحيح يُهجَر ويُنسَى، ولا شك أن مقام النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ في معرفة أسرار الدين وحكم الله في الأولين والآخرين ينافي صدور مثل هذا السؤال عنه، كما أن أسلوب القرآن يأبى أن يكون هو المراد منه. انتهى.**

**والتعبير عن الكافرين والمكذِّبين بكلمة {أصحاب الجحيم} إيذانٌ بأن أولئك المعاندين من المطبوع على قلوبهم، فلا يُرجَى منهم الرجوع عن الكفر والضلال إلى الإيمان والإذعان.**

## فائدة

**وهي هنا في منهج الاستدلال القرآني في العقيدة؛ فالقرآن حين يستدل على مسائل العقائد يجمع بين الوضوح والسلاسة والعمق ويبتعد عن التكلف والسفسطة والجدل العقيم؛ إنه يخاطب النفس الباحثة عن الحق من أقرب طرقها، ويطرق أبواب العقل من أوسعها ليجعلك تقرر حقائقه بدون عناء التفلسف.**

**أتصيد هنا كلام شيخنا السعدي على هذه الآية قال-عليه الرحمة:**

**ذكر تعالى بعض آية موجزة مختصرة جامعة للآيات الدالة على صدقه صلى الله عليه وسلم وصحة ما جاء به فقال: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا} فهذا مشتمل على الآيات التي جاء بها، وهي ترجع إلى ثلاثة أمور:**

**الأول: في نفس إرساله، والثاني: في سيرته وهديه ودله، والثالث: في معرفة ما جاء به من القرآن والسنة.**

**فالأول والثاني، قد دخلا في قوله: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ} والثالث دخل في قوله: {بِالْحَقِّ}.**

**وبيان الأمر الأول وهو -نفس إرساله -أنه قد علم حالة أهل الأرض قبل بعثته صلى الله عليه وسلم وما كانوا عليه من عبادة الأوثان والنيران، والصلبان، وتبديلهم للأديان، حتى كانوا في ظلمة من الكفر، قد عمتهم وشملتهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، قد انقرضوا قبيل البعثة.**

**وقد علم أن الله تعالى لم يخلق خلقه سدى، ولم يتركهم هملا لأنه حكيم عليم، قدير رحيم، فمن حكمته ورحمته بعباده، أن أرسل إليهم هذا الرسول العظيم، يأمرهم بعبادة الرحمن وحده لا شريك له، فبمجرد رسالته يعرف العاقل صدقه، وهو آية كبيرة على أنه رسول الله، وأما الثاني: فمن عرف النبي صلى الله عليه وسلم معرفة تامة، وعرف سيرته وهديه قبل البعثة، ونشوئه على أكمل الخصال، ثم من بعد ذلك،**

**قد ازدادت مكارمه وأخلاقه العظيمة الباهرة للناظرين، فمن عرفها، وسبر أحواله، عرف أنها لا تكون إلا أخلاق الأنبياء الكاملين، لأن الله تعالى جعل الأوصاف أكبر دليل على معرفة أصحابها وصدقهم وكذبهم.**

**وأما الثالث: فهو معرفة ما جاء به صلى الله عليه وسلم من الشرع العظيم، والقرآن الكريم، المشتمل على الإخبارات الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهي عن كل قبيح، والمعجزات الباهرة، فجميع الآيات تدخل في هذه الثلاثة.انتهى ([[97]](#footnote-97))**

## فائدةٌ ورد شبهة.

**قرأت لأحد العلماء كلاما نفيسا قال فيه ([[98]](#footnote-98)):**

**ولا يجوز في الجملة القول في الأنبياء ــ عليهم السلام ــ بشيء يؤدي إلى العيب والنقصان فيهم ، وقد أمرنا بحفظ اللسان عنهم ؛ لأن مرتبتهم أرفع ، وهم على الله أكرم ، وقد قال عليه السلام: "إذا ذكر أصحابي فأمسكوا" فلما أمرنا أن لا نذكر الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ بشيء يرجع إلى العيب والنقص ، فلأن نمسك ونكف عن الأنبياء أولى وأحق فحق المسلم أن يمسك لسانه عما يخل بشرف نسب نبينا ــ عليه السلام ــ وليست من الاعتقاديات فلاحظ للقلب منها، وأما اللسان ، فحقه أن يُصان عما يتبادر منه النقصان ، خصوصاً إلى وهم العامة ، لأنهم لا يقدرون على دفعه وتداركه. انتهى.**

**وكلامٌ نفيسٌ نقتنصه للشيخ الشنقيطي رحمه الله ـ في هذا الموضع أيضاً حول الرواية التي فيها قوله عليه السلام: " أبي وأبوك في النار".**

**قال- رحمه الله- ما ملخصه:**

**وكل ما ذكر في هذه الرواية يتعارض مع صريح القرآن الكريم مثل قوله تعالى " وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً " [الإسراء:15] وقوله " لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون " [يس:6 ] وقوله تعالى " كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى ..." [الملك:8] وقوله تعالى " ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون " [القصص:46 ] وقوله تعالى " وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير " [سبأ:44] وقوله تعالى " رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل " [النساء:165 ] وقوله تعالى " ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى " [طه:134 ]...**

**فهذا كله يجب تقديمه على أخبار الآحاد الدالة على تعذيب أهل الفترة، وقد صرحت بعض الأحاديث أنهم يمتحنون يوم القيامة كما ذكره ابن كثير -رحمه الله -عند تفسيره لقوله تعالى في سورة الإسراء " وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً "**

**ثم يقول: ومنهم من ذهب إلى أنهم يمتحنون يوم القيامة في عرصات المحشر فمن أطاع دخل الجنة، وانكشف علم فيه بسابق السعادة، ومن عصى دخل النار داخراً وانكشف علم الله فيه بسابق الشقاوة، وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها، وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض، وهذا القول هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عن أهل السنة والجماعة وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب [الاعتقاد] وكذلك غيره. انتهى كلامه.([[99]](#footnote-99))**

**وقيل في شرح حديث "أبي وأبوك في النار" أن الأب قد يطلق لغة واصطلاحاً على العم، فلعل المقصود بالأب هنا عمه أبو طالب. ذلك أن أبا طالب عرضت عليه كلمة التوحيد قبل أن يموت فأبى أن ينطلق بها، كأن هذا القول يشير إلى قوله تعالى " قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق " [البقرة:133] ومعلوم أن إسماعيل كان عماً ليعقوب -عليهما السلام – وقد جاء في الحديث الصحيح:" عم الرجل صنو أبيه".**

**رواه الترمذي عن علي وصححه الألباني. وفي الحديث الحسن: "العم والد" و" العم أب". (الصحيحة 1041).**

**وهذا الرأي وجيه جداً ويجب أن يحمل عليه الحديث السابق جمعاً بين الأدلة وصيانة لها عن التعارض. وأيضاً فتأويل الحديث ليوافق الكتاب أولى من تأويل الكتاب ليوافق السنة. وعندي في هذا الحديث وجهٌ آخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قالها للرجل ترطيبا لقلبه بعدما حزن حين قال له: أبوك في النار. فكأنه قال: أبي وأبوك في النار إن لم يؤمنا، وقامت عليهما الحجة، وهذا يبينه أحاديث الامتحان في المحشر والآيات حاكمة عليه.**

**ويؤيده ما رواه ابن ماجة بسند صحيح عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبِي كَانَ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَكَانَ وَكَانَ، فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ «فِي النَّارِ» قَالَ: فَكَأَنَّهُ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَيْنَ أَبُوكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَيْثُمَا مَرَرْتَ بِقَبْرِ مُشْرِكٍ فَبَشِّرْهُ بِالنَّارِ» قَالَ: فَأَسْلَمَ الْأَعْرَابِيُّ بَعْدُ، وَقَالَ: لَقَدْ كَلَّفَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعَبًا، مَا مَرَرْتُ بِقَبْرِ كَافِرٍ إِلَّا بَشَّرْتُهُ بِالنَّارِ. وَفِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ قَالَ لَهُ «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ».**

**قَالَ السُّيُوطِيُّ: وَإِنَّمَا ذَكَرَهَا حَمَّادُ بْنُ مَسْلَمَةَ عَنْ ثَابِتٍ، وَقَدْ خَالَفَهُ مَعْمَرٌ عَنْ ثَابِتٍ فَلَمْ يَذْكُرْهُ وَلَكِنْ قَالَ: " إِذَا مَرَرْتُ بِقَبْرِ كَافِرٍ فَبَشِّرْهُ بِالنَّارِ"، وَلَا دَلَالَةَ فِي هَذَا اللَّفْظِ عَلَى حَالِ الْوَالِدِ، وَهُوَ أَثْبَتُ.**

**فَإِنَّ مَعْمَرًا أَثْبَتُ مِنْ حَمَّادٍ، فَإِنَّ حَمَّادًا تُكُلِّمَ فِي حِفْظِهِ، وَوَقَعَ فِي أَحَادِيثِهِ مَنَاكِيرُ، وَلَمْ يُخَرِّجْ لَهُ الْبُخَارِيُّ، وَلَا خَرَّجَ لَهُ مُسْلِمٌ فِي الْأُصُولِ إِلَّا مِنْ رِوَايَتِهِ عَنْ ثَابِتٍ.**

**وَأَمَّا مَعْمَرٌ فَلَمْ يُتَكَلَّمْ فِي حِفْظِهِ، وَلَا اسْتُنْكِرَ شَيْءٌ مِنْ حَدِيثِهِ، وَاتَّفَقَ عَلَى التَّخْرِيجِ لَهُ الشَّيْخَانِ، فَكَانَ لَفْظُهُ أَثْبَتُ.**

**ثُمَّ وَجَدْنَا الْحَدِيثَ وَرَدَ مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ بِمِثْلِ لَفْظِ مَعْمَرٍ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ أَخْرَجَهُ الْبَزَّارُ وَالطَّبَرَانِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ، وَكَذَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ.**

**فَتَعَيَّنَ الِاعْتِمَادُ عَلَى هَذَا اللَّفْظِ وَتَقْدِيمُهُ عَلَى غَيْرِهِ، فَعُلِمَ أَنَّ رِوَايَةَ مُسْلِمٍ مِنْ تَصَرُّفِ الرُّوَاةِ بِالْمَعْنَى عَلَى حَسَبِ فَهْمِهِ.**

**عَلَى أَنَّهُ لَوْ صَحَّ يُحْمَلُ فِيهِ الْأَبُ عَلَى الْعَمِّ.**

**وَلِهَذَا قَالَ السُّيُوطِيُّ فِي حَاشِيَةِ سُنَنُ ابْنِ مَاجَهْ:**

**هَذَا مِنْ مَحَاسِنِ الْأَجْوِبَةِ، أَنَّهُ لَمَا وَجَدَ الْأَعْرَابِيَّ فِي نَفْسِهِ لَاطَفَهُ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَعَدَلَ إِلَى جَوَابٍ عَامٍّ فِي كُلٍّ مُشْرِكٍ وَلَمْ يَتَعَرَّضْ إِلَى الْجَوَابِ عَنْ وَالِدِهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ بِنَفْيٍ وَلَا إِثْبَاتٍ.**

**وَقَالَ السيوطي: وَلَمْ يُعْرَفْ لِوَالِدِهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ حَالَةُ شِرْكٍ مَعَ صِغَرِ سِنِّهِ جِدًّا، فَإِنَّهُ تُوُفِّيَ وَهُوَ ابْنُ سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحْيَا لِلنَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَالِدِيهِ حَتَّى آمَنَا بِهِ، وَالَّذِي يَقْطَعُ بِهِ أَنَّهُمَا فِي الْجَنَّةِ.**

**وَمِنْ أَقْوَى الْحُجَجِ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُمَا مِنْ أَهْلِ الْفَتْرَةِ، وَقَدْ أَطْبَقَ أَئِمَّتُنَا الشَّافِعِيَّةُ وَالْأَشْعَرِيَّةُ عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ لَا يُعَذَّبُ وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نبعث رسولا} [الإسراء: 15] الْآيَةَ.**

**وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي الْإِصَابَةِ: وَرَدَ مِنْ عِدَّةِ طُرُقٍ فِي حَقِّ الشَّيْخِ الْهَرِمِ، وَمَنْ مَاتَ فِي الْفَتْرَةِ، وَمَنْ وُلِدَ أَكْمَهَ أَعْمَى أَصَمَّ، وَمَنْ وُلِدَ مَجْنُونًا أَوْ طَرَأَ عَلَيْهِ الْجُنُونُ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ، وَنَحْوُ ذَلِكَ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمْ يَأْتِي بِحُجَّةٍ وَيَقُولُ لَوْ عَقَلْتُ أَوْ ذُكِّرْتُ لَآمَنْتُ، فَتُرْفَعُ لَهُمْ نَارٌ وَيُقَالُ ادْخُلُوهَا؛ فَمَنْ دَخَلَهَا كَانَتْ لَهُ بَرْدًا وَسَلَامًا، وَمَنِ امْتَنَعَ أُدْخِلَهَا كُرْهًا وَنَحْنُ نَرْجُو أَنْ يَدْخُلَ عَبْدُ الْمُطَّلَبِ وَآلُ بَيْتِهِ فِي جُمْلَةِ مَنْ يَدْخُلُهَا طَائِعًا إِلَّا أَبَا طَالِبٍ. انتهى ([[100]](#footnote-100))**

**قلتُ- الباحث: وَللحق فإن كُلُّ مَا وَرَدَ بِإِحْيَاءِ وَالِدَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِيمَانِهِمَا وَنَجَاتِهِمَا أَكْثَرُهُ – (عند جمهور العلماء)- مَوْضُوعٌ مَكْذُوبٌ مُفْتَرًى، وَبَعْضُهُ ضَعِيفٌ جِدًّا لَا يَصِحُّ بِحَالٍ لِاتِّفَاقِ أئمة الحديث على وضعه كالدارقطني والجوزقاني وبن شاهين والخطيب وبن عساكر وبن ناصر وبن الْجَوْزِيِّ وَالسُّهَيْلِيِّ وَالْقُرْطُبِيِّ وَالْمُحِبِّ الطَّبَرِيِّ وَفَتْحِ الدِّينِ بْنِ سَيِّدِ النَّاسِ وَإِبْرَاهِيمَ الْحَلَبِيِّ وَجَمَاعَةٍ.**

**وقد خالفهم في ذلك السيوطي وقول ابن حجر –(يعني الهيتمي)-: وحديث إحيائهما حتى آمنا به، ثم توفيا حديث صحيح، وممن صححه الإمام القرطبيّ، والحافظ ابن ناصر الدين (ابن المنير).**

**ولكن هذا الأمر لا يترتب عليه كثير فائدة في العقيدة، ولكن ما ثبت في صحيح العقيدة هو وجوب تعظيم قدر رسول الله صلى الله عليه وسلم في القلوب، ووجوب نصرته وعدم إيذائه في نفسه وفي أهله وفي صحبه وفيمن يحب، وأن مؤذي النبي ليس من أهل الإيمان.**

# {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى...}

**قال تعالى: {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (120)}.**

**إنها الحقيقة التي أخذت من سياق الآيات جهدا متواصلا يكشف أسرار تلك الحرب النفسية والإعلامية والفكرية؛ فيما يطلقون عليها في الاصطلاح الحديث (حروب الجيل الرابع) ليتمحض الأمر الآن عن حقيقةٍ واقعةٍ وواقعيةٍ تماما؛ وكذلك هي ممتدة عبر الزمان بكل وسائل المكر المتاحة.**

**(يمضي السياق في هذا الدرس على هذا النحو، حتى ينتهي إلى أن يضع المسلمين وجهاً لوجه أمام الهدف الحقيقي لأهل الكتاب من اليهود والنصارى. إنه تحويل المسلمين من دينهم إلى دين أهل الكتاب ولن يرضوا عن النبي-صلى الله عليه وسلم-حتى يتبع ملتهم، وإلا فهي الحرب والكيد والدس إلى النهاية! وهذه هي حقيقة المعركة التي تكمن وراء الأباطيل والأضاليل، وتتخفى خلف الحجج والأسباب المقنعة!!!**

**«وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ»**

**فتلك هي العلة الأصيلة. ليس الذي ينقصهم هو البرهان وليس الذي ينقصهم هو الاقتناع بأنك على الحق، وأن الذي جاءك من ربك الحق. ولو قدمت إليهم ما قدمت، ولو توددت إليهم ما توددت. لن يرضيهم من هذا كله شيء، إلا أن تتبع ملتهم وتترك ما معك من الحق.**

**إنها العقدة الدائمة التي نرى مصداقها في كل زمان ومكان. إنها هي العقيدة.) ([[101]](#footnote-101))**

**فلقد أدرك معسكر الشرك قديما دور العقيدة في بناء إمبراطورية الإسلام الراقية. ويدرك حديثا دور العقيدة في استعادة مجد هذه الأمة. لقد وعووا جيدا قول ابن خلدون في مقدمته الذي قرر فيه أن العرب أمة لا تصلح ولا تجتمع بغير دين ([[102]](#footnote-102))؛ فإذا خلوا من الدين لم يكن لهم من الانحطاط مانع، فظلت سهام الحاقدين إذن -مهما لفقوا وتدثروا بنفاقهم – موجهةً إلى قلب حضارة الإسلام (العقيدة الحية). فمن حروبٍ صريحةٍ لإبادة الإسلام، إلى حروب ناعمة في الفكر والثقافة والإعلام. ومن السيف والرمح والدبابة والطائرة والمدفع إلى الفكرة والقلم والميكروفون والمنبر. من إيقاع الفتنة بين صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد زمن الوحي بقليلٍ؛ إلى اختراع فرق الروافض والباطنية وغيرها لتكون الشوكة الملتهبة في ظهر الإسلام؛ إلى حروب الصليب الممتدة لإبادة الإسلام دفعةً واحدةً؛ ثم إنهاك خلافة المسلمين إلى إنهائها على أيدي الزنديق (مصطفى كمال أتان تورك)، إلى استخراب بلاد المسلمين بالدبابة والمدفع؛ إلى استخرابها بالاستشراق والعلمنة والمذاهب الضالة التي تولى كبرها المنافقون والعملاء من جنسنا. وكل ذلك وراءه الحقد الصهيو/نصراني الذي لن يكف حتى يزيح الدين الذي يفضح عورته على الملأ ويبين فساد أديانهم وضلالها.**

**قال الشيخ الشعرواي رحمه الله ما معناه: إذا رأيت اليهود أو النصارى قد رضوا عن أحدهم فأعلم أنه اتبع ملتهم، فهذا ظاهر قوله تعالى: «وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ ملتهم". انتهى**

**ولكن برغم تكرار الآيات وتأكيد القرآن على حجم هذه العداوة والمفاصلة التامة بين منهج الحق وسبل الباطل؛ نجد المثبطين يميِّعون المسألة دائما لصالح أسيادهم في الغرب.**

**ورحم الله الشيخ الندوي (1332 -1420هـ) إذ يقول:**

**«إن الشعوب الإسلامية والبلاد العربية - مع الأسف - ضعيفة الوعي، إذا تحرجنا أن نقول: فاقدة الوعي، فهي لا تعرف صديقها من عدوها ولا تزال تعاملهما معاملة سواء أو تعامل العدو أحسن مما تعامل الصديق الناصح وقد يكون الصديق في تعب وجهاد معها طول حياته بخلاف العدو، ولا تزال تلدغ من جحر واحد ألف مرة ولا تعتبر بالحوادث والتجارب، وهي ضعيفة الذاكرة سريعة النسيان تنسى ماضي الزعماء والقادة، وتنسى الحوادث القريبة والبعيدة، وهي ضعيفة في الوعي الديني والوعي الاجتماعي وأضعف في الوعي السياسي، وذلك ما جر عليها ويلًا عظيمًا وشقاءً كبيرًا وسلط عليها القيادة الزائفة وفضحها في كل معركة» اهـ.**

**ولكي ندرك حجم المأساة نقرأ سويةً ما قاله (جان بول سارتر) في كتابه (المنبوذون في الأرض) مبينا أساليبهم في صناعة فكر ووجدان الشرق وخصوصاً المسلمين؛ من أجل يصنعوا نسخاً مستعبدةً من الطراز الغربي السخيف، قال:**

**(كنا نحضر أبناء رؤساء القبائل، وأبناء الأشراف، والأثرياء، والسادة من إفريقيا وآسيا، ونطوف بهم بضعة أيامٍ في لندن وباريس وأمستردام. فتتغير ملا بسهم، ويلتقطون بعض أنماط الحياة الاجتماعية الجديدة. ويرتدون السترات والسراويل، ويتعلمون لغتنا، وأساليب رِقصنا، وركوب عرباتنا، وكنا نزوج بعضهم من أوروبا. ونلقنهم أساليب حياتنا على شكل جديد، وطرز جديدة من الزينة، واستهلاك أوروبي، وغذاء أوروبي.**

**قال: كنا نضع في أعماقهم أوروبا، والرغبة في تحويل بلادهم إلى أوروبا. ثم نرسلهم إلى بلادهم حيث يرددون ما نقوله بالحرف تماما مثل الثقب الذي يتدفق منه الماء في الحوض: هذه أصواتنا تخرج من أفواههم؛ وحينما كنا نصمت؛ كانت ثقوب الحوض تصمت أيضا؛ وحينما كنا نتحدث كنا نسمع انعكاسا صادقا وأمينا لأصواتنا من الحلوق التي صنعناها، وكنا واثقين أن هؤلاء المفكرين لا يملكون كلمة واحدة يقولونها غير ما وضعنا في أفواههم) انتهى كلامه.**

**إنهم يريدون أن يصرفوننا عن مصدر الرحمة الشاملة والعامة والكاملة في حياتنا؛ عن قرآننا لنكون صدى لثقافتهم وذيلا لفكرهم. وفي هذا أيضا يقول العلامة محمود شاكر في مقدمة كتاب الظاهرة القرآنية:**

**لم يكن غرض العدو أن يقارع ثقافة بثقافة، أو أن ينازل ضلالاً بهدى، أو أن يصارع باطلاً بحق، أو أن يمحو أسباب ضعف بأسباب قوة؛ بل كان غرضه الأول والأخير أن يترك في ميدان الثقافة في العالم الإسلامي، جرحى وصرعى لا تقوم لهم قائمة، وينصب في أرجائه عقولاً لا تدرك إلا ما يريد لها هو أن تعرف، ف كانت جرائمه في تحطيم أعظم ثقافة إنسانية عرفت إلى هذا اليوم، كجرائمه في تحطيم الدول وإعجازها مثلاً بمثل. وقد كان ما أراد الله أن يكون، وظفر العدو فينا بما كان يبغي ويريد. انتهى.**

**\*\*\*\*\***

**(إنها معركة العقيدة المشبوبة بين المعسكر الإسلامي وهذين المعسكرين اللذين قد يتخاصمان فيما بينهما، وقد تتخاصم شيع الملة الواحدة فيما بينها، ولكنها تلتقي دائما في المعركة ضد الإسلام والمسلمين!**

**إنها معركة العقيدة في صميمها وحقيقتها. ولكن المعسكرين العريقين في العداوة للإسلام والمسلمين يلونانها بألوان شتى، ويرفعان عليها أعلاماً شتى، في خبث ومكر وتورية.**

**إنهم قد جربوا حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة. ومن ثَمَّ استدار الأعداء العريقون فغيروا أعلام المعركة. لم يعلنوها حربا باسم العقيدة-على حقيقتها-خوفا من حماسة العقيدة وجيشانها. إنما أعلنوها باسم الأرض، والاقتصاد، والسياسة، والمراكز العسكرية. وما إليها. وألقوا في روع المخدوعين الغافلين منا أن حكاية العقيدة قد صارت حكاية قديمة لا معنى لها! ولا يجوز رفع رايتها، وخوض المعركة باسمها. فهذه سمة المتخلفين المتعصبين! ذلك كي يأمنوا جيشان العقيدة وحماستها. بينما هم في قرارة نفوسهم: الصهيونية العالمية والصليبية العالمية-بإضافة الشيوعية العالمية-جميعاً يخوضون المعركة أولاً وقبل كل شيء لتحطيم هذه الصخرة العاتية التي نطحوها طويلاً، فأدمتهم جميعاً!!!**

**إنها معركة العقيدة. إنها ليست معركة الأرض. ولا الغلة. ولا المراكز العسكرية. ولا هذه الرايات المزيفة كلها. إنهم يزيفونها علينا لغرض في نفوسهم دفين. ليخدعونا عن حقيقة المعركة وطبيعتها، فإذا نحن خدعنا بخديعتهم لنا فلا نلومن إلا أنفسنا. ونحن نبعد عن توجيه الله لنبيه-صلى الله عليه وسلم-ولأمته، وهو-سبحانه-أصدق القائلين:**

**«وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ»**

**فذلك هو الثمن الوحيد الذي يرتضونه. وما سواه فمرفوض ومردود! ولكن الأمر الحازم، والتوجيه الصادق:**

**«قُلْ: إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى»**

**هكذا على سبيل القصر والحصر. هدى الله هو الهدى. وما عداه ليس بهدى. فلا براح منه، ولا فكاك عنه، ولا محاولة فيه، ولا ترضية على حسابه، ولا مساومة في شيء منه قليل أو كثير، ومن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر. وحذار أن تميل بك الرغبة في هدايتهم وإيمانهم، أو صداقتهم ومودتهم عن هذا الصراط الدقيق. ([[103]](#footnote-103))**

**\*\*\*\***

**«وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ»**

**هنا يتساءل صاحب التحرير: ما معنى الغاية (ودلالة "حتى") فِي قوله تعالى {حتى تتبع ملتهم}؟**

**والجواب: فائدتها الكناية عن اليأس من اتباع اليهود والنصارى لشريعة الإسلام يومئذ لأنهم إذا كانوا لا يرضون إلا باتباعه صلى الله عليه وسلم ملتهم، وذلك مستحيل قطعا فهم لا يتبعون ملته ... والتصريح بلا النافية بعد حرف العطف فِي قوله: {ولا النصارى} للتنصيص على استقلالهم بالنفي وعدم الاقتناع باتباع حرف ينسقهم مع اليهود، لأنهم كانوا يظن بهم خلاف ذلك لإظهارهم شيئاً من المودة للمسلمين كما فِي قوله تعالى: {ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى} [المائدة: 82]، فجاء النفى مستقلا لهم أيضا قطعا للأمل في إنصافهم للحق.**

**ثم سأل: لم عبَّر القرآن عن طريقتهم بالملة مرة في قوله تعالى: {حتى تتبع ملتهم}، وبالأهواء مرة أخرى {ولئن اتبعت أهواءهم}؟**

**والجواب: عبر عن طريقتهم هنالك بالملة نظراً لاعتقادهم انهم أهل كتاب وعلى الحق وشهرة ذلك عند العرب، وعبر عنها هنا بالأهواء بعد أن مهَّد لدحض ما هم عليه من تحريف الدين بقوله تعالى: {إن هدى الله هو الهدى}؛ أي الهدى الحق المبني على الدلائل بغير تحريف هو هدى الله في القرآن. والهوى رأي ناشىءٌ عن شهوةٍ لا عن دليلٍ، فذكر آخر آخرا أنهم عدلوا عن الملة التي جاء بها نبيهم إلى أهواءهم الضالة. ([[104]](#footnote-104))**

**\*\*\*\*\***

**«وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ».**

**الخطاب هنا خاصٌ بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومراده العموم.**

**قال أبو حيان: في قوله تعالى: {وَلَنْ تَرْضى...} خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَّقَ رِضَاهُمْ عَنْهُ بِأَمْرٍ مُسْتَحِيلِ الْوُقُوعِ مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ اتِّبَاعُ مِلَّتِهِمْ. وَالْمُعَلَّقُ بِالْمُسْتَحِيلِ مُسْتَحِيلٌ.**

**وَهُوَ خِطَابٌ لَهُ، وَهُوَ تَأْدِيبٌ لِأُمَّتِهِ، فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ قَدْرَهُ عِنْدَ رَبِّهِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِيَتَأَدَّبَ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ، فَلَا يُوَالُونَ الْكَافِرِينَ، فَإِنَّهُمْ لَا يُرْضِيهِمْ مِنْهُمْ إِلَّا اتِّبَاعُ دِينِهِمْ.**

**وَهُوَ خِطَابٌ لَهُ، وَالْمُرَادُ أُمَّتُهُ، لِأَنَّ الْمُخَاطَبَ لَا يُمْكِنُ مَا خُوطِبَ بِهِ أَنْ يَقَعَ مِنْهُ، فَيُصْرَفُ ذَلِكَ إِلَى مَنْ يُمْكِنُ ذَلِكَ مِنْهُ، مِثْلُ قَوْلِهِ: {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ}، وَيَكُونُ تَنْبِيهًا مِنَ اللَّهِ عَلَى أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى يُخَادِعُونَكُمْ بِمَا يُظْهِرُونَ مِنَ الْمَيْلِ وَطَلَبِ الْمُهَادَنَةِ وَالْوَعْدِ بِالْمُوَافَقَةِ، وَلَا يَقَعُ رِضَاهُمْ إِلَّا بِاتِّبَاعِ مِلَّتِهِمْ. انتهى ([[105]](#footnote-105))**

**قلتُ: فليس التهديد والوعيد هنا لرسول الله-صلى الله عليه وسلم-وإنما هو للمؤمنين يردهم أن ينكصوا على أعقابهم ويميلوا إلى أولئك الهالكين فيتبعونهم في ضلالهم، ولما كان الخطاب لخير خلق الله بهذه المثابة من القوة؛ صار من الأولى أن يفهم المؤمنون مدى حمق وخسارة الذين يضعفون أمام معاول أهل الكفر والخسران وحيلهم ومكرهم، كما في المثل السائر عند العرب: (إياك أعني واسمعي يا جارة) ([[106]](#footnote-106)) يُضرب مثلاً لمن خاطب شخصا وقصد غيره على الحقيقة.**

**وهكذا كل خطابٍ لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-فيه توهُّم نوعٍ من الشدة في القرآن الكريم، فإن مَن أظهر النهى وشدَّد فيه وتوعَّد عليه لحبيبه وخليله فهو لغيره ممن دون ذلك أشد وأنكى. وهذا من فقه بلاغة اللغة في الخطاب القرآني فتأمله**

**وهذا مقصود العلامة الآلوسي حين رأيته -بعد-في روح البيان ح 1 ص 315يقول:**

**وهذه الجملة الشرطية الفرضية واردة على منهاج التهييج والإلهاب للثبات على الحق وفيه لطف للسامعين وتحذير لهم عن متابعة الهوى فإن من ليس من شأنه ذلك إذا نهى عنه ورتب على فرض وقوعه ما رتب من الانتظام ف سلك الراسخين في الظلم فما ظن من ليس كذلك.انتهى**

**قال في البحر: وَوُحِّدَتِ "الْمِلَّةُ"، وَإِنْ كَانَ لَهُمْ مِلَّتَانِ (اليهود والنصارى)، لِأَنَّهُمَا يَجْمَعُهُمَا الْكُفْرُ، فَهِيَ وَاحِدَةٌ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ، أَوْ لِلْإِيجَازِ فَيَكُونُ مِنْ بَابِ الْجَمْعِ فِي الضَّمِيرِ، نَظِيرُ: {وَقالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى}، لِأَنَّ الْمَعْلُومَ أَنَّ النَّصَارَى لَنْ تَرْضَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ، وَالْيَهُودَ لَنْ تَرْضَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ. وَقَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْكُفْرِ، أَهُوَ مِلَّةٌ وَاحِدَةٌ أَوْ مِلَلٌ؟ وَثَمَرَةُ الْخِلَافِ تَظْهَرُ فِي الِارْتِدَادِ مِنْ مِلَّةٍ إِلَى مِلَّةٍ، وَفِي الْمِيرَاثِ، وَذَلِكَ مَذْكُورٌ فِي الْفِقْهِ.**

**وَالْأَهْوَاءُ: جَمْعُ هَوًى، وَكَانَ الْجَمْعُ دَلِيلًا عَلَى كَثْرَةِ اخْتِلَافِهِمْ، إِذْ لَوْ كَانُوا عَلَى حَقٍّ لَكَانَ طَرِيقًا وَاحِدًا، كما قال تعالى: {وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً}. وَأَضَافَ الْأَهْوَاءَ إِلَيْهِمْ لِأَنَّهَا بِدَعُهُمْ وَضَلَالَاتُهُمْ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ أَصْحَابُ الْبِدَعِ: أَرْبَابَ الْأَهْوَاءِ. انتهى ([[107]](#footnote-107))**

**وفي (أَهْوَاءَهُمْ) إِنما جمع ولم يقل (هواهم)، لأن جميع الفرق ممن خالف النبي -صلى الله عليه وسلم -لم يكن ليرضيهم منه إلا أتباع هواهم، ثم إن القوم اختلفوا على أنفسهم في كفرهم بعقائدَ ومللٍ شتى، لا يجمعهم سوى الحرب على الإسلام.**

**ثم فيه تنبيه أن الحق واحدٌ والهوى يتشعب بأصحابه لكلٍ منهم هوى غير صاحبه.**

**ثم هوى كل واحد منهم لا يتناهى، ونحو ذلك قوله تعالى: {وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}، وقوله: {قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ}، وقوله للمؤمنين: {وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ}، وقال: {وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}، وذلك تحذير من الهوى جملةً.**

**وقد تعلق بهده الآية من يجعل الكفر كله ملةً واحدة، لأنه جمع بين اليهود والنصارى، وسمي طريقتهما ملة واحدة. وهم في حربهم على الإيمان والحق ملةٌ واحدة، أما في ذوات أنفسهم فشتى.**

**\*\*\*\***

**وقوله تعالى: {بَعْدَ الَّذِي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ} أي من الدِّينِ وَجَعَلَهُ عِلْمًا، لِأَنَّهُ معلوم بالبراهين الصحيحة. وقيل: العلم هنا القرآن ببراهينه الساطعة، والأمر أعم يشمل الإسلام والقرآن والشريعة وغيره.**

**وفي هذه الجملة نكتٌ بديعة: فقد جعل الدين علما يحتاج المتكلم فيه إلى التعلم أولاً، ومثله قوله تعالى {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} الآية (محمد: 19) رداً على الخائضين في دين الله بالباطل وبغير علم.**

**ثم العلم في الدين علمان: علم بالله، وعلم عن الله.**

**فالعلم بالله أعلى درجات العلم، ولا يخيب صاحبه أبدا، وهو العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله الذي يورث الإيمان واليقين ويزيدهما، وأكثره من فيض الله وعطائه وتوفيقه، وفيه أكثر فقه السلف وديدنهم. وأما العلم عن الله؛ فهو علم الفقه والفروع والمسائل وغير ذلك وربما نفع صاحبه إن عمل به أو ضره إن خالفه، وربما أتى أكثره بالاكتساب، وهو أكثر علوم الخلف.**

**وأما اللطيفة الأخرى فهى أن قوله تعالى {بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ} [البقرة: 120] جاءت بإظهار الاسم الموصول "الذي"، في حين جاءت {بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ} بإبهام الاسم الموصول " ما" في ثلاث آيات أخرى (البقرة 145، آل عمران 61، الرعد 37). فأظهر "الذي" في الأولى إذ كان الحديث عن العلم بالله ودينه وشرعه وكتابه ودلائل أحقية دينه كلها؛ فناسب التعظيم والتعريف ب " الذي". وإنما جاءت الآيات بعد ذلك ب " ما" المبهمة إذ كان الحديث في كل منها عن العلم في مسألةٍ واحدةٍ بعينها من مسائل الدين مثل القبلة، وخلق عيسى من تراب كآدم عليهما السلام، وتنزيل الكتاب على الترتيب. فسبحان الله وبحمده، والله أعلم بأسرار كتابه.**

**\*\*\*\***

**وفي قوله تعالى: {مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ} قَطْعٌ لِأَطْمَاعِهِمْ أَنْ يتبعَ مؤمنٌ أهواءهم، لِأَنَّ مَنْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا وَلِيَّ لَهُ وَلَا نَصِيرَ يَنْفَعُهُ إِذَا ارْتَكَبَ شَيْئًا كَانَ أَبْعَدَ فِي أَنْ لَا يَرْتَكِبَهُ، وَذَلِكَ إِيَاسٌ لَهُمْ من غواية المؤمنين.**

**(فإن قيل لم عطف النصير على الولى في قوله تعالى {مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ}؟**

**فالجواب: عطف النصير على الولي احتراساً لأن نفي الولي لا يقتضي نفيَ كلِ نصيرٍ، فربما لم يكن لهم وليٌ، ولكن وجدوا مَن ينصرهم. وكان القصد من نفي الولاية التعريض بهم فِي اعتقادهم أنهم أبناء الله وأحباؤه فنفى ذلك عنهم حيث لم يتبعوا دعوة الإسلام ثم نفى الأعم منه وهو النصرة. انتهى بتصرف كثير). ([[108]](#footnote-108))**

**\*\*\*\***

# {...يتلونه حق تلاوته...}

**قال تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (121) يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (122) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (123)} [البقرة: 121 -123]**

**جاءت الآيات في استئناف الخطاب المتصل لبني إسرائيل وبيان انحرافاتهم؛ والخطاب في باب التذكير والعظة ومن وجهٍ آخر هو أيضا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم يتصل وثيقا بما قبله فبعد أن بيَّنت الآيات بما مجال للين فيه أن طريق الحق مغاير تماما لتيه أهوائهم بقوله تعالى: {قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى} أي هو الهدى الحقيقي وما سواه ضلال، شرعت الآيات تقيم هذا الطريق على ما جاء من العلم في كتب الله التي تعاضدت على تثبيت توحيده وطاعته والإيمان به وبرسله. والإشارة العامة هنا إلى {الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ} أى واصطفيناهم من بين الأمم بإرسال الرسل وهم {يَتْلُونَهُ} أى الكتاب متأملين متدبرين لما يشتمل عليه من الأوامر والنواهي والمعارف والحقائق مراعين {حَقَّ تِلاوَتِهِ} بلا تحريفٍ ولا تبديل {أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} وبما فيه من الأحكام والآيات والأخبار {وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ} بتحريفه وتبديله إلى ما تهوى أنفسهم {فَأُولئِكَ} المحرِّفون المغيِّرون كتابَ الله لمصلحة نفوسهم {هُمُ الْخاسِرُونَ} المقصورون على الخسران المؤبد والحرمان المخلد، وكأن الخسران لهم وحدهم.**

**قال الرازي: التلاوة لها معنيان. أحدهما: القراءة. والثاني: الإتباع فعلاً، لأن من اتبع غيره يقال تلاه فعلاً، قال الله تعالى: {والقمر إِذَا تلاها} (الشمس: 2) فالظاهر أنه يقع عليهما جميعاً، ويصح فيهما جميعاً المبالغة لأن التابع لغيره قد يستوفي حق الاتباع فلا يخل بشيء منه، وكذلك التالي يستوفي حق قراءته فلا يخل بما يلزم فيه، والذين تأولوه على القراءة هم الذين اختلفوا على وجوه.**

**فأولها: أنهم تدبروه فعملوا بموجبه حتى تمسكوا بأحكامه من حلال وحرام وغيرهما.**

**وثانيها: أنهم خضعوا عند تلاوته، وخشعوا إذا قرأوا القرآن فِي صلاتهم وخلواتهم.**

**وثالثها: أنهم عملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه، وتوقفوا فيما أشكل عليهم منه وفوضوه إلى الله سبحانه. ورابعها: يقرأونه كما أنزل الله، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يتأولونه على غير الحق.**

**وخامسها: أن تحمل الآية على كل هذه الوجوه لأنها مشتركة فِي مفهوم واحد، وهو تعظيمها، والانقياد لها لفظاً ومعنى، فوجب حمل اللفظ على كل ذلك تكثيراً لفوائد كلام الله تعالى والله أعلم. ([[109]](#footnote-109))**

**سؤال: فإن قيل لم جيء قولُه تعالى: {أولئك يؤمنون به} باسم الإشارة فِي تعريفهم دون الضمير وغيره؟**

**والجواب: أن ما ذكره الله تعالى من مدحهم بصفات اتباع الكتاب حق الاتباع بغير تحريفٍ ولا تملصٍ من تكاليفه يستأهل ذلك الإشارة إليهم بما يعظم شأنهم {أولئك} ويحصر المعنى الحقيقي للإيمان بكتاب الله فيهم، وفي مقابل ذلك تماما قوله تعالى: {ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون} أي: الكاملون فِي الخسران.**

**\*\*\*\*\***

**والخطاب هكذا بعمومه وإبهامه في كل الذين آتاهم الله الكتاب ويتلونه حق تلاوته من اليهود والنصارى والمسلمين وقد خالفوا طريق أهل الخسران والكفران. فقد أفاد هذا الإبهام والعموم الكثير في إطلاق الحكم الشامل الذي يحض كل ذي دينٍ على اتباع الحق والنظر في العواقب والتمسك بصحيح كتب الله والإيمان برسالة نبينا عليه الصلاة والسلام؛ قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157) قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158) وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [الأعراف: 157 - 159] وهم الذين وصفهم ممن أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وآمن به من أعقابهم مثل عبد الله بن سلام رضى الله عنه.**

# نكتةٌ في بدائعِ آياتٍ من متشابهاتِ القرآن.

**ولأجل ذلك يستمر السياق في تذكير بني إسرائيل وتبكيتهم على تقاعسهم عن العمل بمقتضى ما علمهم الله من الحق الذي حرفوه واتبعوا أهواءهم فضلوا؛ قال تعالى: {يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} (البقرة 122) وهذه الآية تكررت في الآية رقم (47) من سورة البقرة نفسها، وقد كانت في سياق تذكيرٍ عام بضربات خاطفة تمثل سياطا من المواعظ متلاحقة لتنبه أولئك المتخاذلين عن الحق من بني إسرائيل. ثم تجئ الآية هنا في سياق التذكير بعد تفصيلٍ طويل لمخازي القوم وعنادهم وحربهم على دين الله تعالى، وكأن الآية الأولى في ترقيق القلوب للحق أكثر منها في الآية الثانية التي بها التوبيخ والتبكيت بعدما أمعن القوم في نبذهم لكتاب الله وراء ظهورهم وحربهم لدينه؛ تنهي ما بدأه السياق الزاجر لأهل الكتاب. فتبين أن تكرار الآيات في كل موضعٍ له غايته وحكمته، والله أعلم.**

**وفي الآية الأولى {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ} (البقرة: 48). ثم إن الآية هنا {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ} (البقرة: 123)، وقد تكلم علماء المتشابهات في القيمة الدلالية لهذا التشابه الظاهري بين الآيتين، ثم تبينت لي لطيفةٌ قرآنية بديعة.**

**ففي الآية (123) {وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ} والحديث فيها عن النفس المشفوع لها، وقد ذكرت الآية أنها لا تُقبل منها فدية ولا تنفعها شفاعة الشافعين، والخطاب هنا متسق تماما مع التخبط الذي يمر به الدهماء من اليهود والنصارى الذين يقولون لبعضهم أنهم ليسوا على شيء؛ بل ادعوا لله الولد – سبحانه-فأولئك المغرورون الذين ادعوا أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى، لن تنفعهم شفاعة الذين أضلوهم وحرفوا كتابهم من أحبارهم. فالخطاب هنا لعوام أهل الكتاب، يخوفهم ذلك اليوم الذي لا تقبل فيه الفدية، ولا تنفعهم الشفاعة.**

**وفي آية (48) {وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ} كان الحديث عن الأحبار والعلماء من بني إسرائيل الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، فجاء الخطاب متسقا بأن أولئك الكاذبين لا تُقبل شفاعتهم في أحدٍ حيث لم ينفعهم علمهم في الدنيا، ولا يبقى لهم جاهٌ في الآخرة يوم ينكشف زيفهم أمام من أضلوه من عوامهم؛ بل لا يؤخذ منهم فديةٌ تقيهم حر العذاب الأليم.**

**فتأمل كيف اتسق الخطاب وترتيب الكلام ونظمه مع السياق الخطابي والخط الدلالي في الآيات بحيث يرى الرائي الأمر تكرارا؛ ويراه المتأمل البصير دقةً وحكمةً بالغةً في وضع كل كلمةٍ في موضعها اللائق بها تماما. والله أعلم.**

# إبراهيم عليه السلام

**قال تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129) وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134)} (البقرة: 124 – 134)**

## بين يدىْ الآيات والتربية الإيمانية في سورة البقرة

**فصلٌ جديدٌ في جدال القرآن الماتع مع أولئك المارقين من اليهود والنصارى الذين احتكروا النسبة إلى إبراهيم عليه السلام وأخذوا يتنازعونه فيما بينهم فيدعي كل قومٍ أنه منهم، هذا الادعاء الباطل الذي يتناوله النص الكريم في سورة آل عمران بمزيد تفصيل ويجيب عنه بكل صراحة { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (65) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (66)مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (68) وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (69) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ } (آل عمران: 65 – 70).**

**وهنا في سورة البقرة يبدأ الحديث عن أبي الأنبياء إبراهيم -عليه السلام-وقد كان أمةً وحده، بإيمانه ويقينه وطاعته لله تعالى، وقد وضعه القرآن في مكانةٍ عظيمة {قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} ( البقرة 124). وإبراهيم عليه السلام مدرسةٌ راقيةٌ للتوحيد والطاعة، ومثالٌ من أمثلة القرآن العليا كما قال الله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (النحل: 120 – 123).**

**وهذا الانتقال المفاجئ من الحديث عن انحرافات بني إسرائيل إلى ذكر سيدنا إبراهيم فيه تلك الدلالة الراقية على انتقال راية الملة الإبراهيمية من يد القوم الذين فرَّطوا في دينهم وكانوا شيعا، وحرفوا كتب ربهم، وقتلوا أنبياءه إلى يد المسلمين لله حقا المؤمنين بوريث إبراهيم -عليه السلام -وحامل راية التوحيد من بعده سيدنا محمد -صلوات الله وسلامه عليه.**

**وإذا كانت سورة البقرة تضع الدعائم الأصيلة لمنهج الإسلام عقيدةً وفكرا وعملا وسلوكا وسياسةً واجتماعاً، ففي هذه الآيات امتدادٌ لتربية أمة الخلود؛ أمة محمد – صلى الله عليه وسلم-التي تنتزع راية التوحيد والإسلام لتقوم بها إلى يوم الدين.**

**وقد ورد ذكر سيدنا إبراهيم في القرآن الكريم (69) مرة في (25) سورة. وقد ذُكر في كل موضعٍ بدرس جديدٍ من دروس الإيمان والتربية الربانية يمثله حضور مواقف هذا النبى العظيم الذي يمثل أرقى درجات اليقين والإيمان، وكل أنبياء الله -عليهم جميعا السلام -كذلك. وهذه هي القيمة الأولى لذكر الأنبياء وقصصهم في كتاب الله تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (يوسف: 111). ولقد جاء القرآن – كما جاءت رسالة محمد -صلوات الله عليه – وحياته الشريفة تجسيدا حيا لكل قيم وأخلاق وعظمة الأنبياء قبله. وهذا ما نفهمه جليا من قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ} (الأنعام: 90)، ثم يأتي القول الفصل لهذا المعنى من اجتماع عظمة كل الأنبياء والشرائع في عظمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وشرعه في قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} (القلم: 4). وهذا هو مغزى وأصل منهج التربية الإيمانية في القرآن كله وفي سورة البقرة خصوصاً، فتأمل.**

## التفسير.

**اعلم أنه سبحانه وتعالى لما استقصى في شرح وجوه نعمه على بني إسرائيل ثم في شرح قبائحهم في أديانهم وأعمالهم، وختم هذا الفصل بما بدأ به وهو قوله: {يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي}؛ شرع سبحانه هاهنا في ذكر قصة إبراهيم عليه السلام وكيفية أحواله، والحكمة فيه أن إبراهيم عليه السلام شخصٌ يعترف بفضله جميع الطوائف والملل، فالمشركين كانوا معترفين بفضله متشرفين بأنهم من أولاده ومن ساكني حرمه وخادمي بيته. وأهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا أيضا مقرين بفضله متشرفين بأنهم من أولاده، فحكى الله سبحانه وتعالى عن إبراهيم -عليه السلام-أمورا توجب على الجميع قبول دين محمد صلى الله عليه وسلم، والانقياد لشرعه، وبيانه من وجوه:**

**أحدها: أنه تعالى لما أمره ببعض التكاليف فلما وفَّى بها نال النبوة والإمامة. وهذا مما ينبه اليهود والنصارى والمشركين على أن الخير لا يحصل في الدنيا والآخرة إلا بترك التمرد والعناد والانقياد لحكم الله تعالى وتكاليفه.**

**وثانيها: أنه تعالى حكى عنه أنه طلب الإمامة لأولاده فقال الله تعالى: {لا ينالُ عهدي الظالمين} فدل ذلك على أن منصب الإمامة والرياسة في الدين لا يصل إلى الظالمين، فهؤلاء إن أرادوا الإمامة في الدين وجب عليهم ترك اللجاج والتعصب للباطل.**

**وثالثها: أن الحَج من خصائص دين محمد صلى الله عليه وسلم، فحكى الله تعالى ذلك عن إبراهيم ليكون ذلك كالحُجة على اليهود والنصارى في وجوب الانقياد لذلك.**

**ورابعها: أن القبلة لما حُوِّلت إلى الكعبة شق ذلك على اليهود والنصارى، فبيَّن الله تعالى أن هذا البيت قبلة إبراهيم الذي يعترفون بتعظيمه.**

**وخامسها: أن من المفسرين من فسر الكلمات التي ابتلى الله تعالى إبراهيم بها بأمور يرجع حاصلها إلى الصبر على ما ابتلي به في دين الله تعالى، ثم الانقياد لأحكامه تعالى، وهذا يوجب على هؤلاء الذين يعترفون بفضله أن يتشبهوا به في ذلك ويسلكوا طريقته في ترك الحسد والحمية وكراهة الانقياد لمحمد صلى الله عليه وسلم، فهذه الوجوه التي لأجلها ذكر الله تعالى قصة إبراهيم عليه السلام. ([[110]](#footnote-110))**

**\*\*\*\*\***

**وَ{إِذِ} للتنبيه والْعَامِلُ فِيهِ عَلَى مَا ذكروا محذوف، وقدروه: واذْكُرْ إِذِ ابْتُلِيَ إِبْرَاهِيمُ، وَالِابْتِلَاءُ ([[111]](#footnote-111)): الِاخْتِبَارُ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ الله تعالى كَلَّفَهُ بِأَوَامِرَ وَنَوَاهٍ. وَالله تَعَالَى عَالِمٌ بِمَا يَكُونُ مِنْهُ. قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: وَاخْتِبَارُ اللَّهِ عَبْدَهُ مَجَازٌ عَنْ تَمْكِينِهِ مِنَ اخْتِيَارِ أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ: مَا يُرِيدُ اللَّهُ، وَمَا يَشْتَهِيهِ الْعَبْدُ، كَأَنَّهُ امْتَحَنَهُ مَا يَكُونُ مِنْهُ حَتَّى يُجَازِيَهُ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ. انْتَهَى كَلَامُهُ، وَفِيهِ دَسِيسَةُ الِاعْتِزَالِ. ([[112]](#footnote-112))**

**ففي عقيدة القوم أن الاختيار للعبد في أفعاله دون حكم القدر، وهكذا شطره الحق وأصله الباطل، فالرب سبحانه يعلم ويقدِّر؛ وعلمه وقدره نافذيْن، والعبد يفعل لا عن جبرٍ؛ وهو محاسَبٌ على فعله واختياره دون ظلمٍ. وهذا اعتقاد أهل الحق، وله ذيول ومناقشات محلها كتب العقيدة، وإنما أردت التنويه على دسائس الزمخشري في كتابه التي لا يتفطن لها سوى المحققين رغم قوة الرجل في علوم البلاغة القرآنية، وقد علَّمَنا علماؤنا الإنصاف.**

**وقِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ عَلَى أَنَّ الْفَاعِلَ هنا هُوَ الرَّبُّ سبحانه {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ ...}، وَتَقَدَّمَ مَعْنَى ابْتِلَائِهِ إِيَّاهُ أنه اختباره ليظهر كيف يفعل وهو أعلم به. ([[113]](#footnote-113)) قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَقَدَّمَ الْمَفْعُولَ لِلِاهْتِمَامِ بِالذي وَقَعَ عليه الِابْتِلَاءُ، إِذْ مَعْلُومٌ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْمُبْتَلِي. وَإِيصَالُ ضَمِيرِ الْمَفْعُولِ بِالْفَاعِلِ مُوجِبٌ لِتَقْدِيمِ الْمَفْعُولِ. انْتَهَى كَلَامُهُ، وَكَوْنُهُ مِمَّا يَجِبُ فِيهِ تَقْدِيمُ الْفَاعِلِ هُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ من علماء النحو. وَقَدْ جَاءَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ مِثْلِ: ضَرَبَ زَيْدًا سيدُهُ، وَقَدْ طَوَّلَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَلَيْسَتْ مِنَ الْمَسَائِلِ الَّتِي يُطَوَّلُ فِيهَا لِشُهْرَتِهَا فِي الْعَرَبِيَّةِ.**

**وَالْكَلِمَاتُ التي ابتلى بها إبراهيم عليه السلام لَمْ تُبَيَّنْ فِي الْقُرْآنِ مَا هِيَ، وَلَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ، وَلِلْمُفَسِّرِينَ فِيهَا أَقْوَالٌ: ذكروها.... ([[114]](#footnote-114))**

**وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {بِكَلِماتٍ} أَيْ: بِشَرَائِعَ وَأَوَامِرَ وَنَوَاهٍ، فَإِنَّ الْكَلِمَاتِ تُطْلَقُ، وَيُرَادُ بِهَا الْكَلِمَاتُ الْقَدَرِيَّةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ: {وَصَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها وَكُتُبِهِ وَكانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ} (التَّحْرِيمِ: 12) وَتُطْلَقُ، وَيُرَادُ بِهَا الشَّرْعِيَّةُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلًا} (الْأَنْعَامُ: 115) أَيْ:كَلِمَاتُهُ الشَّرْعِيَّةُ، وَهِيَ إِمَّا خَبَرُ صِدْقٍ، وَإِمَّا طَلَبُ عَدْلٍ إِنْ كَانَ أَمْرًا أَوْ نَهْيًا، وَمِنْ ذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ: {وَإِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ}. ([[115]](#footnote-115))**

**وهنا قاعدة من قواعد التفسير: ما جاء في كتاب الله تعالى مجملاً مبهماً، فلا فائدةَ في تفصيله وتفسيره إلا أن تفسره السنة الصحيحة أو يتعلق بالأحكام التكليفية فيُنظر في إجماله.**

**ونقرأ هنا قول العلامة ابن كثير في مقدمة تفسيره:**

**وَيَأْتِي عَنِ الْمُفَسِّرِينَ خِلَافٌ بِسَبَبِ ذَلِكَ، كَمَا يَذْكُرُونَ فِي مِثْلِ هَذَا أَسْمَاءَ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، ولون كلبهم، وعددهم، وَعَصَا مُوسَى مِنْ أَيِّ الشَّجَرِ كَانَتْ، وَأَسْمَاءَ الطُّيُورِ الَّتِي أَحْيَاهَا اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ، وَتَعْيِينَ الْبَعْضِ الَّذِي ضُرِبَ بِهِ الْقَتِيلُ مِنَ الْبَقَرَةِ، وَنَوْعَ الشَّجَرَةِ الَّتِي كَلَّمَ اللَّهُ مِنْهَا مُوسَى، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَبْهَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِي تَعْيِينِهِ تَعُودُ على المكلفين في دينهم ولا دنياهم.**

**وَلَكِنَّ نَقْلَ الْخِلَافِ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ جَائِزٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى:**

**{سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ، وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ، قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلَّا مِراءً ظاهِراً وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً} (الْكَهْفِ: 22).**

**فَقَدِ اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى الْأَدَبِ فِي هَذَا الْمَقَامِ وَتَعْلِيمِ مَا يَنْبَغِي فِي مِثْلِ هَذَا، فَإِنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ عَنْهُمْ بِثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ ضَعَّفَ الْقَوْلَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ وَسَكَتَ عَنِ الثَّالِثِ، فَدَلَّ عَلَى صِحَّتِهِ إِذْ لَوْ كَانَ بَاطِلًا لَرَدَّهُ كَمَا رَدَّهُمَا، ثُمَّ أَرْشَدَ على أن الاطلاع عَلَى عِدَّتِهِمْ لَا طَائِلَ تَحْتَهُ فَقَالَ فِي مِثْلِ هَذَا: {قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ }، فَإِنَّهُ ما يعلم ذلك إِلَّا قَلِيلٌ مِنَ النَّاسِ مِمَّنْ أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَلِهَذَا قَالَ: {فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلَّا مِراءً ظاهِراً} أَيْ لَا تُجْهِدْ نَفْسَكَ فِيمَا لَا طَائِلَ تَحْتَهُ، وَلَا تَسْأَلْهُمْ عَنْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا رَجْمَ الْغَيْبِ.**

**فَهَذَا أَحْسَنُ مَا يَكُونُ فِي حِكَايَةِ الْخِلَافِ: أَنْ تَسْتَوْعِبَ الْأَقْوَالَ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ وَأَنْ تُنَبِّهَ عَلَى الصَّحِيحِ مِنْهَا، وَتُبْطِلَ الْبَاطِلَ، وَتَذْكُرَ فَائِدَةَ الْخِلَافِ وَثَمَرَتَهُ لِئَلَّا يَطُولَ الْنِزَاعُ وَالْخِلَافُ فِيمَا لَا فَائِدَةَ تَحْتَهُ، فَتَشْتَغِلُ بِهِ عَنِ الْأَهَمِّ فَالْأَهَمِّ. انتهى ([[116]](#footnote-116))**

**والخلاصة أن الكلمات التي ابتُلى بها إبراهيم جاءت في صيغة النكرة التي تعم كل ما أُمر به عليه السلام من تكاليف الدين والنبوة والدعوة والشرع، والمقصود هنا هو بيان اضطلاعه بها عليه السلام على أتم الوجوه فنال المدح الرباني والقرب الإلهي. وهو الوفاء بها المذكور في قوله: {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى}.**

**(وفي ابتداء قصته بقوله: {بكلمات فأتمهن} بيانٌ لأنَّ أسنى أحوال العباد الإذعان والتسليم لمن قامت الأدلة على صدقه والمبادرة لأمره دون اعتراض ولا توقف ولا بحث عن علة، وفي ذلك إشارة إلى تبكيت المدعين لاتباعه من بني إسرائيل حيث اعترضوا في ذبح البقرة وارتكبوا غاية التعنت مع ما في ذبحها من وجوه الحكم بعد أن أساؤوا الأدب على نبيهم في ذلك وفي غيره في أول أمرهم وأثنائه وآخره فأورثهم ذلك نكالاً وبعداً، فظهر أن الصراط المستقيم حال إبراهيم ومن ذكر معه من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وأنهم الذين أنعم الله عليهم المذكورون في آخر الفاتحة). ([[117]](#footnote-117))**

**{قَالَ} – أي ربنا تبارك وتعالى لإبراهيم عليه السلام: {إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً} أَيْ: جزاء على ما فعل، لما قَامَ بِالْأَوَامِرِ وَتَرَكَ الزَّوَاجِرَ جَعَلَهُ اللَّهُ لِلنَّاسِ – كافةً-قُدْوَةً، وَإِمَامًا يُقْتَدَى بِهِ وَيُحْتَذَى حَذْوَهُ.**

**(سَأَلَ رجل الشَّافِعِي-رحمه الله-فَقَالَ: يَا أَبَا عبد الله، أَيّمَا أفضل للرجل أَن يُمَكَّن أَو يَبْتَلِي؟**

**فَقَالَ الشَّافِعِي: لَا يُمكَّن حَتَّى يبتلى. فَإِن الله ابْتُلِيَ نوحًا وَإِبْرَاهِيم ومُوسَى وَعِيسَى ومحمدا صلوَات الله وَسَلَامه عَلَيْهِم أَجْمَعِينَ فَلَمَّا صَبَرُوا مكنهم.**

**قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} [السجدة: 24] فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَهُمْ أَئِمَّةً يَأْتَمُّ بِهِمْ مَنْ بَعْدَهُمْ لِصَبْرِهِمْ وَيَقِينِهِمْ؛ إذْ بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ تُنَالُ الْإِمَامَةُ فِي الدِّينِ. فَإِنَّ الدَّاعِيَ إلَى اللَّهِ تَعَالَى لَا يَتِمُّ لَهُ أَمْرُهُ إلَّا بِيَقِينِهِ لِلْحَقِّ الَّذِي يَدْعُو إلَيْهِ، وَبَصِيرَتِهِ بِهِ، وَصَبْرِهِ عَلَى تَنْفِيذِ الدَّعْوَةِ إلَى اللَّهِ بِاحْتِمَالِ مَشَاقِّ الدَّعْوَةِ، وَكَفِّ النَّفْسِ عَمَّا يُوهِنُ عَزْمَهُ وَيُضْعِفُ إرَادَتَهُ. فَمَنْ كَانَ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ كَانَ مِنْ الْأَئِمَّةِ الَّذِينَ يَهْدُونَ بِأَمْرِهِ تَعَالَى.). ([[118]](#footnote-118))**

**وَقَوْلُهُ تعالى: {قَالَ: وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ: لَا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} لما جعل الله إبراهيم إماما سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته فأجيب إلى ذلك وأُخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون، وأنه لا ينالهم عهد الله ولا يكونون أئمةً فلا يقتدى بهم، والدليل على أنه أجيب إلى طِلبته قوله تعالى في سورة العنكبوت: {وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ} (الْعَنْكَبُوتِ: 27) فكل نبيٍ أرسله الله، وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم ففي ذريته صلوات الله وسلامه عليه.**

**ووجه الجمع بين الآيتين بقليل تدبرٍ أن الله تعالى أجاب إبراهيم عليه السلام بكرامته عنده أن يجعل النبوة في ذريته، ولكن في الصالحين منهم، ولا ينال عهده الظالمون الزائغون. أَلَا تَرَى أَنَّهُ سبحانه قَالَ: {وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلى إِسْحاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ} (الصافات:113)، وفي هذا تعريضٌ لطيف ببني إسرائيل ونكوصهم عن دعوة الحق التي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام. ولعل هذا هو مفتاح الخطاب وليس خلاف المفسرين في المقصود بعهد الله هنا فهو ظاهرٌ في الإمامة في الدين.**

**قال البغوي: ومعنى الآية لا ينال ما عهدت إليك من النبوة والإمامة من كان ظالما من ولدك. وقيل: أراد بالعهد الأمان من النار وبالظالم المشرك كقوله تعالى: "الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن" (82-الأنعام). ([[119]](#footnote-119))**

**\*\*\*\*\***

**وأنقل هنا كلاما خطيرا للزمخشري يؤيد فيه موقف قومه المعتزلة من الخروج على حكام المسلمين بالسيف وإراقة الدماء البريئة وخلق الفتن وهذا الموقف عينه عند الخوارج وإن اختلف في شدته بينهم، ويسمونه عند المعتزلة بأصل" الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" تلبيسا فتنبه كم جر ويلاتٍ على الأمم، يقول: -**

**وقالوا: في هذا دليل على أن الفاسق لا يصلح للإمامة (أقول: يقصد الإمامة الكبرى أي الحكم والخلافة). وكيف يصلح لها من لا يجوز حكمه وشهادته، ولا تجب طاعته ولا يقبل خبره، ولا يقدّم للصلاة. وكان أبو حنيفة رحمه اللَّه يفتي سراً بوجوب نصرة زيد بن علىّ رضوان اللَّه عليهما، وحمل المال إليه، والخروج معه على اللص المتغلب المسمى بالإمام والخليفة، كالدوانيقى وأشباهه. وقالت له امرأة: أشرت على ابني بالخروج مع إبراهيم ومحمد ابني عبد اللَّه بن الحسن حتى قتل. فقال: ليتني مكان ابنك. وكان يقول في المنصور وأشياعه: لو أرادوا بناء مسجد وأرادوني على عدّ آجره لما فعلت. وعن ابن عيينة: لا يكون الظالم إماما قط. وكيف يجوز نصب الظالم للإمامة، والإمام إنما هو لكف الظلمة. فإذا نصب من كان ظالما في نفسه فقد جاء المثل السائر: من استرعى الذئب ظلم. انتهى ([[120]](#footnote-120))**

**أقول: وهذا الذي قال الزمخشري وغيره -ضمنياً -في الخروج على الأئمة بالسيف مردودٌ جملةً وتفصيلا؛ وإن طولوا فيه حتى تطاول الجصاص في أحكامه ونسب الغلط في الفهم لما سماه " أغمار أهل الحديث"، وأهل الحديث أعلام شوامخ وهم أهل الاتباع والنصح للدين، رغم أنف كل حاقد.**

**فعقيدة أهل الحق أن الخروج على الحاكم المسلم ما دام يقيم الصلاة في المسلمين، ولم يكفر كفر صريحا لا تأويلَ ولا شبهةَ فيه؛ الخروج عليه حرام، وإن كان فاسقا أو جائرا، وإنما تجب مناصحته بالمعروف على من يقدر على ذلك، لما في ذلك الخروج من إشعال الفتن وإراقة الدماء وخصوصا إن كان له عصبيةٌ وشوكةٌ تمنعه، وما حدث الأمس ويحدث اليوم من هلاك الزرع والحرث والنسل إنما سببه التنكر لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الواضحة في هذا الشأن كما ورد في كثرةٍ من الأحاديث الصحيحة لا يمكن أن يتجاهلها مؤمنٌ.**

**وَمنها ما روى البخاري ومسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجماعة شبرا فمات، فميتته جَاهِلِيَّةٌ"، وَفِي رِوَايَةٍ: "فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ".**

**وفي صحيح ابن حبان عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:**

**(اسْمَعْ وَأَطِعْ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ وَإِنْ أَكَلُوا مَالَكَ وَضَرَبُوا ظَهْرَكَ إِلَّا أَنْ يكون معصية) والحديث صحيح كما في (الظلال 1026)، (الصحيحة 3418). (إلا أن يكون معصية) فلا طاعة لمخلوقٍ أبداً في معصية الخالق.**

**وفيه أيضا بسند صحيح أن أبا أُمَامَةَ الْبَاهِلِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَخَطَبَنَا فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ الْجَدْعَاءِ وَتَطَاوَلَ فِي غَرْزِ الرَّحْلِ ـ فَقَالَ:**

**(أَيُّهَا النَّاسُ) فَقَالَ رَجُلٌ فِي آخِرِ النَّاسِ: مَا تَقُولُ ـ أَوْ مَا تُرِيدُ ـ فَقَالَ:**

**(أَلَا تَسْمَعُونَ؛ أَطِيعُوا رَبَّكُمْ، وصَلُّوا خمسكم، وأدُّوا زكاة أموالكم، وأطيعوا أمراءكم تَدْخُلُوا جُنَّةَ رَبِّكُمْ). (الصحيحة 867).**

**وقد روى ابن حبان بعد ذلك تخصيص ذلك بالطاعة في طاعة الله فقط، وقدر الاستطاعة بغير عنت، ويدل الحديث على تحريم الخروج على الحكام وإن ظلموا كما وضح ذلك في الحديث الصريح المروي عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ"، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ عِنْدَ ذَلِكَ؟ قَالَ: "لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ أَلَا مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ، فَرَآهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا من طاعته". رواه مسلم وغيره. فَإِذَا أَرَادَ الرَّعِيَّةُ أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ ظُلْمِ الْأَمِيرِ الظَّالِمِ، فَلْيَتْرُكُوا الظُّلْمَ بينهم وما أكثره. وكما قال على رضى الله عنه: كما أنتم يُوَلَّى عليكم.**

**ولذلك قال الإمام الطحاوي في عقيدة أهل السنة و(الأئمة الأربعة): "وَلَا نَرَى الْخُرُوجَ عَلَى أَئِمَّتِنَا وَوُلَاةِ أُمُورِنَا، وَإِنْ جَارُوا، وَلَا نَدْعُو عَلَيْهِمْ، وَلَا نَنْزِعُ يَدًا مِنْ طَاعَتِهِمْ، وَنَرَى طَاعَتَهُمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَرِيضَةً، مَا لَمْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَةٍ، وَنَدْعُو لَهُمْ بِالصَّلَاحِ وَالْمُعَافَاةِ".**

**وأما دعوى أن الآية من حجة أولئك المتحذلقين، فلا صحة لذلك إذ أن العهد والإمامة المذكورة في الآية هي الإمامة في الدين. وما أكثر ما يجتر المفسرون الكثير من المباحث الاستطرادية ويحملون الآيات عليها دون النظر إلى وضوح ظاهرها دون تعقيد، وخصوصا في باب الأحكام، ثم ينقل بعضهم عن بعضٍ دون تريثٍ أو تأدبٍ في التعامل مع كلام الله تعالى الذي جاء لهداية البشرية لحقوق العبودية، ولم يأتِ قصاصات يتأوَّلها المتأوِّلون ويتحكمون بما تمليه تفريعاتهم في آيات الله، ثم تخرج الفتاوى والأحكام التي تهلك الحرث والنسل.**

**ويكفي لذلك مثلا مردودا ما قاله صاحب الظلال عند هذه الآية:**

**والإمامة الممنوعة على الظالمين تشمل كل معاني الإمامة: إمامة الرسالة، وإمامة الخلافة، وإمامة الصلاة. وكل معنى من معاني الإمامة والقيادة.**

**فالعدل بكل معانيه هو أساس استحقاق هذه الإمامة في أية صورة من صورها. ومن ظلم-أي لون من الظلم-فقد جرد نفسه من حق الإمامة وأسقط حقه فيها بكل معنى من معانيها. ([[121]](#footnote-121))**

**\*\*\*\*\***

**(لطيفةٌ)**

**في قوله تعالى {فأتمهن} أى عمل بهن واحدةً تلو أخرى على التمام، ففي التمام معنى أن الجزء مع الجزء يتمم بعضه بعضا حتى يكتمل. أما معنى الكمال فهو غاية الاكتمال للكل باجتماع أجزائه، فالتمام يقصد أكثره إلى التجزؤ والتطور شيئا بعد شيءٍ فيما يجتمع فيكمل، والكمال فبالنظر إلى تصور الشئ مجموعا واحدا بالإجمال بعد تمامه.**

**ولعل هذا هو سر التعبير في قوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: 3] فحين ذكر الدين بصورته العامة النهائية ناسب ذلك " الكمال" في {أكملت لكم دينكم}، وحين ذكر نعمه المتواصلة في آحاد شرائعه ومفردات إنعامه ناسب ذلك ذكر "التمام" في {وأتممت عليكم نعمتي}.**

**ولذلك يُقال: بدر التمام، لأنه كان طورا بعد طور حتى تم. ويُقال: تمام البيت وتتمته أي شطره أو قافيته التي بها يتم إذا انضمت إليه. فلذلك يقال: تم الشئ إذا اجتمعت أجزاؤه واحدةً تلو أخرى حتى آخرها، ويُقال: كمُل بالنظر إلى تصوره النهائي في اجتماع أوصافه.**

**\*\*\*\*\*\***

## {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً}

**قال تعالى: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125)}.**

**قَالَ أهل المعاني: المثابة-في كلاب الْعَرَبِ-: الْمَوْضِعُ: يَثُوبُ النَّاس إِلَيْهِ، ويَعُودُونَ إلَيْهِ بَعْدَ الذَّهَابِ عَنْهُ. قَالَه الْحَسَنُ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ: أَنَّهُ لَا يَنْصَرِفُ عَنْهُ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ يَتَمَنَّى الْعَوْدَ إِلَيْهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ} [إِبْرَاهِيمَ: 37]، وقيل: ثوابا للناس يثيبهم الله تعالى إذا جاءوه وأدوا حقه.**

**والبيت: اللام فيه للعهد أي البيت الحرام أو الحرم الشريف الذي صار علما يعرفه كل أحدٌ كما لو جاءت "الدين" في القرآن فالعهد فيها لدين الإسلام؛ دين الحق...**

**جعل الله تعالى البيت مرجعاً يرجع الناس إليه بكلياتهم. كلما تفرقوا عنه اشتاقوا إليه؛ آيةً ونعمةً من الله يذَكِّر بها المشركين ممن عاندوا محمدا عليه الصلاة والسلام-ويعرِّض بهم كما عرَّض ببني إسرائيل في الآيات قبل ذلك؛ إذ كان إبراهيم عليه السلام مما اتفق عليه الجميع، وفيه بدأ التمهيد لمسألة نقل القبلة إلى البيت العتيق.**

**واستدل بعضهم بالآية في وجوب العمرة، فقال: لا يكون مثابة لآحاد قصاده يعودون إليه مرةً بعد مرةٍ إلا على هذا الوجه، وفي هذا الاستدلال تعسفٌ ظاهر يأباه وجه الكلام، فالكلام على معنى الخبر وذكر المنة لا التشريع. فقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَأَمْناً} أَيْ مَوْضِعَ أَمْنٍ يؤيد ما ننحوه من أن ذلك تعريض بالمشركين من العرب. كما قال تعالى {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} (قريش: 3، 4)، وَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً: وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ} (العنكبوت 67).**

**ومعناه أن الناس يغيرون ويقتتلون حول مكة وهي آمنة من ذلك، يلقى الرجل بها قاتل أبيه فلا يقتص منه، لأن الله تعالى جعل لها في النفوس حرمةً وجعلها أمنا للناس والطير والوحوش، وخصص الشرع من ذلك الخمس الفواسق، على لسان النبي صلى الله عليه وسلم. وهذا من باب إظهار المنة والفضل مِن الله على العرب. وقد اتجه بعض أهل المعاني أنه من الخبر الذي قصده الإنشاء بمعنى أن الله أمر أن يحافظ الناس على الحرم آمنا، ولا شك أن هذا معنى صحيح، ولكنه مُضمَّن فيما اخترنا من الإخبار بالمنة.**

**عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: "إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاه" فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إلا الإذخر" (رواه البخاري ومسلم).([[122]](#footnote-122))**

**قوله تعالى: {وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى}**

**قرأه بعضهم: "واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى" بكسر "الخاء"، على وجه الأمر باتخاذه مصلى. أي صلوا عنده. عن أنس قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "وافقت الله في ثلاث، قلتُ يا رسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى؟ فأنزل الله تعالى {واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى} وقلت يا رسول الله: يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل الله عز وجل آية الحجاب، قال وبلغني معاتبة النبي صلى الله عليه وسلم بعض نسائه فدخلت عليهن فقلت لهن: إن انتهيتن، وليبدلنه الله خيرا منكن، فأنزل الله تعالى: "عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن" الآية (5-التحريم). رواه بنحوه البخاري والنسائي والترمذي وأحمد وغيرهم...**

**وقرأه بعض قراء أهل المدينة والشام: (واتخذوا) بفتح "الخاء" على وجه الخبر...**

**قال أبو جعفر: والصواب من القول والقراءة في ذلك عندنا: "واتخذوا" بكسر "الخاء"، على تأويل الأمر باتخاذ مقام إبراهيم مصلى، للخبر الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ذكرناه آنفا.**

**ثم اختلف أهل التأويل: فقال بعضهم: "مقام إبراهيم"، هو الحج كله.**

**وقال آخرون: "مقام إبراهيم" عرفة والمزدلفة والجمار.**

**وقال آخرون: "مقام إبراهيم"، الحرم كله.**

**وقال آخرون: "مقام إبراهيم" الحجر الذي قام عليه إبراهيم حين ارتفع بناؤه، وضعف عن رفع الحجارة.**

**وقال آخرون: بل "مقام إبراهيم"، هو مقامه الذي هو في المسجد الحرام.**

**و"المقام" هو الحجر الذي كانت زوجة إسماعيل وضعته تحت قدم إبراهيم حين غسلت رأسه، فوضع إبراهيم رجله عليه وهو راكب، فغسلت شقه، ثم رفعته من تحته وقد غابت رجله في الحجر، فوضعته تحت الشق الآخر، فغسلته، فغابت رجله أيضا فيه، فجعلها الله من شعائره، فقال: "واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى".**

**قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالصواب عندنا، ما قاله القائلون: إن "مقام إبراهيم"، هو المقام المعروف بهذا الاسم، الذي هو في المسجد الحرام، لما روينا آنفا عن عمر بن الخطاب، ولما روى عن جابر قال: استلم رسول الله صلى الله عليه وسلم الركن، فرمل ثلاثا، ومشى أربعا، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم فقرأ: "واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى". فجعل المقام بينه وبين البيت، فصلى ركعتين.**

**فهذان الخبران ينبئان أن الله تعالى ذكره إنما عنى ب"مقام إبراهيم" الذي أمرنا الله باتخاذه مصلى - هو الذي وصفنا.([[123]](#footnote-123))**

**\*\*\*\*\***

**قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ {وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ} أي أمرناهما وأوحينا إليهما، والعهد آكد في ذلك {أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ} يعني الكعبة وإضافة البيت إليه تخصيصا وتفضيلا، والتَّطْهِيرُ يُرَادَ بِهِ ِمنْ كُلِّ أَمْرٍ لَا يَلِيقُ بِالْبَيْتِ، ثُمَّ إِنَّ الْمُفَسِّرِينَ ذَكَرُوا وُجُوهًا. فقيل: ابنياه على الطهارة والتوحيد، أنه أمرهما أن يخلصا في بنائه لله وحده لا شريك له، فيبنياه مطهرا من الشرك، كما قال جل ثناؤه: {أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [التوبة: 109] كما قال تعالى: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } الآيات [الحج: 25 -26]. والمراد من ذلك الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته، وهو المؤسَّس على عبادته وحده لا شريك له، ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه. وهو من باب التعريض اللطيف بهم، فتنبه.**

**وقال سعيد بن جبير وعطاء: طهراه من الأوثان والرَّيب وقول الزور ([[124]](#footnote-124))، {للطائفين} الدائرين حوله {والعاكفين} المقيمين المجاورين قال ابن قتيبة في الغريب: عكف على كذا؛ إذا أقام عليه. ومنه قوله: {وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا} (طه 97). ومنه الاعتكاف؛ إنما هو: الإقامة في المساجد على الصلاة والذكر لله.**

**{والرُكَّع} جمع راكع {السجود} جمع ساجد، وهم المصلون؛ كما يُقال: قعود جمع قاعد. وقال أهل المعاني: خص السجود بعد الركوع لتحمل السجود معنى الركوع زيادة على دلالته على الصلاة، ولأن صلاة أهل الكتاب ليس فيها سجود، فوبخهم بطريقٍ خفي أن ذلك من سنة أبيهم إبراهيم وقد حرفوا الدين وتركوه.**

**وقيل: الطائفين هم الغرباء والعاكفين أهل مكة، قال عطاء ومجاهد وعكرمة: الطواف للغرباء أفضل، والصلاة لأهل مكة أفضل (وذكر مثله الجصاص في أحكامه وفيه نظر من حيث الاستدلال، وتفصيله في كتب الأحكام).**

**\*\*\*\***

## {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ}

**{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126)}**

**لما جاء الأمر للخليل ببناء البيت في قفرٍ من البلاد لا زرع ولا نهر ولا صيد ولا سبيل تجارةٍ، وهو الذي كانوا يتحرون في بناء المدن، وعُلم أن لا قوام لهم إلا بأن تُجنى إليهم الثمرات، ولا يمكن جني الثمرات إليهم إلا بأمن هذا البلد، سأل الله عز وجل -أن يجعله بلداً أمناً بسياسة ربانيةٍ وأن يَرزق أهله بتسخير الناس لجبي الثمرات إليه.**

**ولما سأله لهم الرزق، وكان قد سمع في جواب سؤاله الإمامة لذريته ما سمع؛ تدارك سؤاله فقيده وقال: {مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}، فقال تعالى: {وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا} تنبيهاً أن رحمته في الدنيا وسعت كل شيء، وأن نعمه فيها متاحة للكل ليجعلوها ذريعة إلى إدراك ثوابه، ثم من كفر وضيَّع النعم فمَسوقٌ إلى عذابه. أفاده الراغب. ([[125]](#footnote-125))**

**كأنه قيل: ما سألته من إكرام البيت برزق المؤمنين من أهل هذا البلد استجبتُه وزيادة، ولا يغتر الكافر بذلك أن له كرامة على الله، فسوف يُضطر إلى عذاب النار وبئس المصير.**

**إذن فالأمن المذكور في هذه الآية هو (الأمن السياسي) الذي يضع لمكة المكرمة مكانها بين البلاد، وبرغم من كونها تقع بين الجبال في قفرٍ من الصحراء إلا أن عظمة الخالق جعلتها أغنى البلاد وأكثرها زيارةً وعمارةً بقدسيتها وإضافة بيتها العتيق إليه سبحانه، فما من ناظرٍ ينظر إلى بيت الله وملايين الناس تفد إليه كل عام، وآلاف منهم يطوفونه كل يوم، ويتأمل موقعه من الصحراء إلا ويعلم يقينا دلالة هذه الآيات.**

**وفاتنا أن نذكر أن الأمن المذكور في قوله تعالى: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً} هو (الأمن الاجتماعي)، وقد فعل الله ذلك شرعا وقدرا. كقوله تعالى {ومن دخله كان آمنا} [آل عمران: 97] وقوله {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ} [العنكبوت: 67] إلى غير ذلك من الآيات. قد روى أبو شريح الكعبي أن النبي صلّى الله عليه وسلم قال: «إن الله حرم مكة ولم يحرمها الناس، فلا يسفكن فيها دم، وإن الله تعالى حلها لي ساعة ولم يحلها للناس» (متفق عليه)**

**وفي القراءة العميقة للآيات نستشعر لطف التعريض بأهل مكة وتكذيبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ووفاء نعمة الإسلام ودولته وأن نقض العهد مع الله هو من أهم أسباب هلاك الأمم، ولكن هذا التعريض يزيد قوةً في سورة القصص المكية- والشيء بالشيء يُذكر- في قوله تعالى: {أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (57) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (58) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ} [القصص: 57 - 59]**

## دعوات إبراهيم المباركات عند البيت.

**قال تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129)}**

**هذا هو نبي الله إبراهيم يمتثل الأمر الرباني ببناء قبلة الدين في الأرض؛ بيت الله العتيق؛ يرفعه على تقوى الله تعالى والبراءة من الشرك لكي يقتدي به كل أبنائه وورثته في تطهير هذا البيت من دنس الشرك. يرفع إبراهيم وإسماعيل أساسات البيت ويدعون ربهم بالإخلاص والقبول، ليكونوا نبراسا لكل مؤمنٍ عاملٍ إلى يوم القيامة يقولون ربنا إنك تعلم ما نُسِرُّ وما نعلن، فالسر يقابله اسمه العليم، والعلن يقابله اسمه السميع سبحانه.**

**إن أبا الأنبياء -عليه السلام -وابنه يدعون بدوام نعمة الإسلام لله، واستكمالها على الوجه اللائق بها، فالإسلام الكامل هو تام الاستسلام لأمر الله وخبره، ولا يكون بغير توفيقٍ من الله تعالى، كما قال تعالى على لسان أهل الجنة: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ } [الأعراف: 43]، فالهدى من الله وحده، وهكذا دأب أهل كمال التوحيد.**

**وهذا ابراهيم عليه الصلاة والسلام-كأنه بإسلامه أمةً وحده-يبتهل إلى الله بأن يجعل من أمته أمةً مسلمةً ترفع شعار الإيمان الحق على أكتافها، وأن يريهم عباداتهم وشرعهم ومنهجهم في دين الله واضحا كاملا، وأن يوفِّق مَن زلَّ منهم إلى الرجوع والتوبة فهو سبحانه التوَّاب (كثير التوبة) الرحيم بعباده المؤمنين.**

**ثم يدعو عليه السلام ربه بأن يبعث في أمته رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم المنهج والعمل به ويطهرهم من أوحال الشرك وآفات الأخلاق فإنه سبحانه العزيز الذي لا يغلبه على أمره شئٌ وهو الحكيم يضع كل شيءٍ موضعه.**

**وقد كان استجابة الله تعالى لدعوة الخليل في بعثة سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام، فعَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ الْفَزَارِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:**

**(إِنِّي ـ عِنْدَ اللَّهِ ـ مَكْتُوبٌ بِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ وَسَأُخْبِرُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ: دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وبِشارة عِيسَى ورُؤيا أُمِّيَ الَّتِي رَأَتْ ـ حِينَ وَضَعَتْنِي ـ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهَا مِنْهُ قُصُورُ الشام). رواه ابن حبان وأحمد وغيرهما وقال فيه الألباني: صحيح لغيره ـ (الصحيحة 1546 و 1925).**

**دعواتٌ صالحاتٌ كريماتٌ من نبي الله إبراهيم عليه السلام عند بنائه بيت الله تعالى من أجل بناء الأمة المؤمنة القانتة لله تعالى، فتأمل ما بين البنائين من تناسقٍ وتناسب.**

**(فنغمة الدعاء، وموسيقى الدعاء، وجو الدعاء. كلها حاضرة كأنها تقع اللحظة حية شاخصة متحركة.**

**وتلك إحدى خصائص التعبير القرآني الجميل. رد المشهد الغائب الذاهب، حاضراً يسمع ويرى، ويتحرك ويشخص، وتفيض منه الحياة. إنها خصيصة «التصوير الفني» بمعناه الصادق، اللائق بالكتاب الخالد.**

**وماذا في ثنايا الدعاء؟ إنه أدب النبوة، وإيمان النبوة، وشعور النبوة بقيمة العقيدة في هذا الوجود.**

**وهو الأدب والإيمان والشعور الذي يريد القرآن أن يعلمه لورثة الأنبياء، وأن يعمقه في قلوبهم ومشاعرهم بهذا الإيحاء:**

**«رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا. إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»**

**إنه طلب القبول. هذه هي الغاية. فهو عمل خالص لله. الاتجاه به في قنوت وخشوع إلى الله. والغاية المرتجاة من ورائه هي الرضى والقبول. والرجاء في قبوله متعلق بأن الله سميع للدعاء. عليم بما وراءه من النية والشعور.). ([[126]](#footnote-126))**

**وفي مباحث اللغة البلاغة يقابلنا قوله تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ} وهو حكايةٌ عن حالٍ ماضيةٍ، جاءت بالفعل المضارع للدلالة على استحضار حال هذا النبي العظيم في إخلاصه وطاعته ودعواته.**

**وقيل: المراد برفع قواعده رفع مكانته وإظهار شرفه بتعظيمه، ودعاء الناس إلى حجه. وفي إبهام القواعد وتبيينها في قوله تعالى {من البيت} تفخيمٌ لشأنها.**

**قال البيضاوي: وإنما خصا الذرية بالدعاء لأنهم أحق بالشفقة، ولأنهم إذا صلحوا صلح بهم الأتباع، وخصا بعضهم لما أعلما أن في ذريتهما ظلمة، وعلما أن الحكمة الإلهية لا تقتضي الاتفاق على الإخلاص والإقبال الكلي على الله تعالى. ([[127]](#footnote-127))**

**قال ابن عرفة ما حاصله: في قوله تعالى: {وَيُعَلِّمُهُمُ الكتاب والحكمة وَيُزَكِّيهِمْ ...}**

**هذا جاء على الأصل في تقديم العلم أولا ثم (العمل) به لأن العلم شرط في العمل، ولذلك قيل: كل شيء يمكن حصوله للولي الجاهل إلا العلم، لأن العلم لا يحصل له إلا بالتعلم... قال: وقدم هنا التعليم على التزكية، وأما في سورة آل عمران فعكس الأمر {... وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} الآية [آل عمران: 164]**

**وكان الشيخ محمد بن عبد السلام يقول: إنه بحسب المجالس فحيث تقدم التعليم تكون تلك الآية نزلت عليه بمحضر الخواص ومَن هو أهل للتعليم، فيكون التعليم أَهَمّ، وحيث تقدم التزكية تكون الآية نزلت عليه في موضع أكثره عوام، فتكون التزكية في حقهم أهمّ.**

**وفي قوله قوله تعالى: {إِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم} عدل عن قوله: الغفور الرحيم لأن العزيز هو الذي ينفذ مراده ولا ينفّذ فيه مراد أحد والحكيم هو الذي تضمنه قوله تعالى: {الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} وقوله {وكانوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا}. ([[128]](#footnote-128))**

**قلتُ-جامعه: وفي هذا نكتة التعريض بالمشركين واليهود الذي حسدوا رسول الله صى الله عليه وسلم على الرسالة واقترحوها لغيره. فكأن الآية تقول أنه سبحانه أعلم لمن يعطي رسالته، ولا يغلبه على أمره ذلك أحد.**

**\*\*\*\***

## {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ}

**وعند هذا المقطع من قصة إبراهيم، يلتقط السياق دلالته وإيحاءه، ليواجه بهما الذين ينازعون الأمة المسلمة الإمامة وينازعون الرسول-صلى الله عليه وسلم-النبوة والرسالة ويجادلون في حقيقة دين الله الأصيلة الصحيحة:**

**«وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ؟ وَلَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ. قالَ: أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ. وَوَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ: يا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ»**

**وفي اللغَة: {سَفِهَ نَفْسَهُ} امتهنها واستخفّ بها وأصل السفه: الخفة ومنه زمام سفيه أي خفيف. {اصطفيناه} أي جعلناه صافياً من الأدناس مشتق من الصفوة ومعناه تخير الأصفى والمراد اصطفاؤه بالرسالة والخلَّة والإِمامة العظمى. {وصَّى} التوصية: إِرشاد الغير إِلى ما فيه صلاح وقربة. ([[129]](#footnote-129))**

**إذن تلك هى الحقيقة التي تعلق بها الآيات وتختم سياقها بها: إن الدين الحق هو ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين، إنه الإسلام بمعناه الكبير الذي يعني التوحيد والاستسلام الكامل لأمر الله تعالى.**

**(هذه هي ملة إبراهيم. الإسلام الخالص الصريح. ولم يكتف إبراهيم بنفسه إنما تركها في عقبه، وجعلها وصيته في ذريته، ووصى بها إبراهيم بنيه كما وصى بها يعقوب بنيه. ويعقوب هو إسرائيل الذي ينتسبون إليه، ثم لا يلبون وصيته، ووصية جده وجدهم إبراهيم! ولقد ذكر كل من إبراهيم ويعقوب بنيه بنعمة الله عليهم في اختياره الدين لهم:**

**«يا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ».**

**فهو من اختيار الله. فلا اختيار لهم بعده ولا اتجاه. وأقل ما توجبه رعاية الله لهم، وفضل الله عليهم، هو الشكر على نعمة اختياره واصطفائه، والحرص على ما اختاره لهم، والاجتهاد في ألا يتركوا هذه الأرض إلا وهذه الأمانة محفوظة فيهم:**

**«فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ».**

**وها هي ذي الفرصة سانحة، فقد جاءهم الرسول الذي يدعوهم إلى الإسلام، وهو ثمرة الدعوة التي دعاها أبوهم إبراهيم.) ([[130]](#footnote-130))**

**يقول تبارك وَتَعَالَى رَدًّا عَلَى الْكُفَّارِ فِيمَا ابْتَدَعُوهُ وَأَحْدَثُوهُ مِنَ الشِّرْكِ بِاللَّهِ، الْمُخَالِفِ لِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ إِمَامِ الْحُنَفَاءِ، فَإِنَّهُ جرَّد تَوْحِيدَ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَلَمْ يَدْعُ مَعَهُ غَيْرَهُ، وَلاَ أُشْرِكَ بِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَتَبَرَّأَ مِنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ، وَخَالَفَ فِي ذَلِكَ سَائِرَ قَوْمِهِ، حَتَّى تَبَرَّأَ مِنْ أَبِيهِ، فَقَالَ:**

**{يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ \* إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فطر السماوات والأرض حَنِيفاً وَمَآ أَنَاْ مِنَ المشركين} وَقَالَ تَعَالَى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ\* إِلاَّ الذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ}، ....**

**وَلِهَذَا وَأَمْثَالِهِ قَالَ تَعَالَى: {وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ}؟ أَيْ ظَلَمَ نَفْسَهُ بِسَفَهِهِ وَسُوءِ تَدْبِيرِهِ، بِتَرْكِهِ الْحَقَّ إِلَى الضَّلَالِ، حَيْثُ خَالَفَ طَرِيقَ مَنِ اصْطُفِيَ فِي الدُّنْيَا لِلَّهِدَايَةِ وَالرَّشَادِ مِنْ حَدَاثَةِ سِنِّهِ إِلَى أَنِ اتَّخَذَهُ اللَّهُ خَلِيلًا، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الصالحين السعداء، فمن ترك طريقه هذا وملكه وَمِلَّتَهُ، وَاتَّبَعَ طُرُقَ الضَّلَالَةِ وَالْغَيِّ فأيُّ سَفَهٍ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا؟ أَمْ أَيُّ ظُلْمٍ أَكْبَرُ مِنْ هَذَا؟!**

**كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} قال أبو العالية وقتادة: نزلت فِي الْيَهُودِ أَحْدَثُوا طَرِيقًا لَيْسَتْ مِنْ عِنْدِ الله، وخالفوا ملة إبراهيم فيما أحدثوه، وَيَشْهَدُ لِصِحَّةِ هَذَا الْقَوْلِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ\* إن أولى الناس بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ والله وَلِيُّ المؤمنين}.**

**وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} أَيْ أَمَرَهُ اللَّهُ بِالْإِخْلَاصِ لَهُ وَالِاسْتِسْلَامِ وَالِانْقِيَادِ فَأَجَابَ إِلَى ذَلِكَ شَرْعًا وَقَدَرًا.**

**وَقَوْلُهُ: {وَوَصَّى بِهَآ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ} أَيْ وَصَّى بِهَذِهِ الْمِلَّةِ وَهِيَ الْإِسْلَامُ لِلَّهِ، أَوْ يَعُودُ الضَّمِيرُ عَلَى الْكَلِمَةِ وَهِيَ قَوْلُهُ: {أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} لِحِرْصِهِمْ عَلَيْهَا وَمَحَبَّتِهِمْ لَهَا حَافَظُوا عَلَيْهَا إِلَى حِينِ الْوَفَاةِ وَوَصَّوْا أبناءهم مِنْ بَعْدِهِمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ}.**

**وَالظَّاهِرُ -وَاللَّهُ أَعْلَمُ -أَنَّ إِسْحَاقَ وُلِدَ لَهُ (يَعْقُوبُ) فِي حَيَاةِ الْخَلِيلِ وَسَارَّةُ، لِأَنَّ الْبِشَارَةَ وقعت بهما في قوله: {فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب}، أيضا فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ: {وَوَهَبْنَا لَهُ إسحق وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النبوة والكتاب} الْآيَةَ. وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: {وَوَهَبْنَا لَهُ أسحق ويعقوب نافلة}، وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّهُ وُجِدَ فِي حَيَاتِهِ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ بَانِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ كَمَا نَطَقَتْ بِذَلِكَ الْكُتُبُ الْمُتَقَدِّمَةُ، وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ أَوَّلُ؟ قَالَ: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «بَيْتُ الْمَقْدِسِ»، قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا: قَالَ: «أَرْبَعُونَ سَنَةً» الْحَدِيثَ....**

**وَقَوْلُهُ: {يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ} أي أحسنوا في خلال الْحَيَاةِ، وَالزَمُوا هَذَا لِيَرْزُقَكُمُ اللَّهُ الْوَفَاةَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْمَرْءَ يَمُوتُ غَالِبًا عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ، وَيُبْعَثُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ، وَقَدْ أَجْرَى اللَّهُ الْكَرِيمُ عَادَتَهُ بِأَنَّ مَنْ قَصَدَ الْخَيْرَ وُفِّق لَهُ وَيُسِّرَ عَلَيْهِ، وَمَنْ نَوَى صَالِحًا ثَبَتَ عَلَيْهِ.**

**قال ابن كثير: وَهَذَا لَا يُعَارِضُ مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلَهَا»، لِأَنَّهُ قد جاء في بعض الروايات هذا الحديث: ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وبعمل أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى\* وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بالحسنى فسنيسره للعسرى}.([[131]](#footnote-131))**

**وقوله تعالى: {فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} إيجازٌ بليغ، وذلك أن المقصود منه أمرهم بالإسلام والدوام عليه، فأتى ذلك بلفظٍ موجزٍ يقتضي المقصود ويتضمن وعظا وتذكيرا بالموت، وذلك أن المرء يتحقق أنه يموت ولا يدري متى؟ فإذا أمر بأمر لا يأتيه الموت إلا وهو عليه، فقد توجه من وقت الأمر دائبا لازما، وحكى سيبويه فيما يشبه هذا المعنى قولهم: لا أرينك هاهنا، وليس إلى المأمور أن يحجب إدراك الأمر عنه، فإنما المقصود: اذهب وزل عن هاهنا، فجاء بالمقصود بلفظ يزيد معنى الغضب والكراهية. ([[132]](#footnote-132))**

**يعبر بعض اللغويين المحدثين عن هذا التحليل بما يسمونه البنية العميقة للنص، فالبنية السطحية التي تفيد ظاهر المعنى غير مقصودةٍ هنا، وإنما يقتضي الفهم البعد المجازي للنص والذي يدور عميقا مع المعنى ليفهم من دلالته أكثر ما يفهم من ظاهره.**

**\*\*\*\***

**{أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134)}**

## مشاهد القرآن وسماوات البلاغة.

**{ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ...} الآية تحولٌ خطابي خطيرٌ يتجه بالدلالة إلى عمقِ معايشةِ الموقف الخالد الذي تسجله الآيات؛ هذه العملية البارعة من الاستحضار للموقف من حيز التاريخ إلى بؤرة الشهود المباشر يستخدمها القرآن كثيراً كأداةٍ خارقةٍ من أدوات بلاغته، وتأمل قوله تعالى: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} [آل عمران: 44]، وتأمل كذلك قوله: {وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ} [يوسف: 102]، وكذلك قوله: {وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ...} [القصص: 45، 46] الآيات...**

**إن نقل عالم الغيب إلى نور الشهود بهذه البلاغة يتخذ في القرآن عدة أساليب منها على سبيل المثال لا الحصر: -**

* **استعمال الفعل المضارع الدال على الحال في موضع ذكر ما مضى وكان، وقد أشرنا إليه كثيرا في موضعه كمثل قوله سبحانه: {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ} [فاطر: 9]**

**قال الزمخشري-عفا الله عنه: فإن قلت: لم جاء فَتُثِيرُ على المضارعة دون ما قبله، وما بعده؟**

**قلتُ: ليحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية، بحال تستغرب، أوتهمّ المخاطب، أو غير ذلك، كما قال تأبط شرا:**

**بأنىّ قد لقيت الغول تهوى ... بسهب كالصّحيفة صحصحان**

**فأضربها بلا دهش فخرّت ... صريعا لليدين وللجران ([[133]](#footnote-133))**

**لأنه قصد أن يصوّر لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول، كأنه يبصرهم إياها ويطلعهم على كنهها، مشاهدة للتعجيب من جرأته على كل هول، وثباته عند كل شدّة. انتهى ([[134]](#footnote-134))**

* **وكذلك من هذه الأساليب الرائعة أسلوب التصوير المتحرك الذي يرسم مشهدا تمثيليا للمعنى المراد.**

**وأكثره في أمثال القرآن، وعلماء البلاغة يسمونه " التشبيه التمثيلي أو الاستعارة التمثيلية" وهو تمثيل حال بحال بدون قصد تشابه كل تفاصيل الحالتين، بحيث يصير المقصود هو المشهد الكلي في حالةٍ بجملة تفصيلها والمشهد الكلي للحالة المناظرة كما في أول سورة البقرة في المثلين الناري والمائي {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ...} الآيات [البقرة: 17-20] فقد مثل حال أولئك المنافقين الذين كانوا في ظلمة الكفر وبرده، فأضاء الله لهم نور الهداية بيدى رسوله، فأطفئوها بنفاقهم فلم يب لهم غير نار التردد والتشكك وظلمات الحيرة، شبههم بحال من كان في ليلِ بهيم فاستضاء شعلةً من نار يستهدي بها ويستدفئ، ولكن سرعان ما خفتت، فعاد إلى الظلمة والبرد وربما اكتوى بالجمر في تخبطه. هذا الاستحضار لتلك الصورة في وصف هذا المعنى هو خصيصةٌ تميز بها القرآن في براعة وبلاغة رسمها في تفاصيلٍ نورانية لا تكاد تضاهيها بلاغةٌ إلا في شذراتٍ متفرقاتٍ.**

* **ثم إن من الأساليب الراقية للمشاهد القرآنية الأسلوب الحواري الذي يقف بالمتلقي على تفاصيلٍ في الصورة المراد توضيحها لا يرتقي أسلوبٌ آخر إلى منزلتها في البيان.**

**وهذا تجده في أرقى أبعاده الجمالية في قصص الأنبياء، وخصوصا في قصة يوسف عليه السلام، وقصة موسى، وحوار أهل الأعراف مع أهل الجنة والنار... إلخ هذا الأسلوب الراقي في رسم المعاني القرآنية في قمة صور البلاغة، ومن أجمل ما قرأت في ذلك كتاب الشيخ الراحل سيد طنطاوي رحمه الله (الحوار في القرآن الكريم)، وقد جمع فيه وأحسن، والله يتقبله بفضله.**

* **ومن الأساليب التي تتميز باستحضار الغيب لأبلغ درجات الشهود هو الالتفات في الضمائر الذي يأخذ المتلقي من حيز المستمع إلى موضع المشارك في الحدث؛ المشاهد له؛ الحاضر فيه.**

**ومثال ذلك قوه سبحانه: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [يونس: 22، 23]، فإن الالتفات (التبديل بين الضمائر) في هذه الآيات ينتقل بالقارئ البصير من موضع المستمع إلى موضع المشاهد الحاضر. قال هنا الزمخشري: فإن قلت: ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب في " يسيركم" إلى الغيبة في " وجرين بهم"؟**

**قلتُ: المبالغة، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعى منهم الإنكار والتقبيح. ([[135]](#footnote-135))**

**هنا ينتزع شهادتهم على هذا الجحود وإنكار النعمة الربانية، بجعلهم شهودا على هذا المشهد من رفق الله بعباده، وحتى في موقف الضيق والايقان بالهلاك، وحين يدعونه يستجيب سبحانه، فماذا يكون منهم؟! الإنكار والجحود والكفر، فهذا ومثله من المواقف ضعوا أنفسكم مكانهم، واحكموا!**

**هذه الطريقة البليغة في تصريف الضمائر هي من خصائص بلاغة لغة القرآن العظيم.**

**هذه خمس طرقٍ استحضرها الآن، وإلا فالله يفتح بمنه على المخلصين بأمثالها عشرات. والحمد لله رب العالمين.**

**\*\*\*\***

**نعود للتفسير ونتوقف في إطارٍ تحليلي مع الآيات.**

**يقول تعالى: {أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ} هذا الخطاب لليهود والنصارى الذين انتحلوا الأنبياء صلوات الله عليهم ونسبوهم إلى اليهودية والنصرانية، فرد الله تعالى عليهم وكذبهم، وأعلمهم أنهم كانوا على الحنيفية والإسلام، وقال لهم على جهة التقريع والتوبيخ: أشهدتم يعقوب وعلمتم بما أوصى فتدعون عن علم؟، أي لم تشهدوا بل أنتم تفترون.([[136]](#footnote-136))**

**(أم) هي أم المنقطعة «ومعناها: بل هل كنتم شهداء». ومعنى الهمزة فيها النفى والإنكار. والشهداء جمع شهيد، بمعنى الحاضر. أى ما كنتم حاضرين يعقوب عليه السلام إذ حضره الموت، حين احتضر، والخطاب للمؤمنين بمعنى: ما شاهدتم ذلك وإنما حصل لكم العلم به من طريق الوحى.**

**وقيل الخطاب لليهود، لأنهم كانوا يقولون: ما مات نبىُّ إلا على اليهودية، إلا أنهم لو شهدوه وسمعوا ما قاله لبنيه وما قالوه، لظهر لهم حرصه على ملة الإسلام، ولما ادعوا عليه اليهودية.**

**فالآية منافية لقولهم، كأنه قيل: أتدّعون على الأنبياء اليهودية؟ فهل كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت، يعنى أن أوائلكم من بنى إسرائيل كانوا مشاهدين له إذ أراد بنيه على التوحيد وملة الإسلام، وقد علمتم ذلك، فما لكم تدّعون على الأنبياء ما هم منه برآء؟**

**{ما تَعْبُدُونَ مِن بعدي} أىّ شيء تعبدون؟**

**{وإِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ} عطف بيان لآبائك. وجعل إسماعيل وهو عمه من جملة آبائه، لأنّ العمّ أب والخالة أمّ، لانخراطهما في سلك واحد وهو الأخوة لا تفاوت بينهما. ومنه قوله عليه السلام «عمّ الرجل صنو أبيه» أى لا تفاوت بينهما كما لا تفاوت بين صنوي النخلة.**

**وقال عليه الصلاة والسلام في العباس «هذا بقية آبائي» وقال «ردّوا علىّ أبى، فإني أخشى أن تفعل به قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود».**

**{إِلهاً واحِداً} بدل من إله آبائك، كقوله تعالى: {بِالنَّاصِيَةِ ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ} أو على الاختصاص، أى نريد بإله آبائك إلهاً واحداً {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} أى ومن حالنا أنا له مسلمون مخلصون التوحيد أو مذعنون. ([[137]](#footnote-137))**

**\*\*\*\***

**أقول: وفي هذه الآية وصية يعقوب عليه السلام الغالية لبنيه بالتوحيد الخالص والتي تؤكد رحمته بهم وشفقته عليهم، فالنسب لا يشفع مع الشرك لأن نسب الدين أعظم من نسب الماء والطين.**

**وهي عادة الرسل في صقل هذا المعنى في القلوب جليا كما ورد في الخبر الذي رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله -صلى الله عليه وسلم -حين أنزل الله عز وجل: {وأنذر عشيرتك الأقربين}؛ قال: "يا معشر قريش! – أو كلمة نحوها-اشتروا أنفسكم، لا أغنى عنكم من الله شيئا، يا بني عبد مناف! اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب! لا أغنى عنك من الله شيئأ، ويا صفية عمة رسول الله! لا أغنى عنك من الله شيئأ، ويا فاطمة بنت محمد-صلى الله عليه وسلم -سليني ما شئت من مالي، لا أغنى عنك من الله شيئا".**

**وكما جاءت في الآية صريحةً {وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [هود: 46،45].إنه التوحيد وحده العاصم والمنجي.**

**وفائدة قوله تعالى: {حضر يعقوب الموت} الاتكاء الدلالي على هذه الحالة الصادقة من النصح، لأن حالة حضور الموت لا تخلو من حدث هام سيحكى بعدها فيترقبه السامع وهذه الوصية جاءت عند الموت وهو وقت التعجيل بالحرص على إبلاغ النصيحة فِي آخر ما يبقى من كلام الموصي فيكون له رسوخ فِي نفوس الموَصِّيْن.**

**قال الراغب: لم يعن بقوله: {ما تعبدون من بعدي} العبادة المشروعة فقط، وإنما عنى جميع الأعمال، وكأنه دعاهم ألَّا يتحروا في أعمالهم غير وجه الله -عز وجل-ولم يخشى عليهم الاشتغال بعبادة الأصنام، وإنما خاف أن تشغلهم دنياهم، ولهذا قيل: " ما قطعك عن الله فهو طاغوت "، ولهذا قال: {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ}، أي نخدم ما دون الله، وهدا المعنى تحراه الشاعر بالعبادة:**

**فتى مَلكَ اللذاتِ أنْ تعتبدْنَهُ .... ومَاَ كُلَّ ذي مُلْك لهُنِ بمالِكِ. انتهى ([[138]](#footnote-138))**

**وقوله جلّ ذكره: {نعبد إِلَهَكَ ... الآية {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}. ولم يقولوا إلهنا مراعاة لخصوصية قَدْره، حيث سلموا له المزية، ورأوا أنفسهم ملحقين بمقامه، ثم أخبروا عن أنفسهم أنهم طُيَّعٌ لله خالصا بقولهم {ونحن له مسلمون}. أفاده القشيري.**

**ومن فوائد الإمام الجصاص فِي (أحكام القرآن). قال رحمه الله ما مختصره:**

**(بَابُ مِيرَاثِ الْجَدِّ) قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { قَالُوا نَعْبُدُ إلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إلَهًا وَاحِدًا } فَسَمَّى الْجَدَّ وَالْعَمَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَبًا ، وَقَالَ تَعَالَى حَاكِيًا عَنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: { وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ } وَقَدْ احْتَجَّ ابْنُ عَبَّاسٍ بِذَلِكَ فِي تَوْرِيثِ الْجَدِّ دُونَ الْإِخْوَةِ.**

**وَاحْتِجَاجُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَوْرِيثِ الْجَدِّ دُونَ الْإِخْوَةِ وَإِنْزَالِهِ مَنْزِلَةَ الْأَبِ فِي الْمِيرَاثِ عِنْدَ فَقْدِهِ يَقْتَضِي جَوَازَ الِاحْتِجَاجِ بِظَاهِرِ قَوْله تَعَالَى: { وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ } فِي اسْتِحْقَاقِهِ الثُّلُثَيْنِ دُونَ الْإِخْوَةِ كَمَا يَسْتَحِقُّ الْأَبُ دُونَهُمْ إذَا كَانَ بَاقِيًا ؛ وَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ إطْلَاقَ اسْمِ الْأَبِ يَتَنَاوَلُ الْجَدَّ، فَاقْتَضَى ذَلِكَ أَنْ لَا يَخْتَلِفَ حُكْمُهُ وَحُكْمُ الْأَبِ فِي الْمِيرَاثِ ؛ إذا لَمْ يَكُنْ أَبٌ ؛ وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ فِي آخَرِينَ مِنْ الصَّحَابَةِ ، قَالَ عُثْمَانُ: قَضَى أَبُو بَكْرٍ أَنَّ الْجَدَّ أَبٌ ، وَأَطْلَقَ اسْمَ الْأُبُوَّةِ عَلَيْهِ. وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ.**

**وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ وَمَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ بِقَوْلِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ فِي الْجَدِّ أَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الْإِخْوَةِ مَا لَمْ تَنْقُصْهُ الْمُقَاسَمَةُ مِنْ الثُّلُثِ فَيُعْطَى الثُّلُثَ وَلَمْ يُنْقِصْ مِنْهُ شَيْئًا.**

**وَقَالَ ابْنُ أَبِي لَيْلَى بِقَوْلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْجَدِّ أَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ أَحَدِ الْإِخْوَةِ مَا لَمْ تَنْقُصْهُ الْمُقَاسَمَةُ مِنْ السُّدُسِ، فَيُعْطَى السُّدُسَ وَلَمْ يُنْقِصْ مِنْهُ شَيْئًا.... إلخ كلامه، وله ذيول وتفاصيل محلها كتب الأحكام.**

**\*\*\*\***

**{تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَلا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (134)}**

**{تِلْكَ} إشارة إلى الأمّة المذكورة التي هي إبراهيم ويعقوب وبنوهما الموحدون.**

**والأمة أتت في القرآن بمعانٍ عدةٍ، والمراد بها هنا الجماعة من الفعل "أمَّ" بمعنى قصد، وسُميت كل جماعةٍ يجمعهم أمرٌ ما إما دينٌ واحد، أو زمان واحد، أو مكان بذلك لأنهم يؤم بعضهم بعضاً ويقصده.**

**و{خلت} أي مَاتَتْ وَانْقَضَتْ وسلفت وذهبت وَصَارَتْ إِلَى الْخَلَاءِ، وَهُوَ الْأَرْضُ الَّذِي لَا أَنِيسَ بِهِ.**

**(والمعنى: أنّ أحداً لا ينفعه كسب غيره متقدّماً كان أو متأخراً، فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا، فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما اكتسبتم. وذلك أنهم افتخروا بأوائلهم. ونحوه قول رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: "يا بنى هاشم، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم " (قلتُ: ذكره الزمخشري ونقله عنه المفسرون، وقال الشيخ ولي الدين العراقي: لم أقف عليه. وصح في معناه قوله عليه السلام: «مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»). ([[139]](#footnote-139))**

**وهو بَيَانٌ لِحَالِ تِلْكَ الْأُمَّةِ وَحَالِ الْمُخَاطَبِينَ بِأَنَّ لِكُلٍّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ كَسْبَهُ، لَا يَنْفَعُهُ كَسْبُ غَيْرِهِ وَلَا يَنَالُهُ مِنْهُ شَيْءٌ، وَلَا يَضُرُّهُ ذَنْبُ غَيْرِهِ، وَفِيهِ الرَّدُّ عَلَى مَنْ يَتَّكِلُ عَلَى عَمَلِ سَلَفِهِ، وَيُرَوِّحُ نَفْسَهُ بِالْأَمَانِي الْبَاطِلَةِ، وَالْمُرَادُ: أَنَّكُمْ لَا تَنْتَفِعُونَ بِحَسَنَاتِهِمْ، وَلَا تُؤَاخَذُونَ بِسَيِّئَاتِهِمْ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَنْ أَعْمَالِهِمْ، كَمَا لَا يُسْأَلُونَ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، وَمِثْلُهُ قوله تعالى: {وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى}، وكذلك {وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا مَا سَعى}.([[140]](#footnote-140))**

**قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ رَدٌّ عَلَى الْجَبْرِيَّةِ الْقَائِلِينَ: لَا اكْتِسَابَ لِلْعَبْدِ. انْتَهَى.**

**وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ يُبْحَثُ فِيهَا فِي أُصُولِ الدِّينِ، وَهِيَ مِنَ الْمَسَائِلِ الْمُعْضِلَةِ، ومذاهب أهل الْإِسْلَامِ فِيهَا أَرْبَعَةٌ.**

**أَحَدُهَا: قَوْلُ الْجَبْرِيَّةِ، وَهُوَ أَنَّ الْعَبْدَ مَجْبُورٌ عَلَى فِعْلِهِ، وَأَنَّهُ لَا اخْتِيَارَ لَهُ فِي ذَلِكَ، بَلْ هُوَ مُلْجَأٌ إِلَيْهِ، وَأَنَّ نِسْبَةَ الْفِعْلِ إِلَيْهِ كَنِسْبَةِ حَرَكَةِ الْغُصْنِ إِلَيْهِ، إِذَا حَرَّكَهُ مُحَرِّكٌ.**

**وَالثَّانِي: قَوْلُ الْقَدَرِيَّةِ، وَهُوَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا مَجْبُورِينَ عَلَى الْفِعْلِ، بَلْ لَهُمْ قُدْرَةٌ عَلَى إِيجَادِ الْفِعْلِ.**

**وَالثَّالِثُ: قَوْلُ الْمُعْتَزِلَةِ، أَنَّ الْعَبْدَ لَهُ قُدْرَةٌ يَخْلُقُهَا اللَّهُ لَهُ قَبْلَ الْفِعْلِ، وَهُوَ مُتَمَكِّنٌ مِنْ إِيقَاعِهِ وَعَدَمِ إِيقَاعِهِ.**

**وَالرَّابِعُ: مَذْهَبٌ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: أَنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ لِلْعَبْدِ تَمْكِينًا وَقُدْرَةً مَعَ الْفِعْلِ يَفْعَلُ بِهَا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، لَا عَلَى سَبِيلِ الِاضْطِرَارِ وَالْإِلْجَاءِ، وَهَذَا التَّمْكِينُ هُوَ مَنَاطُ التَّكْلِيفِ الَّذِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الْعِقَابُ وَالثَّوَابُ. ([[141]](#footnote-141))**

## مشاهد دلالية

**لقد حفلت الآيات التي نتـأملها بمشاهد دلالية رائعة يتوقف أمامها المتدبر صاعدا في معراج طريق أهل الإيمان واليقين. {وَإِذِ ابْتَلَى} فالقيام بالحق ورفع رايته ابتلاء عظيم وطريقه لا يجتازه إلا المخلصون الذين يعلمون جيدا قيمة ما بأيديهم وخطورته. {فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} فلا يستحق الإمامة سوى الذين قاموا فوفوا وأمرهم الله فأتموا، وأما الظالمين فلا مكان لهم في ظلال إمامة النور. {وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} مقام الحق والصدق والإخلاص يجب أن يكون قبلةً للمؤمنين وغايةً لأنظارهم. {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا}، {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا}، {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ}، {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ} ما أجمل الدرس الابراهيمي في تعليم الخلق أن عز الإنسان وفلاحه في عبوديته لربه، فما دام العبد يتضرع إلى ربه فهو عزٍ ومنعةٍ وما أرق وأحلى أن تحيا معنى قوله تعالى: {فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ} [الذاريات: 50]**

**قال صاحب لطائف الإشارات (3/ 469): أي فارجعوا إلى الله-والإنسان بإحدى حالتين إمّا حالة رغبة في شىء، أو حالة رهبة من شىء، أو حال رجاء، أو حال خوف، أو حال جلب نفع أو رفع ضرّ. وفي الحالتين ينبغى أن يكون فراره إلى الله فإنّ النافع والضارّ هو الله.**

**ويقال: يجب على العبد أن يفرّ من الجهل إلى العلم، ومن الهوى إلى التّقى، ومن الشّكّ إلى اليقين، ومن الشيطان إلى الله. ويقال: يجب على العبد أن يفرّ من وصفه سبحانه الذي هو سخطه إلى وصفه الذي هو رحمته، ومن نفسه-سبحانه-حيث قال: «وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ» إلى نفسه حيث قال: «فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ».**

**قلتُ: كما كان دعاء المصطفى صلوات الله عليه: " أعوذ بك منك، لا إله إلا أنت".**

**{وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ} فهذه ملة ومذهب ودين النبي الذي وفى إبراهيم عليه السلام، ومَن ادعى النسبة إليه ولم يتبع ملته فقد وقع في الخسران بسبب سفه نفسه وطيش عقله.**

**{قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ} لم يكن إبراهيم حين دعاه ربه إلى الإسلام إلا مسلما مؤمنا، فما معنى سؤاله الإسلام؟ هو درجة أرقى من الإيمان؛ إنه التسليم المطلق لله سبحانه، فما أصعب موقف أبٍ لم ير ابنه طوال خمسة عشرة عاما ويزيد، وحين فرح بحضنه يؤمر بذبحه، وما أطوع إبراهيم عليه السلام لله حين امتثل ذلك، إنه عينه موقف موسى-عليه السلام-والبحر الخضم أمامه والعدو المسرع خلفه، ولم تهتز له شعرة {قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الشعراء: 62]. وهو الإسلام المذكور ههنا.**

**{وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ} هكذا أهل الحق يتواصون بالحق فيما بينهم لكى تظل الراية مرفوعة أبد الدهر، وإلا فما معنى حمل الحق إذا تركته ليسقط بعد سقوط حملته، وهو عين معنى قوله تعالى: {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر: 3].**

1. **تفسير المنار (1/ 17) باختصار يسير** [↑](#footnote-ref-1)
2. **التفسير الوسيط للواحدي (1/ 182)** [↑](#footnote-ref-2)
3. **(إِعْلَامُ المُوَقِّعِيْنَ عَنْ رَبِّ العَالَمِيْنَ) (301/ 4).** [↑](#footnote-ref-3)
4. **تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 274)** [↑](#footnote-ref-4)
5. **دروزة محمد عزت في التفسير الحديث، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة 1383 هـ، 6/214.** [↑](#footnote-ref-5)
6. **أقول: وفي ظاهر الآيات كفاية للمتأملين، وانظر للمزيد من هذا تفسير الطبري، وتفسير الدر المنثور للسيوطي، وتفسير ابن أبي حاتم فعندهم تلك الروايات ومزيد.**

   **وإن كان لابد لتعضيد ما تبرزه الآيات من معاني نذكر أن بعض من تلك الروايات روى بأسانيد جيدة راجع في ذلك كتاب (الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور 1/ 205-210).** [↑](#footnote-ref-6)
7. **تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (3/ 634)** [↑](#footnote-ref-7)
8. **يقول** [**الجرجاني**](zim://A/%D8%A7%D9%84%D8%AC%D8%B1%D8%AC%D8%A7%D9%86%D9%8A.html)**: هو** [**سوق**](zim://A/%D8%B3%D9%8A%D8%A7%D9%82.html) **الكلام على وجه يلزم منه كلام آخر وهو غير مقصود بالذات بل بالعرض. وفي بعض التفاسير، مثال الاستطراد هو أن يذهب الرجل إلى موضع مخصوص صائدا، فعرض له صيد آخر فاشتغل به وأعرض عن السير إلى ما قصد وأشباهه. راجع كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم.** [↑](#footnote-ref-8)
9. **تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (3/ 634)** [↑](#footnote-ref-9)
10. **البحر المحيط في التفسير (1/ 542) دار الفكر – بيروت.** [↑](#footnote-ref-10)
11. **تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 189) بتصرف.** [↑](#footnote-ref-11)
12. **أي مثلها من الآيات التي نزلت في أحوال معينة ولم يشرح في أثنائها ما يفصح عن سبب نزولها إيجازا واستغناء بعلم المخاطبين بها يوم نزولها بالسبب الذي أوجب نزولها، فإذا لم ينقل السبب لمن لم يحضره لم يعلم المراد منها.** [↑](#footnote-ref-12)
13. **تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن (1/ 252)** [↑](#footnote-ref-13)
14. **تفسير ابن كثير ط العلمية (1/ 256) باختصار.** [↑](#footnote-ref-14)
15. **ولشيخ الإسلام ابن تيمية كتاب ماتع سماه (اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم) بين فيه هذا الملمح الرئيسي لمنهج الإيمان في تمايزه عن معكسر الخاسرين الهالكين الذين بدلوا دين الله كفرا؛ فراجعه وادع لشيخنا بالقبول والجنة. اللهم ارحم علماءنا.** [↑](#footnote-ref-15)
16. **راجع تفسير القرطبي (2/ 57)** [↑](#footnote-ref-16)
17. **أحكام القرآن للجصاص ت قمحاوي (1/ 72)** [↑](#footnote-ref-17)
18. **الفروق للقرافي = أنوار البروق في أنواء الفروق (2/ 32)** [↑](#footnote-ref-18)
19. **أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (4/ 144-146)** [↑](#footnote-ref-19)
20. [↑](#footnote-ref-20)
21. **وأطال النفس صاحب (البحر المحيط في التفسير) في توجيه زيادتها على مذاهب النحويين.** [↑](#footnote-ref-21)
22. **تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 190)** [↑](#footnote-ref-22)
23. **الواحدي في أسباب النزول ت الحميدان (ص: 34)** [↑](#footnote-ref-23)
24. **وعلى هذا المنوال جرى اختيار الشيخ محمد أبو زهرة في زهرة التفاسير (1/ 354) والشيخ عبد الكريم الخطيب في كتابه الذي سماه "التفسير القرآني للقرآن". وقريبا منه مستخفيا كلام العلامة القاسمي رحمة الله عليه في تفسير القاسمي = محاسن التأويل (1/ 370).** [↑](#footnote-ref-24)
25. **زهرة التفاسير (1/ 354)** [↑](#footnote-ref-25)
26. **تفسير القاسمي = محاسن التأويل (1/ 372)** [↑](#footnote-ref-26)
27. **{مفاتيح الغيب حـ 3 صـ 206 ـ 207}** [↑](#footnote-ref-27)
28. **راجع تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 193)، وفتح القدير للشوكاني (1/ 147)، والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني باب (نسخ).** [↑](#footnote-ref-28)
29. **راجع مصحف الصحابة في القراءات العشر المتواترة من طريق الشاطبية والدرة.** [↑](#footnote-ref-29)
30. **تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (1/ 68-69)** [↑](#footnote-ref-30)
31. **راجع مشكورا زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (1/ 98).** [↑](#footnote-ref-31)
32. **التفسير البسيط للواحدي (3/ 225)، وأبو علي الفارسي (288-377ه‍/900-987م) هو نحويُ وعالم بالعربية وكلامه هنا ملخصًا من "الحجة" 2/ 184 – 186.** [↑](#footnote-ref-32)
33. **التفسير البسيط للواحدي (3/ 225)** [↑](#footnote-ref-33)
34. **راجع نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (2/ 92) بتصرف.** [↑](#footnote-ref-34)
35. **تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (2/ 473)** [↑](#footnote-ref-35)
36. **قال الزجاج: إن القراءة «أو ننسها» بضم النون وسكون الثانية وكسر السين لا يتوجه فيها معنى الترك لأنه لا يُقال أنسى بمعنى ترك، ورد عليه قال أبو علي وغيره: بل ذلك متجه لأنه بمعنى نجعلك تتركها. قلتُ: وهو على معنى ما رواه ابن عباس وغيره (ننسها) بمعنى (ننسكها) أي ننسك إياها. ويترجح لذلك عندي اختيار العلامة ابن جرير الطبري.** [↑](#footnote-ref-36)
37. **قال محققو المسند طبعة الرسالة (24/ 80): إسناده صحيح على شرط الشيخين. سفيان: هو الثوري. وذر: هو ابن عبد الله المُرْهبي الهَمْداني. وأخرجه النسائي في "الكبرى" (8240) من طريق يحيى بن سعيد، بهذا الإسناد. وأخرجه البخاري في "القراءة خلف الإمام" (193) من طريق أبي نعيم الفضل بن دكين، عن سفيان، به. وقد أورده الهيثمي في "مجمع الزوائد" 2/69، وقال: رواه أحمد والطبراني، ورجاله رجال الصحيح.**

    **قال السندي: قوله: قال أُبي: يا رسول الله ... الخ: فهم أُبيٌّ أن مراده بما قال: هو أن يعرف أن أُبياً متنبه لذلك أم لا، فأجاب بأنه متنبه.** [↑](#footnote-ref-37)
38. **تفسير المنار (1/ 345)** [↑](#footnote-ref-38)
39. **ففي سنن أبي داود (1/ 118) بسند صحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَفَلَ مِنْ غَزْوَةِ خَيْبَرَ فَسَارَ لَيْلَةً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَنَا الْكَرَى عَرَّسَ، وَقَال لِبِلَالٍ: «اكْلَأْ لَنَا اللَّيْلَ» قَالَ: فَغَلَبَتْ بِلَالًا عَيْنَاهُ، وَهُوَ مُسْتَنِدٌ إِلَى رَاحِلَتِهِ [ص:119] فَلَمْ يَسْتَيْقِظِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا بِلَالٌ وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ حَتَّى إِذَا ضَرَبَتْهُمُ الشَّمْسُ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلَهُمُ اسْتِيقَاظًا، فَفَزِعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «يَا بِلَالُ» ، فَقَالَ: أَخَذَ بِنَفْسِي الَّذِي أَخَذَ بِنَفْسِكَ ِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَاقْتَادُوا رَوَاحِلَهُمْ شَيْئًا ثُمَّ تَوَضَّأَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمَرَ بِلَالًا فَأَقَامَ لَهُمُ الصَّلَاةَ وَصَلَّى بِهِمُ الصُّبْحَ، فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ، قَالَ: " مَنْ نَسِيَ صَلَاةً فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِلذِّكْرَى» ، قَالَ يُونُسُ: وَكَانَ ابْنُ شِهَابٍ يَقْرَؤُهَا كَذَلِكَ، قَالَ أَحْمَدُ: قَالَ عَنْبَسَةُ: يَعْنِي عَنْ يُونُسَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ «لِذِكْرِي» ، قَالَ أَحْمَدُ: الْكَرَى النُّعَاسُ.** [↑](#footnote-ref-39)
40. **راجع نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (2/ 92) بتصرف كثير.** [↑](#footnote-ref-40)
41. **وأقول: (ارتفاع العمل) لأن الحكم ثبت بالفعل وثبت العمل به، ولكن إلى وقت محدد في علم الله، ثم توقف العمل به. وأقول: (حكم شرعي) لأن الأخبار والعقائد والاحكام العقلية والعادية (= أحكام العادات) لا نسخ فيها، و(دليل شرعي) لأن الأدلة العقلية والعادية لا يصح بها النسخ، و(متأخر عنه في النزول) لا في ترتيب المصحف، فيكون العمل بالحكم الأول حتى نزول الأخير ونسخه إياه، (علم تأخره بيقين) أي بنقلٍ صحيح ممن عاصر نزول القرآن؛ اى بتوقيف من رسول الله أو صحابته الكرام.( ولا يمكن الجمع بينهما) لأنه إذا أمكن الجمع بينهما بتخصيص أو بغيره بطل معنى النسخ فالعمل حينئذٍ بالحكمين كليهما.**

    **أقول: ولهذا تفصيل كبير في كتابي " المحكم والمتشابه في كتاب الله تعالى؛ دراسة تفصيلية ، يسر الله تعالى إخراجه، والانتفاع به.** [↑](#footnote-ref-41)
42. **راجع تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 190)** [↑](#footnote-ref-42)
43. **تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (1/ 68-69)** [↑](#footnote-ref-43)
44. **راجع تفسير القاسمي = محاسن التأويل (1/ 25)** [↑](#footnote-ref-44)
45. **انظر: الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم4/ 458.** [↑](#footnote-ref-45)
46. **انظر: كلام ابن الحصار في الإتقان للسيوطي2/ 24.** [↑](#footnote-ref-46)
47. **البرهان في علوم القرآن (2/ 43)** [↑](#footnote-ref-47)
48. **البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي(1/ 553)** [↑](#footnote-ref-48)
49. **راجع البحر المحيط في التفسير لأبي حيان (1/ 553)** [↑](#footnote-ref-49)
50. **وإن شئت أن تفهم هذا فتأمل كيف بدأت سورة مريم بقصة نبي الله زكريا، ثم يحيى عليهما السلام، ثم قصة نبى الله عيسى عليه السلام بكثير تفاصيل، ثم جاء التعليق الختامي في صورة حكم إلهى في قضيةٍ تم تناولها بمستوى لغوي موسيقي (ينتهي بالياء المشددة الممدودة الرخية " صبيا، نبيا، حيا، شقيا... وهكذا) يتغير هذا الجرس الموسيقي في فواصل الآيات تماما عند النطق بالحكم الإلهي النهائي الذي تعلوه هيبة الثبات التي تتقرر بها كليات العقيدة حيث تطول الفاصلة، وتنتهي القافية بحرف الميم أو النون المستقر الساكن عند الوقف لا بالياء الممدودة الرخية. {ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (مريم: 34، 35) . (أفاده صاحب الظلال رحمه الله تعالى).** [↑](#footnote-ref-50)
51. **تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 176) .** [↑](#footnote-ref-51)
52. **وراجع مشكورا ما جاء في زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (1/ 99) في سبب نزول الآية والمخاطب بها.** [↑](#footnote-ref-52)
53. **حرف (أم) يأتي في اللغة على ثلاثة أوجه:**

    **إما أن تكون متصلة (تعطي معنى العطف أو النسق) لارْتِبَاطِ مَا قَبْلَهَا بِمَا بَعْدَهَا فِي الْمَعْنَى وَهِيَ تأتي تارةً ل(ِطَلَبِ التَّعْيينِ) وهذا النوع يتطلَّب جوابًا بذكر أحد المعادلين وليس التخيير :- أتعرف الجواب أم لا ؟ - أأنت المدرسُ أم أخوك؟ وتَكُونُ مَسْبُوقَةً بِهَمْزَةِ الاسْتِفْهَامِ أوْ هَمْزَةِ التَّسْوِيَةِ، كما في قوله تعالى: {أقَرِيبٌ أمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ} (الأنبياء 109)،**

    **وتأتي بمعنى العطف متصلة أيضا للِتَّسْوِيَةِ بين أمرين إذا سبقت بهمزة التسوية وبكلمة سواء أو ما شابهها، ووقعت بين جملتين يصحّ حلول المصدر محلّهما، وهذا النوع لا يتطلّب جوابًا: -سواء عندي أحضرت أم لم تحضر: أي حضورك وعدمه سواء، -{سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا }: أي جزعنا وصبرنا سواء . و{إن الذين كفروا سَوَاءٌ عَلَيْهِمُ أأنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ} (البقرة 6).**

    **وتأتي منقطعة إذا تمَّ الكلام قبلها، لِوُقُوعِهَا بَيْنَ جُمْلَتَيْنِ مُسْتَقِلَّتَيْنِ. وهنا تأتي بمعنى بل، مثل قوله تعالى: {قل هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى والْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ والنُّورُ} (الرعد 16). وحرف (بل) يفيد الإضراب؛ أي: العدول عن الكلام السابق والالتفات إلى ما بعده.** [↑](#footnote-ref-53)
54. **وراجع – إن شئت-تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (2/ 492) ففيه تفصيل.** [↑](#footnote-ref-54)
55. **تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 380) باختصار.** [↑](#footnote-ref-55)
56. **راجع الطاهر ابن عاشور في التحرير والتنوير (1/ 667)** [↑](#footnote-ref-56)
57. **المفردات في غريب القرآن (ص: 509) للراغب الأصفهانى (المتوفى: 502هـ)، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت.** [↑](#footnote-ref-57)
58. **راجع مشكورا تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (2/ 500)** [↑](#footnote-ref-58)
59. **تفسير المنار (1/ 346)** [↑](#footnote-ref-59)
60. **في ظلال القرآن (1/ 103)** [↑](#footnote-ref-60)
61. **تفسير المنار (1/ 346) بتصرف وتعليق.** [↑](#footnote-ref-61)
62. **تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (2/ 507) باختصار.** [↑](#footnote-ref-62)
63. **الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف للدهلوي (ص: 104)** [↑](#footnote-ref-63)
64. **تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 177) وحاشيته الانتصاف لابن المنير.** [↑](#footnote-ref-64)
65. **تفسير المنار (1/ 350)** [↑](#footnote-ref-65)
66. **ناظر مشكورا في تفسير الآية البحر المحيط في التفسير (1/ 564) و تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (2/ 507)** [↑](#footnote-ref-66)
67. **تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 385)** [↑](#footnote-ref-67)
68. **سيرة ابن هشام ت السقا (1/ 549)** [↑](#footnote-ref-68)
69. **تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 179)** [↑](#footnote-ref-69)
70. **تفسير الشعراوي (1/ 536)** [↑](#footnote-ref-70)
71. **تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 296) بتصرف يسير.** [↑](#footnote-ref-71)
72. **تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (1/ 355).** [↑](#footnote-ref-72)
73. **راجع في هذا والدر المنثور للسيوطي: 1 / 264-265، وتفسير ابن كثير: 1 / 274، والطبري: 2 / 520-521. وتفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 179). وأحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (1/ 50).** [↑](#footnote-ref-73)
74. **راجع في هذا والدر المنثور للسيوطي: 1 / 264-265، وتفسير ابن كثير: 1 / 274، والطبري: 2 / 520-521. وتفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 179). وأحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (1/ 50).** [↑](#footnote-ref-74)
75. **تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (4/ 13)** [↑](#footnote-ref-75)
76. **راجع في هذا والدر المنثور للسيوطي: 1 / 264-265، وتفسير ابن كثير: 1 / 274، والطبري: 2 / 520-521. وتفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 179). وأحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (1/ 50).** [↑](#footnote-ref-76)
77. **تفسير المنار (1/ 357)**

    **.** [↑](#footnote-ref-77)
78. **راجع تفسير القرطبي (2/ 79-83) ط دار الكتب المصرية القاهرة.** [↑](#footnote-ref-78)
79. **تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 390)** [↑](#footnote-ref-79)
80. **انظر تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (4/ 19)** [↑](#footnote-ref-80)
81. **معاني القرآن وإعرابه للزجاج (1/ 197) بتصرف** [↑](#footnote-ref-81)
82. **تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 180) بتصرف يسير واختصار** [↑](#footnote-ref-82)
83. **بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية للعلامة ابن تيمية (1/ 5)** [↑](#footnote-ref-83)
84. **الأسماء والصفات للبيهقي (2/ 81)** [↑](#footnote-ref-84)
85. **مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (6/ 14-19) ت بن قاسم طز مجمع الملك فهد لطباعة المصحف.** [↑](#footnote-ref-85)
86. **في ظلال القرآن (1/ 105)** [↑](#footnote-ref-86)
87. **قال صاحب مقاييس اللغة (5/ 31): (قَنَتَ) الْقَافُ وَالنُّونُ وَالتَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى طَاعَةٍ وَخَيْرٍ فِي دِينٍ، لَا يَعْدُو هَذَا الْبَابَ. وَالْأَصْلُ فِيهِ الطَّاعَةُ، يُقَالُ: قَنَتَ يَقْنُتُ قُنُوتًا. ثُمَّ سُمِّيَ كُلُّ اسْتِقَامَةٍ فِي طَرِيقِ الدِّينِ قُنُوتًا، وَقِيلَ لِطُولِ الْقِيَامِ فِي الصَّلَاةِ قُنُوتٌ، وَسُمِّيَ السُّكُوتُ فِي الصَّلَاةِ وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهَا قُنُوتًا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} [البقرة: 238].** [↑](#footnote-ref-87)
88. **زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (1/ 104)** [↑](#footnote-ref-88)
89. **تفسير المنار (1/ 360)** [↑](#footnote-ref-89)
90. **والبدعة على قسمين: تارة تكون بدعة شرعية (أي في مسمى الشرع)، كقوله: فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة. وتارة تكون بدعة لغوية (أي في إطلاق اللغة بغير معناها في الشرع)، كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن جمعه إياهم على صلاة التراويح واستمرارهم: نعمت البدعة هذه. تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 398)** [↑](#footnote-ref-90)
91. **تفسير العز بن عبد السلام (1/ 157) بتصرف.** [↑](#footnote-ref-91)
92. **فتح القدير للشوكاني (1/ 155) بتصرف.**  [↑](#footnote-ref-92)
93. **تفسير المنار (1/ 361) باختصار.** [↑](#footnote-ref-93)
94. **في ظلال القرآن (1/ 106)** [↑](#footnote-ref-94)
95. **راجع تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 182) بتصرف وبيان.** [↑](#footnote-ref-95)
96. **؛ فإن محمد بن كعب بن سليم القرظي: تابعي. والمرسل لا تقوم به حجة، ثم هما – عند الطبري وغيره-إسنادان ضعيفان أيضًا، بضعف راويهما: موسى بن عبيدة بن نشيط الربذي: ضعيف جدا منكر الحديث، مترجم في التهذيب. وروى ابن أبي حاتم عن الجوجزاني قال: "سمعت أحمد بن حنبل يقول: لا تحل الرواية عندي عن موسى بن عبيدة، قلنا: يا أبا عبد الله، لا يحل؟ قال: عندي، قلت: فإن سفيان وشعبة قد رويا عنه؟ قال: لو بان لشعبة ما بان لغيره ما روى عنه". وقال ابن معين: "لا يحتج بحديثه". وقال أبو حاتم: "منكر الحديث". والحديث الآخر الذي أورده الطبري بإسناده عن داود بن أبي عاصم عن النبى صلوات الله عليه، وهو تابعي ثقة والحديث أيضا لا يصح لإرسالة ولا تقوم به الحجة. انظر تحقيق العلامة الشيخ شاكر على تفسير الطبري = جامع البيان (2/ 558).**

    **وقد ذكر هذه الرواية كثير من المفسرين دون تعليق منهم. الزمخشري في الكشاف حـ1 صـ181، ومنهم ابن الجوزى في زاد المسير حـ1 صـ 137، ومنهم السمرقندي في بحر العلوم حـ1 صـ 115 ومنهم البيضاوي حـ1 صـ392 ومنهم النسفى حـ1 صـ68، ومنهم السمعاني حـ1 صـ132 والواحدي حـ1 صـ129، ومنهم الصنعاني حـ1 صـ77، ومنهم ابن جزى في التسهيل حـ1صـ59.**

    **وقد رد هذه الرواية كثير من المحققين من العلماء والمفسرين منهم القرطبي رحمه الله حـ2 صـ64، وابن عطية، وأبو السعود حـ1 صـ152، والآلوسى حـ1 صـ371، والثعالبي حـ1 صـ103، والخطيب الشربيني في السراج المنير حـ1 صـ89.و غيرهم.** [↑](#footnote-ref-96)
97. **تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: 64)** [↑](#footnote-ref-97)
98. **نقلا عن روح البيان حـ1 صـ395** [↑](#footnote-ref-98)
99. **هذا ملخص كلام الشيخ الشنقيطي ـرحمه الله ـ في تفسيره أضواء البيان حـ3 ص66،65 عند الكلام على قوله تعالى " وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً"** [↑](#footnote-ref-99)
100. **حاشية السندي على سنن ابن ماجه (1/ 477)** [↑](#footnote-ref-100)
101. **في ظلال القرآن (1/ 100)** [↑](#footnote-ref-101)
102. **قال ابن خلدون في مقدمته الشهيرة (1/ 189): الفصل السابع والعشرون: في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة.**

     **والسّبب في ذلك أنّهم لخلق التّوحّش الّذي فيهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمّة والمنافسة في الرّئاسة فقلّما تجتمع أهواؤهم. فإذا كان الدّين بالنّبوءة كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم من الدّين المذهب للغلظة والأنفة الوازع عن التّحاسد والتّنافس. فإذا كان فيهم النّبيّ الّذي يبعثهم على القيام بأمر الله يذهب عنهم مذمومات الأخلاق، ويأخذهم بمحمودها ، ويؤلّف كلمتهم لإظهار الحقّ تمّ اجتماعهم وحصل لهم التّغلّب والملك، وهم مع ذلك أسرع النّاس قبولا للحقّ والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق إلّا ما كان من خلق التّوحّش القريب المعاناة المتهيّئ لقبول الخير. انتهى** [↑](#footnote-ref-102)
103. **في ظلال القرآن (1/ 108)** [↑](#footnote-ref-103)
104. **التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور حـ 1 صـ397- 399** [↑](#footnote-ref-104)
105. **البحر المحيط في التفسير (1/ 590)** [↑](#footnote-ref-105)
106. **قولهم: " إِيَّاكِ أَعْنِي واسْمَعِي يا جَارَة"**

     **أول من قال ذلك سهْل بن مالك الفزاري. وذلك أنه خرج يومئذ فمرّ ببعض أحياء طيء، فسأل عن سيد الحي فقيل له: حارثة بن لأْم. فأمَّ رحله فلم يُصبه شاهداً قالت له أخته: انزل في الرحب والسعة، فنزل فأكرمته وألطفته. ثم خرجت من خِباءٍ إلى خباء فرأى أجمل أهل دهرها وأكملهم، وكانت عقيلة قومها وسيدة نسائها. فوقع في نفسه منها شيء، فجعل لا يدري كيف يرسل إليها ولا ماوافقها من ذلك. فجلس بفناء الخباء يوماً وهي تسمع كلامه وهو ينشد:**

     **يا أُخْتَ خَيْرِ البَدْوِ والحضارهْ ... كيف تَرَيْنَ في فَتَى فَزَارَهْ**

     **أَصْبَحَ يَهْوَى حُرَّةً مِعْطَارَهْ ... إِيَّاكِ أَعْنِي واسْمَعِي يا جَارَهْ**

     **فلما سمعت قوله عرفت أنه إياها يعني، فقالت: ماذا بقول ذي عقل أريب، ولا رأيٍ مُصيب، ولا أنفٍ نجيب. فأقِم ما أقمت مُكرَّماً، ثم ارتحِل إذا شئت مُسلَّما. فاستحيا من قولها وقال: ما أردت مُنكراً واسَوْأتاه. قالت: صدقت. وكأنها استحيت من تسرعها إلى تهمته. فارتحل فأتى النعمان فحباه وأكرمه. فلما رجع نزل على أخيها، فبينما هو مُقيم عندهم تطلّعت إليه نفسُها وكان جميلاً. فأرسلت إليه أن اخطُبني إن كانت لك فيّ يوماً من الدهر حاجة، فإني سريعة إلى ذلك. فخطبها وتزوجها وسار بها إلى قومه.انتهى من الفاخر لأبي طالب المفضل بن سلمة (ص: 158).** [↑](#footnote-ref-106)
107. **البحر المحيط في التفسير (1/ 590)** [↑](#footnote-ref-107)
108. **التحرير والتنوير حـ 1 صـ397- 399** [↑](#footnote-ref-108)
109. **{مفاتيح الغيب حـ 4 صـ 30}** [↑](#footnote-ref-109)
110. **تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (4/ 30) بتصرف واختصار.** [↑](#footnote-ref-110)
111. **الابتلاء والبلاء هو الاختبار والامتحان، يقال بلوته وابتليته بلاءً وابتلاءاً إذا اختبرته، وَقَالَ الشاعر: بُلِيتُ وَفِقْدَانُ الْحَبِيبِ بَلِيَّةٌ ... وَكَمْ مِنْ كِرِيمٍ يُبْتَلَى ثُمَّ يَصْبِرُ.** [↑](#footnote-ref-111)
112. **البحر المحيط في التفسير (1/ 599)** [↑](#footnote-ref-112)
113. **قال العلامة الراغب: وسمي التكليف بلاءً من أوجه:**

     **- أحدها: أن التكاليف كلها مشاق على الأبدان، فصارت من هذا الوجه بلاء.**

     **- والثاني: أنها اختبارات، ولهذا قال الله عز وجل: {ولنبلوكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم} [محمد/31].**

     **- والثالث: أن اختبار الله تعالى للعباد تارة بالمسار ليشكروا، وتارة بالمضار ليصبروا، فصارت المحنة والمنحة جميعا بلاء، فالمحنة مقتضية للصبر، والمنحة مقتضية للشكر. والقيام بحقوق الصبر أيشر من القيام بحقوق الشكر فصارت المنحة أعظم البلاءين، وبهذا النظر قال عمر: (بلينا بالضراء فصبرنا وبلينا بالسراء فلم نشكر)، ولهذا قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: من وُسِّع عليه دنياه فلم يعلم أنه قد مُكِر به فهو مخدوعٌ عن عقله.... فإذا قيل في الله تعالى: بلاه كذا وأبلاه وابتلاه، فليس المراد منه إلا ظهور جودته ورداءته، وإظهار أمر ذلك، دون التعرف لحاله، والوقوف على ما يُجهل من أمره إذ كان الله علام الغيوب، وعلى هذا قوله عز وجل: {وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن} [البقرة/124]. راجع مفردات ألفاظ القرآن (1/ 117).** [↑](#footnote-ref-113)
114. **منها ما رَوَى طَاوُسٌ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهَا الْعَشَرَةُ الَّتِي مِنَ الْفِطْرَةِ: المضمضة، والاستنشاق، وقص الشارب، وَإِعْفَاءُ اللِّحْيَةِ، وَالْفَرْقُ، وَنَتْفُ الْإِبِطِ، وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ، وَالِاسْتِطَابَةُ، وَالْخِتَانُ، وَهَذَا قَوْلُ قَتَادَةَ.**

     **وقيل: حَلْقُ الْعَانَةِ، وَنَتْفُ الْإِبِطِ، وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ، وَقَصُّ الشَّارِبِ، وَغُسْلُ يَوْمِ الْجُمْعَةِ، وَالطَّوَافُ بِالْبَيْتِ، وَالسَّعْيُ، وَرَمْيُ الْجِمَارِ، وَالْإِفَاضَةُ. وَرُوِيَ هَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا.**

     **وقيل: هِيَ الْخِصَالُ السِّتُّ الَّتِي امْتُحِنَ بِهَا الْكَوْكَبُ، وَالْقَمَرُ، وَالشَّمْسُ، وَالنَّارُ، وَالْهِجْرَةُ، وَالْخِتَانُ. وَقِيلَ: الذَّبْحُ لِوَلَدِهِ، قَالَهُ الْحَسَنُ. وقيل: مَنَاسِكُ الْحَجِّ، رَوَاهُ قَتَادَةُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وقيل: غير ذلك.... وقال أبو حيان: وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ يَنْبَغِي أَنْ تُحْمَلَ عَلَى أَنَّ كُلَّ قَائِلٍ مِنْهَا ذَكَرَ طَائِفَةً مِمَّا ابْتَلَى اللَّهُ بِهِ إِبْرَاهِيمَ، إِذْ كُلُّهَا ابْتَلَاهُ بِهَا، وَلَا يُحْمَلُ ذَلِكَ عَلَى الْحَصْرِ فِي الْعَدَدِ، وَلَا عَلَى التَّعْيِينِ، لِئَلَّا يُؤَدِّيَ ذَلِكَ إِلَى التَّنَاقُضِ. وَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي فَسَّرَ بِهَا الْكَلِمَاتِ، إِنْ كَانَتْ أَقْوَالًا، فَذَلِكَ ظَاهِرٌ فِي تَسْمِيَتِهَا كَلِمَاتٍ، وَإِنْ كَانَتْ أَفْعَالًا، فَيَكُونُ إِطْلَاقُ الْكَلِمَاتِ عَلَيْهَا مَجَازًا، لِأَنَّ التَّكَالِيفَ الْفِعْلِيَّةَ صَدَرَتْ عَنِ الْأَوَامِرِ، وَالْأَوَامِرُ الإلهية كَلِمَاتٌ. البحر المحيط في التفسير (1/ 600)** [↑](#footnote-ref-114)
115. **تفسير ابن كثير ط العلمية (1/ 284)** [↑](#footnote-ref-115)
116. **تفسير ابن كثير ط العلمية (1/ 10)** [↑](#footnote-ref-116)
117. **مشارق الأنوار فيما حواه تفسير البقاعي من الفوائد والأسرار 1/126.** [↑](#footnote-ref-117)
118. **انظر العلامة ابن القيم في الفوائد (ص: 208) وإعلام الموقعين عن رب العالمين (4/ 103).** [↑](#footnote-ref-118)
119. **تفسير البغوي - طيبة (1/ 146)** [↑](#footnote-ref-119)
120. **تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 184)** [↑](#footnote-ref-120)
121. **في ظلال القرآن (1/ 112)** [↑](#footnote-ref-121)
122. **وقال الإمام الجصاص ـ رحمه الله:**

     **وَقَوْلُهُ: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا} إنَّمَا هُوَ حُكْمٌ مِنْهُ بِذَلِكَ لَا خَبَرٌ. وَكَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى : {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا} {وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} كُلُّ هَذَا مِنْ طَرِيقِ الْحُكْمِ ، لَا عَلَى وَجْهِ الْإِخْبَارِ بِأَنَّ مَنْ دَخَلَهُ لَمْ يَلْحَقْهُ سُوءٌ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ خَبَرًا لَوَجَدَ مُخْبِرُهُ عَلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ ؛ لِأَنَّ أَخْبَارَ اللَّهِ تَعَالَى لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِهَا عَلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ ، وَقَدْ قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : {وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ} فَأَخْبَرَ بِوُقُوعِ الْقَتْلِ فِيهِ ؛ فَدَلَّ أَنَّ الْأَمْرَ الْمَذْكُورَ إنَّمَا هُوَ مِنْ قَبْلِ حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْأَمْنِ فِيهِ وَأَنْ لَا يُقْتَلَ الْعَائِذُ بِهِ وَاللَّاجِئُ إلَيْهِ.**

     **وَكَذَلِكَ كَانَ حُكْمُ الْحَرَمِ مُنْذُ عَهْدِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَقَدْ كَانَتْ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَعْتَقِدُ ذَلِكَ لِلْحَرَمِ وَتَسْتَعْظِمُ الْقَتْلَ فِيهِ عَلَى مَا كَانَ بَقِيَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ شَرِيعَةِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. انتهى. (أحكام القرآن للجصاص حـ1 صـ 90)** [↑](#footnote-ref-122)
123. **والحديث بطوله -رواه الإمام أحمد في المسند: 14492 (ج 3 ص 320-321 حلبي) عن يحيى القطان، عن جعفر.ورواه مسلم في صحيحه 1: 346-347، عن أبي بكر بن أبي شيبة وإسحاق بن راهويه -كلاهما عن حاتم بن إسماعيل، عن جعفر الصادق، به. تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (2/ 32) باختصار.**

     **قال البغوي في تفسيره – ط. طيبة (1/ 147):**

     **وأما بدء قصة المقام فقد (1) روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أتى إبرهيم عليه وسلم بإسماعيل وهاجر ووضعهما بمكة، وأتت على ذلك مدة، ونزلها الجرهميون وتزوج إسماعيل منهم امرأة وماتت هاجر، واستأذن إبراهيم سارة أن يأتي هاجر، فأذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل فقدم إبراهيم مكة، وقد ماتت هاجر، فذهب إلى بيت إسماعيل فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قال ذهب للصيد وكان إسماعيل عليه السلام يخرج من الحرم فيصيد، فقال لها إبراهيم: هل عندك ضيافة؟ قالت ليس عندي ضيافة، وسألها عن عيشهم؟ فقالت: نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه فقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له فليغير عتبة بابه، فذهب إبراهيم فجاء إسماعيل فوجد ريح أبيه فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ قالت: جاءني شيخ صفته كذا وكذا كالمستخفة بشأنه قال] فما قال لك؟ قالت قال أقرئي زوجك السلام وقولي له فليغير عتبة بابه، قال ذلك أبي وقد أمرني أن أفارقك الحقي بأهلك، فطلقها وتزوج منهم أخرى، فلبث إبراهيم ما شاء الله أن يلبث، ثم استأذن سارة أن يزور إسماعيل فأذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل، فجاء إبراهيم عليه السلام حتى انتهى إلى باب إسماعيل فقال لامرأته أين صاحبك؟ قالت ذهب يتصيد وهو يجيء الآن إن شاء الله فانزل يرحمك الله، قال: هل عندك ضيافة؟ قالت: نعم فجاءت باللبن واللحم، وسألها عن عيشهم؟ فقالت: نحن بخير وسعة، فدعا لهما بالبركة ولو جاءت يومئذ بخبز بر أو شعير وتمر لكانت أكثر أرض الله برا أو شعيرا أو تمرا، فقالت له: انزل حتى أغسل رأسك، فلم ينزل فجاءته بالمقام فوضعته عن شقه الأيمن فوضع قدمه عليه فغسلت شق رأسه الأيمن ثم حولت إلى شقه الأيسر فغسلت شق رأسه الأيسر فبقي أثر قدميه عليه، فقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له قد استقامت عتبة بابك، فلما جاء إسماعيل، وجد ريح أبيه فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ قالت: نعم شيخ أحسن الناس وجها وأطيبهم ريحا، وقال لي كذا وكذا وقلت له كذا وكذا، وغسلت رأسه وهذا موضع قدميه فقال: ذاك إبراهيم النبي أبي، وأنت العتبة أمرني أن أمسكك.**

     **(2) وروي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ثم لبثت عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلا تحت دومة قريبا من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد ثم قال: يا إسماعيل إن الله تعالى أمرني بأمر تعينني عليه؟ قال: أعينك قال: إن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتا، فعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم حتى ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام إبراهيم على الحجر المقام وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان {ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم} وفي الخبر: "الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة ولولا ما مسته أيدي المشركين لأضاء ما بين المشرق والمغرب" .**

     **أما الأثر (1) أخرجه البخاري: مطولا في الأنبياء.**

     **والأثر(2) أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمرو بلفظ "إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما ولو لم يطمس نورههما لأضاءتا ... " 3 / 618 وقال هو حديث غريب. ورواه الحاكم في الحج عن داود الزبرقان عن أيوب السختياني عن قتادة بن دعامة عن أنس وقال: صحيح فرده الذهبي بأن فيه داود، قال أبو داود: متروك، (فيض القدير: 4 / 59) . ورواه أيضا عن عبد الله بن عمرو، انظر: المستدرك: 1 / 456. وأخرجه الواحدي في الوسيط: 1 / 190، وانظر: تحفة الأحوذي: 1 / 618-619.** [↑](#footnote-ref-123)
124. **قال ابن جرير رحمه الله: فمعنى الآية: وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتي للطائفين. والتطهير الذي أمرهما به في البيت هو تطهيره من الأصنام وعبادة الأوثان فيه ومن الشرك.**

     **ثم أورد الطبري سؤالا فقال: فإن قيل: فهل كان قبل بناء إبراهيم عند البيت شيء من ذلك الذي أمر بتطهيره منه؟ وأجاب بوجهين: أحدهما: أنه أمرهما بتطهيره مما كان يُعبد عنده زمان قوم نوح من الأصنام والأوثان ليكون ذلك سنة لمن بعدهما... وهذا الجواب مبنىٌ على أنه كان يعبد عنده أصنام قبل إبراهيم عليه السلام، ويحتاج إثبات هذا إلى دليل عن المعصوم محمد صلى الله عليه وسلم.** [↑](#footnote-ref-124)
125. **تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 313)** [↑](#footnote-ref-125)
126. **في ظلال القرآن (1/ 115)** [↑](#footnote-ref-126)
127. **تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (1/ 106)** [↑](#footnote-ref-127)
128. **تفسير ابن عرفة (1/ 419) بتصرف.** [↑](#footnote-ref-128)
129. **صفوة التفاسير (1/ 85)** [↑](#footnote-ref-129)
130. **في ظلال القرآن (1/ 116)** [↑](#footnote-ref-130)
131. **مختصر تفسير ابن كثير (1/ 130)** [↑](#footnote-ref-131)
132. **تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 213)** [↑](#footnote-ref-132)
133. **فمن ينكر وجود الغول إنى ... أخبر عن يقين بل عيان**

     **بأنى لقد لقيت الغول تهوى ... بسهب كالصحيفة صحصحان**

     **فأضربها بلا دهش فخرت ... صريعا لليدين وللجران**

     **لتأبط شرا. والغول: أثى الشياطين. والعيان: المشاهدة بالعين. والهوى: الهبوط. والمراد: سرعة العدو.**

     **والسهب- بالفتح-: الفضاء المستوى البعيد الأطراف. والصحيفة: الكتاب. والصحصحان والصعصعان- بالفتح-:**

     **المستوى من الأرض. والجران- ككتاب-: مقدم عظم العنق من الحلق إلى اللبة، وجمعه جرنة ككتبة، وأجرنة كأفئدة. يقول: فمن ينكر وجود الغول فقد كذب، فإنى أخبر عن يقين. ويجوز أن المعنى: فيا من تنكر وجود الغول، إنى أخبر إخبارا ناشئا عن يقين، وهو ما كان بدليل قاطع بل عيان ومشاهدة بالعين، بأنى قد لقيتها تسرع في مكان متسع مستو، وكرر الوصف بذلك توكيدا، وأظهر موضع الإضمار لزيادة تمكين الغول في ذهن السامع وللتهويل، وكان الظاهر أن يقول: فضربتها، لكن عدل إلى المضارع ليحكى الحال الماضية كأنها موجودة الآن مشاهدة فيتعجب منها، وتعلم شجاعته، أى: فجعلت أضربها بلا خوف فسقطت مطروحة على يديها وعنقها. وفعيل: يوصف به المذكر والمؤنث كما هنا.** [↑](#footnote-ref-133)
134. **تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (3/ 601)** [↑](#footnote-ref-134)
135. **تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (2/ 338)** [↑](#footnote-ref-135)
136. **تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 213)** [↑](#footnote-ref-136)
137. **تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 192) باختصار.** [↑](#footnote-ref-137)
138. **تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 320)** [↑](#footnote-ref-138)
139. **تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 193)** [↑](#footnote-ref-139)
140. **فتح القدير للشوكاني (1/ 170)** [↑](#footnote-ref-140)
141. **البحر المحيط في التفسير (1/ 644)** [↑](#footnote-ref-141)